نظرات في كتاب الله

٧

من هدي سورة آل عمران

حنان لحام



دار الهدى للنشر والتوزيع

الرياض - شارع طارق بن زياد

شرق مستوصف الرغب - هاتف ٤١٢١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

تم بحمد الله وعونه وتوفيقه

طبع هذا الكتاب بعد موافقة الإدارة العامة لشؤون المصاحف ومراقبة المطبوعات برئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض.

برقم ١١٩٦/٥ وتاريخ ١٨/٨/١٤٠٨ هـ

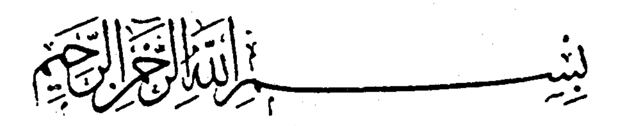


دار الهدى للنشر والتوزيع

الرياض - شارع طارق بن زياد

شرق مستوصف الرف - هاتف ٤١٢١٩٧٤

مِنْ هُدَى
سُورة آل عِمران



ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ

وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ

[النمل] (٥٩)

رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ

إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ

[البقرة] (١٢٧)

تقديم

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾[1]

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد فقد رأيت من المفيد أن أعرض للقارىء كيف بدأ هذا الكتاب. بل كيف بدأ قبله كتاب: من هدي سورة النساء والذي جاء بعده من هدي سورة البقرة. اهتداء بقول الله تعالى: ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق﴾.

لقد بدأ الأمر منذ أكثر من عشرين عاماً... عندما بدأت ألتقي مع بعض الأخوات الطيبات في دمشق أسبوعياً لنتدارس القرآن. وكانت الأخت ليلى سعيد ـ جزاها الله خيراً ـ هي التي تقدم التفسير، وكنت أهتم بالتقاط الأفكار التي تعرضها وكتابتها في مذكرات أرجع إليها بين فترة وأخرى، وذلك أنني كنت أجد فيها أفكاراً جديدة لم يسبق لها أن طرحت في التفاسير. وقد ذكرت لنا الأخت ليلى أن ما كانت تقدمه لنا من أفكار إنما هو حصيلة سنوات لجلسة يومية عائلية في التفسير كان يقدمها لهم أخوها الأستاذ جودت سعيد.

ومرت السنوات ونحن في دأب على هذه الجلسة... لم يثننا عنها استخفاف الناس بضآلة هذا العمل... ولا قول آخرين: إن الظروف غير

(1) سورة العنكبوت ـ الآية ٢٠.

مناسبة. . . واستمر دأبي على تسجيل الأفكار. . . وأشعر الآن أن الكتابة والمواظبة في الحضور كان لهما فضل كبير في نمو هذه الأفكار عندي، إلى أن أتى يوم اضطرت فيه الأخت ليلى للسفر التحاقاً بزوجها الذي كان يتابع دراسته في ألمانيا. فكلفتني أن أنوب عنها في تقديم التفسير. . فعدت إلى دفاتري وإلى التفاسير الثلاثة: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ـ في ظلال القرآن ـ للأستاذ سيد قطب ـ تفسير المنار ـ للسيد رشيد رضا رحمهم الله جميعاً. ألتقط أهم ما فيها، وأضيف إليه بعض ما اطلعت عليه من أفكار في كتب أخرى. . . وهكذا كنت أحضِّر الدروس وأكتبها في دفاتر جديدة. ولم يكن يخطر في بالي عندها أنها ستكون نواة لخروج كتب في التفسير.

ومرت السنوات. . . وقد أصبحت الجلسة الأسبوعية جلسات. ثم انتقلت إلى مكة المكرمة. . . وتركت أخواتي في دمشق وهنَّ حريصات على المتابعة في دراسة القرآن. . . وفي مكة عدت إلى التحضير من جديد حيث قدمت تفسير السور الثلاثة: البقرة وآل عمران والنساء في مدرسة القرآن. . . وكانت سورة النساء قد سبقت إذ تم تدارسها قبل ذلك مع نخبة من الطالبات الجامعيات لما فيها من أحكام تتعلق بالمرأة.

واليوم أتأمل ثمرة عشرين عاماً. . . وأنا بين الرضا والأسى. . . الرضا بما حصل ولله الحمد. والأسى لأنني أحس بأنني لو ضاعفت الجهد لكانت النتائج أفضل في الكم والكيف.

ولعل كثيراً من المسلمين ينظرون إلى ما قدمت نظرة استهجان. . . إذ لم يسبق لامرأة ضعيفة مثلي أن تجرأت على الكتابة في التفسير. . !! وما زلت أذكر أنني تلقيت نصيحة من أحد الأساتذة الكرام منذ أن صدر كتابي الأول في التفسير: أضواء من سورة يس. أن أكتفي بكتابة القصص وأدع الكتابة في مجال الفكر والتفسير. لكن هذه النصيحة لم تجد صدى في نفسي. . بل لعلها حركت بعض دوافع الاستمرار في نفسي. . وفي المقابل كنت أتلقى تشجيعاً ودعماً كبيرين

من أستاذي الكريم جودت سعيد. وأنا أقر له بالفضل، فلئن استطعت أن أقدم بعض الأفكار الحيوية الهامة.. فإنما هي من تأثيره وتعليمه...

أيها القراء الكرام: أرجو أن لا تعجبوا من جرأتي على اقتحام هذا المجال فلقد هزتني قصة امرأة عمران ونذرها... ووجدتني أمام قول الله عز وجل في مريم: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾... وقد فُتحت لي الأبواب ودُعيت إلى الدخول فكيف أتردد..؟! ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾.

أعود فأقول: أرجو أن يتأمل القارىء الكريم معي كيف تبدأ الأعمال. حتى لا نزهد في الأعمال اليومية مهما كانت بسيطة.. فإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل. وإن الأمور الكبيرة لا تولد فجأة... لكنها تبدأ كالإنسان... خلية واحدة ثم جنيناً ثم إنساناً سوياً.. هكذا بدأ الله الخلق.

وأودّ قبل أن أنهي مقدمتي أن أتقدم بالشكر إلى الاخوة الدكتور عبد اللطيف الخياط، والأستاذ محمد موفق سليمة والأستاذ أحمد سعيد النحاس لاطلاعهم على هذا الكتاب وما قدّموه من ملحوظات قيمة أفادتني في إضافة وتعديل بعض الأفكار الهامة فجزاهم الله خيراً وبارك في عطائهم.

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

وأسأله سبحانه وتعالى أن يزيدنا إخلاصاً وصواباً ويجزي كل العاملين لخدمة الإسلام والمسلمين عنّا كل خير.

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾

حنان لحام

مكة المكرمة

١٢ جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ

١٩٨٨/١/١ م



بين يدي السورة

هي سورة مدنية. عدد آياتها مائتا آية. ورد في فضلها أحاديث منها: عن أبي أمامة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «اقرؤوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة. اقرؤوا الزهراوين (البقرة وآل عمران) فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غَيَايَتان أو كأنهما فَرَقان من طير صواف يحاجّان عن أهلهما يوم القيامة. ثم قال: اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»(١).

نزلت هذه السورة بعد غزوة بدر ـ فقد أشارت الآية رقم (١٣) من السورة إلى غزوة بدر ـ واستمرت آياتها تنزل إلى ما بعد غزوة أحد حيث ورد ذكر الغزوة فيها مع التعليق والتوجيه.

وكان الناس حينذاك على أصناف:

١ ـ السابقون من المهاجرين والأنصار.

---

(١) رواه احمد ومسلم. والزهراوان: المنيرتان. والغياية: ما أَظَلَّكَ من فوقك. والفَرَق: القطعة من الشيء. والبطلة: السحرة. لا تستطيعها البطلة بمعنى لا تقدر على قراءتها وحفظها. أو بمعنى: لا يقدر أهل الباطل على إيذاء حامل سورة البقرة.

٢ ـ عامة المسلمين الذين لم تكتمل تربيتهم بعد.
٣ ـ المنافقون.
٤ ـ اليهود.
٥ ـ النصارى. وقد تصدّت السورة لمناقشة وفد نجران منهم خاصة.
٦ ـ المشركون.

والسورة تتعرض لهذه الأصناف كلها... وتخوض حواراً معها.

وسنلمس اختلافاً بين هذه السورة وسورة البقرة. فلئن جاء في سورة البقرة حديث طويل عن اليهود... فإن آل عمران تحدثت عن النصارى أكثر.

وقد اشتملت سورة البقرة على موضوعات كثيرة من بينها أحكام وتنظيمات اجتماعية واقتصادية بينما نجد سورة آل عمران تركّز على هدفين رئيسَيْن:

١ ـ عرض العقيدة الصحيحة ومناقشة أهل الكتاب ونقدهم فكراً وسلوكاً.

٢ ـ نقد أخطاء المؤمنين وتوجيههم لفهم سنة الحياة والأخذ بأسبابها.

ويمكن أن نقسم السورة إلى ستة مقاطع لتسهيل الدراسة، تحمل العناوين التالية:

١ ـ في الكتاب	(من الآية ١ إلى الآية ٣٢)
٢ ـ في الذين نزل عليهم الكتاب	(من الآية ٣٣ إلى الآية ٩٩)
٣ ـ توجيهات إلى المؤمنين	(من الآية ١٠٠ إلى الآية ١٢٠)
٤ ـ غزوة أحد.	(من الآية ١٢١ إلى الآية ١٧٩)
٥ ـ من مواقف اليهود	(من الآية ١٨٠ إلى الآية ١٨٩)
٦ ـ أولو الألباب يتفكرون ويذَّكرون.	(من الآية ١٩٠ إلى الآية ٢٠٠)

موضوعات السّورة

الصفحة

***

الفصل الأول

في الكتاب





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ
كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ
ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ
فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ
ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾
قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ
كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ

مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ
وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ
وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ
مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾
شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن
يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ
أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ
بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم

مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ
فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ
وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ
ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُۖ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ
وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ
وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ
وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن
دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ
مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ
مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا
وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ
نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ
وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن
تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞



الفصل الأول

في الكتاب

١ ـ القرآن وما نزل من قبل:

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ ﴾

﴿الم﴾: هـذه الأحرف رمـوز يحبس فيها العلم. وهنـا تبدو أهميـة الكتابـة للإنسان فهي مرحلة من مراحل العلم. وهي ضمان للعلم من الضيـاع وبها ينمـو العلم ويـرتقي. وهي من القـدرات التي أنعم الله بهـا عـلى الإنسان ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾[1].

فالإنسان يولد وهو قارىء كاتب بالقوة (بالقـدرات الكامنـة)، فإذا اجتهـد وتعلم أصبح قارئاً كاتباً بالفعل. واستطاع أن يسخّر علمه للخير ليكون خليفة الله في الأرض.

ولقد عوّدنا القرآن الكريم ـ كما في سورة البقرة ولقمان مثلاً ـ أن يذكر شيئاً عن الكتاب بعد الافتتاح بالأحرف مباشرة... بنيما تأتي الآية هنا تذكّر بـأمر هـام وهو الوحدانية، ثم تتطرق إلى الكتاب:

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾ فكأن الآية تقـول: الله هو الـذي أنعم

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣١.

عليكم بالقدرة على استعمال الحروف. وأنعم بإنزال القرآن وحفظه بالكتابة ليبقى المرجع الحق لكم. كما تتابع الآيات بعد ذلك ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

ويمكن أن تكون الآية إشارة إلى الارتباط بين العلم - فالأحرف « الم» رموز له - وبين معرفة الله وتوحيده. . . ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾[1]. وإن العلم كلما ازداد رقياً قدّم آيات الولاء لله وحده.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وهي خير كلمة قالها الأنبياء وفيها خلاص الإنسان من كل ضروب الجهل وألوان العبودية. فلا خالق ولا مشرع ولا مجيب للدعاء إلا الله.

فالتوحيد يقضي على الجِبْت: وهو كلّ من يدعي لنفسه القدرة على نفع الناس وضرهم. ويقضي على الطاغوت: وهو كل من يدعي لنفسه حق التشريع والتسلّط على الناس.

يتحدث الدكتور مصطفى حجازي في كتابه (سيكولوجية الإنسان المقهور) عن مشكلات الإنسان في عالمنا خاصة وفي العالم عامة. فيردّها إلى عاملين أساسيين:

١ - علاقات التسلط والخضوع بين البشر.

٢ - الرضوخ لقهر الطبيعة (ولا سيما في عالمنا).

ولو تأملنا حقيقة التوحيد لوجدنا فيه الخلاص للبشرية، لأنه يُحرّر الإنسان من كل قهر واستعباد. فالناس كلهم عبيد لله وحده. وإنما يطاع الحاكم إذا أمر بطاعة الله، فإن أمر بمعصية أو ظلم فلا طاعة له. والتوحيد لا يسمح بتسلّط الدجالين على المؤمنين لأنهم يعتقدون أن الله وحده يملك مصيرهم وأن مصالحهم لا تقضى باللجوء إلى السحرة والمشعوذين، ولكن بتعلم سنن الله التي تحكم الحياة واستخدامها.

---

(١) سورة محمد: الآية ١٩.

كذلك فإن التوحيد يحرّر من قهر الطبيعة. فليست الطبيعة هي التي تتلاعب بمصير الإنسان.. بل إن الإنسان سيد الطبيعة خلقها الله من أجله وسخّرها له لتخدمه دون مقابل... وما على الإنسان إلا أن يكشف قوانينها كي يمسك بزمامها ويسخّرها لما فيه خير الجميع... وهكذا قدمت فكرة التوحيد خدمة للعلوم الكونية... إذ لو بقي الناس يعبدون مظاهر الطبيعة ويخضعون لها لما أمكن أن يدرسوا قوانينها ويسخّروها.

والتوحيد الآن يمثل أملاً يتطلّع إليه العقلاء والعلماء كمثل أعلى يمكن أن يوحّد الأمم في كيان عالمي متراحم متعاون قبل أن تدمّر العالم حرب عالمية جديدة.

﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ الحي الذي يستمد كل حي منه حياتـهِ فله الحياة الأبدية، والقيوم الذي يقوم كل شيء بأمره. وقد ورد أن (الحي القيوم) اسم الله الأعظم[1].

والآيات تتصدى لعرض العقيدة السليمة في مواجهة الشرك وعقائد أهل الكتاب التي داخلها الزيغ والتحريف. فالله الذي لا إله إلا هو... هو الذي أنزل الكتب السماوية كلها:

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فكل ما نصّ عليه القرآن حق... والعلم بنموه وازدياده يقدم البرهان على ذلك: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[2] ويجعلنا نفهم الآيات فهماً سليماً... ولذا يجب التمييز بين نصوص الآيات وفهم الناس لها على مر العصور... فالنصوص هي الحق الثابت... **وفهم الناس لها قابل للتعديل والنمو بحسب ما نكْشِف من آيات الآفاق والأنفس (أي علوم المادة والنفس والمجتمع).**

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية التي نزلت قبله. وذلك من

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) سورة فصّلت: الآية ٥٣.

حيث الأمر بالإيمان بالله واليوم الآخر والقيام بالعمل الصالح.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ المعاصرين لنزولها.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ الذي يفرق بين الحق والباطل. وهو اسم من أسماء القرآن. والآية حين تؤكد مرة ثانية أن الله هو الذي أنزل القرآن توحي بضخامة التكذيب الذي قوبل به من أهل الكتاب.

كذلك فإنها بعد أن أثبتت أحقيّة الكتب السماوية كلّها ووحدة مصدرها تعود لتقرّر أن القرآن هو الفرقان الذي يحكم فيها ويفرّق بين الحق والباطل مما ورد فيها. وذلك لأنها تعرّضت للتبديل والتحريف والكتمان.

ويبادر بتهديد عاجل للذين كذبوا برسالة محمد (ﷺ) وقرآنه. ويسمّيهم ﴿الذين كفروا﴾ ولو كانوا من أهل الكتاب لأن من كفر بكتاب واحد فقد كفر بآيات الله كلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ولم يحدد: هل العذاب في الدنيا أم في الآخرة..؟ والتهديد شامل.. لأن الآخرة هي دار الجزاء. وأما في الدنيا فمن خالف السنن حصل على العواقب الوخيمة. وآيات الله في الكتاب متفقة مع آيات الله في الكون وفي الأنفس (وهي السنن) فمن كفر بها نال العقاب.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ قادر على إنزال العقوبة. ومن عدله الانتقام من الكافرين بما سببوا من ظلم للعباد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فاحذروا يا من تدبّرون المكائد لأصحاب الحق فإن عين الله عليكم... وإن الله لا يخفى عليه شيء في هذا الكون الفسيح الأرجاء... حتى الأجنّة المخفية في الأرحام فإنها تصنع على عينه، وتصوَّر وفق إرادته... فاحذروا يا من تدبّرون وتكيدون فإنكم لن تفلتوا من اليد التي صوّرتكم وأخرجتكم إلى الحياة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فيخرجكم بهذا التنوع

في الصورة. . . وليس القصد هو الصورة الجسمية فحسب، ولكن تصوير كل الإمكانات والطاقات والصفات الإنسانية عامة والفروق الفردية. من هذه الإمكانات: ما وضع في فطرة الإنسان من إيمان بالله ورغبة في الخير وقدرة على التعلم. . . لكنها بحاجة إلى رعاية وتنمية من الإنسان حتى تستوي على سوقها ويصبح الإنسان في أحسن تقويم.

إن أكثر الصفات الأخلاقية تولد مع الجنين كبذرة. . . والبيئة هي التي تنميها أو تئدها. . . وأسلوب التوجيه في الأسرة يلعب دوراً خطيراً في تشكيل شخصية الإنسان وأخلاقه. . . ثم يأتي دور المدرسة وثقافة المجتمع. . . فإذا كان الأبوان طيِّبَيْن ولكن أسلوبهما في التوجيه سيِّءٌ كان الأولاد إما مقلّدين أو متفلّتين. . . أما الأسلوب الناجح في التوجيه فإنه ينجح في جعل الأفكار والمفاهيم الأخلاقية وراثية. لأن سرعة الاكتساب من الوالدين تشبه الوراثة. وينبغي أن يستغل هذا في تعميم الخير وترقية الإنسان.

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يكرّر كلمة التوحيد مرة أخرى في مواجهة عالم مليء بالشرك والظلم. ويذكرهم باقتداره على أن يفعل ما يشاء. . . لكنه حكيم يجري الأمور في وقتها المناسب وينزل من الآيات والكتب ما يناسب كلّ أمة وعصر.

٢ - المُحْكَمُ والمُتَشَابِهُ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ فالآيات المحكمات: الواضحات التي نصت على الحلال والحرام والحدود والأحكام وفيها إشارة إلى القواعد والسنن. وهذه الآيات هي أصل الكتاب والمرجع فيه.

وأما المتشابهات ففيها غموض واشتباه ويمكن أن تحمل على أكثر من وجه.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي ضلال وانحراف عن الحق.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي لزعزعة الناس وتشكيكهم في الدين.

﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي تحريفه على ما يريدون.

والقرآن لا يمكن أن يناقض بعضه بعضاً ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[1]. لكن فيه آيات متشابهات قد يلتبس معناها على بعض الناس. يقول ابن كثير في تفسيره للآية: «فمن ردّ ما اشتبه إلى الواضح منه وحكَّم مُحْكَمَه على متشابهه عنده فقد اهتدى».

ففي القرآن مثلاً يوصف عيسى عليه السلام بأنه ﴿رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾[2]. ولقد حاول بعض النصارى أن يتشبثوا بقوله تعالى: ﴿روح منه﴾ ليفسروها حسب عقيدتهم. وتركوا الآيات الأخرى التي تصف عيسى بأنه عبد الله ورسوله: ﴿قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾[3]. ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون﴾[4]. ولقد قال القرآن عن آدم ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[5]، فلم يقل أحد ببنوَّة آدم لله ـ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ وقف المفسرون عند هذه الآية فمنهم من قال: إن الله وحده هو الذي يعلم تأويله. أما الراسخون في العلم فيقولون: آمنا به. وابن كثير يعرض الآراء كلها ثم يقول: للتأويل معنيان:

التأويل: بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه. مثل: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾[6]. فإن أريد بالتأويل هذا المعنى

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.
(٢) سورة النساء: الآية ١٧١.
(٣) سورة مريم: الآية ٣٠.
(٤) سورة آل عمرن: الآية ٥٩.
(٥) سورة ص: الآية ٧٢.
(٦) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

فلا يعلم تأويله إلا الله وحده. أما إذا أريد بالتأويل المعنى الثاني وهو: التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله: ﴿نبئنا بتأويله﴾[1] فالراسخون في العلم يعلمون ويفهمون الآيات برد المتشابهات إلى المحكمات.

المهم في الأمر أن نشعر أن الذي يعيش مع القرآن دراسة وتطبيقاً ويفهم المحكمات يستطيع أن يفهم المتشابهات. فلقد قيل: (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم)، ويمكن أن نضرب مثلاً بالآيات التي تحدثت عن عمل الله وعمل العبد. فبعض الآيات المتشابهات تنص على عمل الله وحده ﴿يهدي من يشاء﴾. ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾[2]، لكن الآيات المحكمات تنص على قانون الهداية وتجعل عمل الله يأتي بعد عمل الإنسان كثمرة ونتيجة تقدم له على سعيه. ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[3]. ﴿يهدي إليه من أناب﴾[4]. إن من درس هذا الموضوع تصبح الآيات المتشابهات فيه واضحة لديه فهو تفسير القرآن بالقرآن ـ وهو أفضل أنواع التفسير ـ بينما يبقى كثير من الناس حائراً أمام قوله سبحانه ﴿والله يهدي من يشاء﴾[5].

والمؤمن عنده تسليمٌ بكمال علم الله وحكمته: فإنْ لم يفهم آية فقد يكون فهمها عند من هو أعلم منه.. وربما يكشف التقدم العلمي عن حقيقة مدلولاتها.

﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أشارت الآية إلى نقاط هامة منها:

١ ـ طريق النجاة من المتشابه الرجوع إلى المحكم.

٢ ـ كل من يتتبع المتشابهات ويستدل بها يكون في قلبه زيغ ويريد الفتنة.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٦.
(٢) سورة الرعد: الآية ٣٣.
(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.
(٤) سورة الرعد: الآية ٢٧.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

٣ ـ منزلة العلماء ولا سيما الراسخون في العلم منهم. والوصول إلى مرحلة الرسوخ في العلم يحتاج إلى صبر ودأب. ولكن أي تكريم أعظم من أن يضمهم ـ سبحانه ـ إلى صفه. إن مثل هذه المكانة ـ لتستحق أن يبذل المؤمن لها عمره وجهده وماله . . .

٤ ـ العلم الراسخ يوصل إلى الإيمان بآيات القرآن.

٥ ـ أولو الألباب: أصحاب العقول ينتفعون بالبيان والتذكير فيفهمون الموقف السليم من الآيات ويسلّمون لله.

ثم تعرض الآيات دعاء هؤلاء العلماء المؤمنين:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ والهبة هي العطاء دون مقابل. والله وحده هو الذي يعطي دون مقابل.

إن الدعاء في حقيقته استحضار للهدف، وهو يساعد على جعل الهدف البعيد قريباً ومقدوراً عليه. والدعاء ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ فيه الخوف من فَقْدِ هذا الإيمان الذي ذاقوا حلاوته، وأحسوا بأنه أغلى وأثمن ما يملكون. . . فهم في خوف عليه من الضياع.

والخوف يدفع الإنسان إلى الحذر والحرص. . . بينما الاطمئنان يعرّض الإنسان للخطأ والإهمال. والخوف لا يكون فعّالاً ومثمراً إلا إذا كان توتّراً واعياً بين اليأس والأمن. والتوتر الواعي يعطي إدراكاً بصيراً لمزالق الطريق ومعرفة بالجهد اللازم بذله لصيانة هذا الإيمان الغالي وتصعيده.

والدعاء لجوءٌ إلى الله وتوكّلٌ عليه. . لكن الدعاء لا يكون إلا مع بذل الجهد وفعل كل ما نقدر عليه للوصول إلى الهدف المطلوب. أما الذي يرفع يديه إلى الله ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذّي بالحرام فأنّى يستجاب له؟!

ونحن كثيراً ما نتوجّه بالدعاء إلى الله أن يهدي أولادنا. . . وأن يردّ

المسلمين إلى دينهم، وينصرهم على أعدائهم... ولكن: ماذا فعلنا وماذا نفعل لنحقق هذه الأهداف؟!

إن الدعاء والبكاء على أحوال المسلمين لا يجدي إن لم نبذل كل ما نستطيع من جهد لإنقاذهم. وإن الإسترخاء والكسل والغفلة عن أولادنا وهم يغذون بالحرام على موائد التلفاز و (الفيديو) لا بد أن يعطي ثماره النكدة التي بدأت تروعنا.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾

بهذا الإشفاق الواجف يذكرون يوم الحشر الذي هم على يقين منه ويمسك الخوف بألسنتهم فلا يعرفون ماذا يطلبون لهذا الموقف العصيب.

٣ ـ قاعدة ومثالان عليها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ الآية تقرر قاعدة وتأتي عليها بعد ذلك بمثالين.

وفي مواضع أخرى من القرآن يبدأ بعرض أمثلة ثم يستخلص منها القاعدة مثل قوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب. ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾[1].

وهو أسلوب علمي في تناول الأحداث المعاصرة والماضية. بحيث نجمع الحوادث المتشابهة ونستخلص منها قاعدة... وهذه القاعدة نرجع إليها في التخطيط للمستقبل. كذلك فإنه أسلوب قوي في التعليم والإقناع لأنه يدعم القوانين والسنن بالأمثلة الواقعية والتاريخية... ويدرب العقل على تأمل النماذج والأمثلة لاستخلاص القواعد والقوانين منها. وهذا الذي فتح باب الاجتهاد

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٢ ـ ٥٣.

أمام عقول المسلمين فالمجتهد يستخدم القياس بالرجوع إلى الكتاب والسنة لمعرفة الأشباه والنظائر. القاعدة التي في الآية أن الذين كفروا لا تغني عنهم أموالهم وأولادهم من أمر الله. والمثالان هما: فرعون ومن سبقوه من أمثاله، والكفّار يوم بدر. مثل من التاريخ. ومثال قريب من الواقع.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ كحال آل فرعون... وما حدث لهم. وكل الأقوام الكافرة من قبلهم. نالوا عاقبة التكذيب بآيات الله وذاقوا عقاب الله الشديد في الدنيا فكيف بالآخرة..؟

ويعرض المثال الثاني في صورة تحذير ينقله النبي ﷺ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وذلك قياساً على القاعدة السابقة وما حدث للذين كفروا في الماضي... ومع ذلك يسوق لهم مثالاً من واقعهم في غزوة بدر:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي برهان ودليل وعبرة.

﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ إما أن المسلمين رأوا المشركين على أنهم ضعفهم في العدد بينما كان عدد المشركين أكثر من ذلك فقد كانوا قرابة ألف مقابل ثلاثمائة من المسلمين. فرفع ذلك من معنوياتهم. أو أن المشركين قد رأوا المسلمين على أنهم أكثر منهم عدداً[1] وذلك من كيد الله بهم وتخذيلهم ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾[2] ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وهذا يحتاج إلى فهم صحيح وواع. فالله حين أيّد القلة المؤمنة بالنصر إنما أيدهم بذلك لثباتهم وطاعتهم وقيامهم بما قدروا عليه من أسباب النصر... وهنا يتوجب علينا أن نرجع إلى الآية المحْكَمة في النصر:

---

(١) وربما كان ذلك بمدد الله للمؤمنين بالملائكة.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥١.

﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[1]. فالعدد ليس هو السبب الرئيسي في نوال النصر. بل هناك أسباب أخرى منها: عدالة القضية التي تقاتل من أجلها، قوة المعنويات، قوة التخطيط، مقدار الانضباط والطاعة في الجيش... الخ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وحقاً إنها ﴿لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ إن أصحاب البصيرة النيّرة يدركون أن النصر ليس بالكثرة ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾[2] ويستفيدون من الأحداث التي تهديهم إلى سنن الحياة. ويعرفون أن الحياة مع الله هي فوز في الدنيا والآخرة.

٤ ـ زينة الحياة الدنيا:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ تذكر الآية ستة أنواع محببة مزينة إلى قلب الإنسان وهي: النساء ـ البنون ـ الأموال ـ الخيل الحسان المدربة ـ الأنعام ـ الحرث (البساتين المزروعة) ـ هذه الملذات ليست محرمة ولا مستقذرة وإنما نتمتع بها ضمن حدود حدها الله لنا بحيث لا نتجاوز حدنا ونتعدى على الآخرين.

والمؤمن ليس محروماً ولا مكبوتاً ولكن يملك نفسه، فلا ينساق وراء شهواته فيسرف أو يعتدي. **وفرق كبير بين الكبت: الذي هو استقذار الدوافع الفطرية الموجودة في الإنسان... وضبط النفس الذي هو استمتاع ضمن الحدود الإنسانية الراقية**. وقد وردت أحاديث عن هذه الأنواع المحببة تقر الاستمتاع بها وتوجه المؤمن كي يخضعها للمثل الأعلى ويطلب بها مرضاة الله.

---

(١) سورة محمد: الآية ٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٠٠.

فهو يستمتع بما أنعم الله عليه من الطيبات ويؤدّي حقه وشكره. كقوله (ﷺ) «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»[1]. و «تزوّجوا الودود الولود»[2]. أما أن يهمل أمر الله من أجل زوجته وأولاده... أو حرصاً على رزق العيال فذاك هو المذموم.

والحديث الوارد في الخيل يمكن أن يعطي صورة عن أهمية الأهداف والمقاصد من التمتع بهذه الطيبات: «الخيل لثلاثة: لرجل أَجْرٌ، ولرجل سِترٌ، وعلى رجل وِزْرٌ. فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله... ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر. ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهي على ذلك وزر»[3]. وللخيل حتى الآن مكانة وفيها متعة... وإن كان الأمر ينطبق على وسائل النقل الحديثة بالقياس... فهي لرجل أجر ولآخر ستر وعلى ثالث وزر.

كذلك في الأنعام والحرث... ومنظر القطيع في الصباح والمساء حين يغدو إلى المراعي الخضر سارحاً... وفي عودته إلى حظائره... منظر له جمال ورونق ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾[4].

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾: قد لا يستمتع كل إنسان بما يريد من هذه الملذات فالحياة لا تمنح كل فرد ما يريد... وتبقى آمال الإنسان أكبر مما تقدر عليه الحياة الدنيا... وتبقى ملذاتها ناقصة لا تخلو من التنغيص... فاحرص على حسن المرجع عند الله.

وبأسلوب مشوق يستثير انتباهنا إلى أمر أهم من كل هذا المتاع:

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡ﴾؟

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

---

(١) أخرجه النسائي وروى بعضه مسلم.
(٢) ذكره ابن كثير عند تفسيره الآية.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) سورة النحل: الآية ٦

﴿... وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ . . . ﴾

وفي الآيـة جزاء أو نعيم حسي مادي: الجنات والأنهار المتـدفقـة والأزواج المطهرة من كـل دنس مادي أو عيب أخـلاقي . . . وجزاء أو نعيم نفسي أيضـاً ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والنعيم النفسي أهمّ لأنك لو أجلست إنساناً حزيناً أو مهموماً لغضب إنسـان عزيـز عليه، في مكـان مريـح رائع تحفّـه الجنات. . . فلن يتمتع بهذا المجلس لتغلب مشـاعره النفسيـة عليه. والعكس صحيـح أيضاً كـما قالت العربية في الماضي:

وَلُـبْسُ عـبـاءة وتـقـرَّ عـيـني   أحـبُّ إليَّ مـن لُـبْسِ الشـفـوف

فكيف إذا اجتمعت سعادة النفس مع المكان الجميل وفيـه من كل مـا لذ وطاب. . . ؟!

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ بصير بمن يستحق هذا النعيم من العباد. ومع ذلك فإنه يحدد بعض أوصاف هؤلاء المتقين الذين وعدوا بـالخلود ليحيا من حي عن بيِّنة:

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فهم في صلة دائمة مع ربهم في مناجاة واستغفار. ولا يكفي أن يقولوا: آمنا. . . بل لا بد لهم من أعمال وتضحيات: ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾

والصبر أمُّ الفضائـل وقد ورد ذكـره في القرآن أكـثر من سبعين مـرة. . . وهي صفة لا تولد مع الإنسان وإنما يكتسبها ويتعلمها. . . والصبر نتيجة للعلم ولهـذا كلما ازداد الإنسان علماً زاد صـدره اتساعـاً. . . فإن من كشف القـانـون يستطيع ـ بعد أن يقوم بالأسباب ـ أن يصبر وينتظر النتائج. كـذلك فـإن الصبر سبب لتحصيـل مزيـد من العلم. . . ومزيـد من المكاسب. لهـذا سمي الصـبر (جميلًا) مع أنه صعب ومر. . . لأن نتائجه وعـواقبه جميلة. وهكـذا فإن الصـبر نتيجة لما قبله وسبب لما بعده.

والصدق: يكون في العمل وفي الإيمان... في حبّ الله ورسوله...

والقنوت: هو الخضوع لله عـن رغبة وقناعة من النفس...

والإنفاق: بذل وانتصار على الذات فلا تتحكم به «القناطير المقنطرة من الذهب والفضة» ولا تمسك قلبه بل يمسكها بيده ويصرفها في مرضاة الله.

والاستغفار بالأسحار: يتجلّى في هذا الوقت الخاشع الـرائع الـذي ينتظر الله فيه عباده حين يبقى ثلث الليل الأخير «هل من سائل فأعطيـه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟»[1].

قد نتساءل: هل هذه الأعمال أسباب للإيمان أم نتائج له؟

والحقيقـة أنها أسباب ونتـائج في الـوقت نفسه، فـالإيمان يـدفع إلى هـذه الأعمال... وحين نقوم بها نشعر بزيادة في الإيمان. وعلى المؤمن أن ينمي إيمانـه ويقويه بهذه الوسائل التي تقربه إلى الله.

وممـا ينبغي التنبّه لـه بشأن هـذه المتع المـزيّنة للنـاس في الحيـاة الـدنيـا أنها مغرية وفيها مزالق كثيرة للإنسان. ومن العلماء من قال الصبـر على النعمـة (أي أداء الشكر) أشدُّ من الصبر على المصيبة. لأن الإنسان يغفل عـن ربه عند النعم بينما تنبهه المصائب. ولهذا يجدر بأهل الدعوة والقدوة أن يزهدوا فيهـا ويحترسـوا منها. وزلة العالم الداعي ليست كزلة غيره... لأنه موضع قدوة.

٥ ـ توحيد الله ومحاجة أهل الكتاب:

للمرة الثالثة يؤكد على التوحيد في مواجهة أهل الكتـاب... وينطلق من عقيـدة التوحيـد ليستنكر إعـراضهم عن الإسـلام وهـو التعبـير العمـلي لعقيـدة التوحيد.

ونلمس التكريم الرباني لأولي العلم إذ يضم شهادتهم إلى شهادته وشهادة الملائكة:

---

(١) رواه البخاري ومسلم

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾

وشهادة الله بالتوحيد تأتي في آيات الكتاب... وفي آيات الكون... في تناسق الخلق وسيره على قوانين متناغمة متناسقة ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

والملائكة يشهدون فهم نقلة الكتاب لا يعصون الله ما أمرهم... وأولو العلم هم الذين درسوا آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس فقادتهم إلى الشهادة لله بالتوحيد.

وشهادة الله كافية. وهو سبحانه لا يحتاج إلى شهادة من أحد... ولكن الآية تشعرنا بأهمية أولي العلم وأهمية الرجوع إلى شهادتهم. وأن قضية الإيمان ليست مسألة غيبية عَقَدَية لا علاقة للبحث العلمي فيها... وكما أن الناس يطلبون من عالم أو باحث معروف مثلاً أن يكتب تقديماً لكتاب قبل نشره بين الناس... شعوراً منهم بأهمية شهادة صاحب العلم والفهم. فإن القرآن يدعم هذا الاتجاه ويعزز مكانة أهل العلم وشهادتهم.

﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ شهدواله بالتوحيد وبالقيام بالقسط... فلقد أمر به ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[1] وأنزل الدين الذي يحقق أفضل مستوى من العدل على الأرض ـ لأن العدل المطلق لا يتحقق إلا في الآخرة وأولو العلم يؤمنون بالآخرة لأنهم آمنوا أن الله لن يختم الحياة دون تحقيق للقسط.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ التأكيد على الوحدانية والعزة والحكمة. وهي منطلقات لمتابعة البحث مع أهل الكتاب ومناقشة أسباب إعراضهم.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وفيه يتحقق التوحيد ويقام القسط. فهو الدين الذي يرضاه الله لعباده. والدين هو طريقة الحياة... ودين كل إنسان

(١) سورة النحل: الآية ٩٠

هـو الأسلوب الذي يعيش عليـه. وأصل معنى الإسـلام: الاستسلام لأوامـر الله ونواهيه دون اعتراض. لكنه أطلق بعد ذلك على النظام الأخير الذي شرعه الله وأنزله على محمد (ﷺ).

والقرآن يقرر أن جميع الأديان وكل الأنبياء الذين اصطفاهم الله كانوا على الإسلام: فهو يقول على لسان إبراهيم وإسماعيل: ﴿ربنـا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنـا أمة مسلمـة لك، وأرنـا منـاسكنـا، وتب علينـا، إنـك أنت التـواب الرحيم﴾[1].

وعلى لسان نوح: ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾[2].

ويوسف يدعو: ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾[3].

ويعقوب يسأل أبناءه: ﴿ما تعبدون من بعدي؟ قـالوا: نعبـد إلهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾[4].

وبلقيس تقول: ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[5].

والحـواريون يقـولون لعيسى: ﴿نحن أنصـار الله آمنا بـالله واشهـد بأنّا مسلمون﴾[6].

وموسى يقول لقومه: ﴿يـا قوم إن كنتم آمنتم بـالله فعليه تـوكلوا إن كنتم مسلمين﴾[7].

فَلِمَ يكـذب أهـل الكتـاب بـرسـالـة محمـد؟ وقـد جـاءهم مصـدقـاً

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٨.
(٢) سورة يونس: الآية ٧٢.
(٣) سورة يونس: الآية ١٠١.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٣.
(٥) سورة النمل: الآية ٤٤.
(٦) سورة آل عمران: الآية ٥٢.
(٧) سورة يونس: الآية ٨٤.

لأنبيائهم؟ إنهم بتكذيبهم هذا قد خرجوا من الإسلام لله . . . ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾[1].

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾

والاختلاف أشد ما يكون مقتاً إذا حصل بعد علم وعندها يكون الدافع إليه هو البغي: أي العداوة التي تدفع إلى الظلم.

والقرآن يقرر أن إعراض الأكثرية سببه الجهل ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾[2]. وهذا الذي يشيع الاختلاف بين الناس. ولهذا يأمر بالتبليغ ويحمل أصحاب العلم مسؤولية كبيرة ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾[3]. لأن أهل العلم حين يتركون التبليغ تصبح الأكثرية جاهلة وعندها تلعب بها القلة الماكرة التي تعرف الحق ولكنها تكذب به بغياً وحسداً للدعاة. إن الاختلاف ينشأ من نقص في التبليغ ولهذا يأتي التعقيب بعد الآية التالية: ﴿فإنما عليك البلاغ﴾[4]. ويهدد الله هؤلاء المكابرين الظالمين:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

فليسرعوا إلى التوبة واتباع الحق قبل أن تفوت الفرصة.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ إن جادلوك وطلبوا منك الأدلة.

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ وأكرم شيء في الإنسان وجهه. والمؤمن يخضع كلياً لله حين يسلم وجهه إليه. ونلاحظ أن الآية تأمر بالإعراض عن جدالهم . . . فهؤلاء لا تنقصهم الأدلة . . . ولكنهم يريدون الجدال . . .

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٤

(٣) سورة البقرة: الآية ١٥٩.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٢٠

والجدال يضيع وقت المؤمن وجهده فيما لا يجدي. . . بل كثيراً ما يتحول إلى مهاترات مؤذية. . . ولهذا قيل عن الجدال: هو تبادل الجهل. . . بينما النقاش هو تبادل العلم. ولهذا أوصى رسول الله (ﷺ) بترك الجدال ولو كنت محقاً[1]. والإعراض أمر دقيق. . . إذ لا ينبغي أن يختلط بترك التبليغ، فالهوى يمكن أن يتدخل ويزين للنفس الكتمان على أنه إعراض عن الجدل. وإن من حقّ الجاهل عليك أن تعلمه. . . ومن حقّ طالب العلم عليك أن تبلغه وتناقشه بالأدلة. أما من يتكلم بالهوى ويجادل ويستهزىء فهو الذي تعرض عنه.

فالتبليغ عام في كل وقت ولكل الناس، أما الإعراض فهو خاص بحالات معينة.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ أرضيتم بنظام الله واستسلمتم له؟

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ فإن من يتبع الإسلام يحصل على الهداية وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إن تطيعوه تهتدوا﴾[2] فإن الإسلام يدلكم على الخير.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ إن أعرضوا فأدِّ واجبك ولا تهتم بهم فإنما يسأل كل فرد عن واجبه والحساب عند الله ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

ويوجّه تهديداً شديداً لهم بما فعلوا في الماضي وما يفعلون في كل زمان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. هذه الأعمال القبيحة تؤهل فاعلها للعذاب الشديد مهما كان دينه. . ولو ادعى الإسلام. . لأن الإسلام ليس قولاً يقال باللسان. لكنه تسليم لأمر الله. . . والله قد نهى عن قتل النفس عمداً وتوعد من يقتل مؤمناً ﴿ومن يقتل مؤمناً

---

(١) الحديث: أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً. رواه أبو داوود بإسناد صحيح.

(٢) سورة النور: الآية ٥٤.

متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾[1] فكيف بمن يقتل الأنبياء؟ وكيف بمن يقتل المصلحين؟

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾
ضاعت أعمالهم وخسرت كما تحبط الناقة إذا أكلت نباتاً ساماً فتنتفخ ثم تموت..

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝٢٢﴾ ومن ينصرهم من حكم الله فيهم؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

كلمة «ألم تر» فيها إثارة للانتباه والاستفادة من هذه النعمة التي أعطاكها الله لتدرك بها الحقائق. فالبصر أحد وسائل المعرفة ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[2]. ويا لخسارة من يمر على الأحداث كالأصم الأعمى.

والرؤية على نوعين: تاريخية: وهي أن تقرأ الحادثة في التاريخ فتعتبر منها.

ومثلية: وهي أن ترى الحادثة في الواقع.

وهؤلاء الذين يدعون الإيمان بالكتاب ويعرضون عن طاعة ما فيه موجودون في كل عصر... ولقد رأينا مسلمين معاصرين مصابين بهذه العلة. فما الذي يدفعهم إلى هذا الموقف العجيب؟

إنه ضعف الإيمان بالله العادل الذي يقوم بالقسط. وسيحاسب في الآخرة بالقسط. إنه ضعف في رؤية العدل والقسط في أحكام الكتاب... بل لعله كراهية القسط والرغبة في البغي والاعتداء... فإنهم يريدون أن تكون لهم

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

معاملة خاصة ومراكز يأخذونها دون سائر البشر:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ هذه الأكاذيب التي لفقوها حول دينهم وأشاعوها هي التي غرتهم وخدعتهم عن رؤية الحق. والمسلمون اليوم يقولون: (الحمد لله الذي خلقنا مسلمين)... مع أنهم لا يمثلون من حقيقة الإسلام إلا أوهى صورة... ويظنون كما يظن أهل الكتاب أنهم ناجون من العذاب!!

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ لأن الناس كلهم في ذلك اليوم يعرفون الحق من الباطل ولا يرتابون في شيء. كذلك فإن الآية تؤكد حتمية الحشر «لا ريب فيه».

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أعيد إلى كل نفس ما كانت قد قدمت من أعمال وكسب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يحابي أحداً ولا ينقص من أعمال أحد.

هكذا يرد عليهم بالتذكير بيوم الحشر بصيغة السؤال عن حالهم في ذلك اليوم العصيب... ويسكت عن الجواب تاركاً لضمير الإنسان أن يجيب.

٦ ـ سنة إيتاء الملك:

ولقد أعرضوا عن التصديق بمحمد (ﷺ) حرصاً منهم على بقاء سلطانهم ونفوذهم في الدنيا... لكنهم بأعراضهم قد حرموا أنفسهم من ذلك. فقد تنكروا لمن بيده الملك وتمردوا عليه فكيف يعطيهم ملكاً أو عزاً؟!

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

كيف يؤتي الله الملك وكيف ينزعه؟! وهل أراد الله لأناس دون سبب أن يكونوا أعزة؟ وحكم على آخرين بالذلة؟ ولا يكون المسلم مسلماً حقيقياً حتى يفهم هذه الآيات فهماً دقيقاً. نرجع إلى موضوع عمل الله وعمل العبد في

القرآن. ففي بعض الآيات يذكر عمل الله وحده وفي آيات أخرى يـذكر عمـل العبد وحده. وهناك آيات محكمات يذكر فيها العلاقة بين عمل الله وعمـل العبد ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[1]. فعمـل الله لا يحدث حتى يحـدث عمل العبـد وعلى هـذا فإن الله لا يؤتي الملك إلا لأنـاس قد هيؤوا أنفسهم لذلك.

وإن قدرة الإنسان على الاختيار والعمل منحة أعطاها الله لـلإنسان وهـذا من الخير الذي بيد الله وأعطاه للبشر ﴿بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إن الله هو الـذي يسيّر الكـواكب وفق سنن... ويحيي ويميت وفق سنن معينـة أيضـاً... وكـذلـك يعـطي الملك وينزعـه وفق سنة معينـة. والآية تـربط بـين الأمـرين فتلحق دورة الكـواكب بإيتـاء الملك... وتعطف عليهـا كـذلـك ﴿وتـرزق من تشـاء﴾... وذلك لكي ندرك أن أمور الدنيا كلها تجري وفق سنن. لكن الفرق الوحيد بين سنن الكون وسنن الإنسان أن الأخيرة يقوم الإنسان بأسبـابها. أمـا الكون فـإنه طائع منقاد.

ولقد تناول العالم الأستاذ أبو الأعلى المودودي رحمه الله هذا الموضوع بشيء من التفصيـل في محاضرة لـه بعنوان (الصـلاح والفساد)[2] نختصرهـا بـالكلمات التالية:

«إن الله خلق العـالم وفق نـظام معـين. فكـما أن لأجسـامنـا قـانـونـاً تسـير وفقه... كذلـك للتاريـخ قانـون. وكما أنـه لا يمكن للإنسـان أن يتنفس بعينيه فكذلك لا يمكن أن تتقدم أمة من الأمم حـين تسلك سلوكاً حكم الله عليـه أن يؤدي إلى التـدهور. وأول مـادة من المبادىء التي وضعهـا الله لتقـدم البشر أنـه

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) راجع كتاب: نحو ثورة سلمية لأبي الأعلى المودودي.

يحب الإصلاح والبناء ويكره الفساد والهدم ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[1]. وضرب على ذلك مثلاً بصاحب بستان يستعمل عمالاً ليشتغلوا فيه. فإذا أصلح العمال شأن البستان أبقاهم، وإن أفسدوا صرفهم من الخدمة واستبدل بهم من يصلح أكثر منهم. واستعرض تاريخ الهند وكيف كان الحكم فيها ينتقل من أمة إلى أمة (الآريين... المسلمين... الإنكليز...) كلما كثر إفساد أمة ووجد من حولها من هو أكثر منها إصلاحاً استبدلهم الله بها فيأخذون البلاد ويستخلفهم الله فيصلحون في البداية ثم لا يلبث الفساد والخلل أن يدخل فيهم حتى إذا غلب إفسادهم على إصلاحهم ووجد من هو أكثر منهم إصلاحاً استبدلوا بهم وهكذا...

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين ولتعلنّ علوّاً كبيراً. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾[2]. لأنه يجري وفق سنة الله في الاستخلاف.

٧ ـ آية التقية والتحذير الذي يكتنفها:

وبعد هذا الخطاب الذي وجهه لأهل الكتاب خاصة وللكفار عامة يتوجه بالتحذير إلى عباده المؤمنين من موالاة الكافرين من أي نوع كانوا... (من أهل الكتاب أو المشركين) ولقد كان بين أهل المدينة واليهود عقود موالاة قبيل الإسلام، وبقيت آثارها حتى تكررت الآيات في النهي عن ذلك:

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكلمة الاتخاذ يستخدمها الله في الخير. ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾[3] بمعنى اصطفى واختار. ولا يجوز أن يوضع هذا الاختيار في غير مكانه ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾[4] والولاية هي أعلى العلاقات الإيجابية التي وردت في القرآن:

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٤ ـ ٥.
(٣) سورة النساء: الآية ١٢٥.
(٤) سورة الممتحنة: الآية ١.

فالعدل: أدناها وقد أُمر به المسلم مع الجميع ومن فرط فيه كان آثماً.

والإحسان: أعلى من ذلك وهو أن تعطي من تتعامل معه حقه وزيادة من نفسك لا على حساب الآخرين. وقد أُمر به المسلم مع الجميع ولا سيما مع الوالدين... ومن قصر فيه يعتبر تاركاً للأفضل.

وأما **الولاية**: فهي علاقة حب وثقة ومناصرة وإيثار. وهي لا تكون إلا بين أصحاب المبدأ الواحد. فالمؤمن يتولى الله ورسوله والمؤمنين: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾[1]. ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[2]. ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[3]. فمن ناصر ظالماً واستعان به فقد تولاه.. ومن أعطى الثقة لكافر وأطلعه على أسراره.. ومكّنه من المراكز الحساسة في شؤون المسلمين فقد تولاه..

وهذا شيء مختلف عن العدل والإحسان اللذين أمرنا بالتعامل بهما مع الناس. ومن يقع في الولاية مع الكافرين فقد اقترف ذنباً عظيماً تنقطع به صلته مع الله ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ فالعلاقة عكسية بين موالاة الكفار والصلة مع الله.

ولكن الله يستثني من هذا الحكم العام حالة خاصة يجعلها رخصة للمؤمنين ويحيطها بالتحذير ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إظهار شيء من الموالاة باللسان وقاية للنفس من شرهم. وذلك كما حصل لعمار بن ياسر حين نطق بكلمة الكفر تحت وطأة التعذيب... وأجاز له رسول الله (ﷺ) هذا طالما أن قلبه مطمئن بالإيمان. يقول ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان. ويؤيده قول الله تعالى: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[4]. أي أنه لا يجوز له بأعماله أن يفعل فعل الكافرين ويأتمر بأمرهم إذا كان أمرهم

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٣) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٤) سورة النحل: الآية ١٠٦.

يخالف أمر الله. وإنما التقية رخصة في بعض المسايرة باللسان في ظروف خاصة ولعدد من الأفراد.. لا أن تصبح هي القاعدة التي تتبناها الأمة. والموضوع هنا يشبه تحريم الميتة والدم...

فالقاعدة هي ترك موالاة الكافرين كما أن القاعدة في الطعام تحريم الميتة والدم، والرخصة للضرورة هي التقية، وكذا الرخصة في الطعام ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾[1]. وإن الله لم ينكر على سميّة وياسر وبلال (وسائر الضعفاء الذين عذبوا في الله) موقفهم وثباتهم برغم التعذيب. وكان عمار وحده هو الذي أخذ بالرخصة.

يقول محمد إقبال: ربما يغفر للفرد ولا تغفر الفطرة آثار الأمم.

وذلك لأن نتائج الأعمال في الحياة الدنيا جماعية: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾[2]. فإذا وضعت الرخصة في غير مكانها... وأصبحت سلوكاً عاماً يطبع حياة الأمة فقد اختارت لنفسها الخنوع والذل.

أما إذا بقيت الرخصة لحالات خاصة وفردية فلن تكون لها آثار التيار العام.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فالأمر محفوف بالمخاطر. والآية تحيط الولاية بالتحذير:

١ ـ ﴿من يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾.
٢ ـ ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ فإياكم والتوسع بالرخصة.
٣ ـ تذكير بأن المرجع إليه سبحانه.

٤ ـ ويتبع هذه آية فيها تنبيه إلى أن الله يعلم ما تخفي الصدور. وعلمه يسع كل شيء: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٣.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فقد يبرّر الإنسان موالاته للكفار على أنها استخدام للرخصة عند الضرورة لكن الله يعلم هل هو صادق في تبريره.. وهل كانت ظروفه قاهرة تقضي باستخدام الرخصة.

٥ - التذكير بيوم الحساب: حيث يتمنّى الإنسان لو يفر من أعماله السيئة... ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ فالأعمال حاضرة في ذلك اليوم وكأنها عملت في تلك اللحظة. فإن كانت الأعمال سيئة تمنى أن لا يكون في ذلك المكان والزمان كي لا يواجهها. حتى أنه يتمنى لو كان تراباً!!

٦ - يعود إلى التحذير مرة ثانية ثم ينبه إلى رأفة الله بالعباد.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ ومن رأفته أن يحذّرهم من الوقوع في المخالفة حتى لا يقع عليهم العقاب في الدنيا والآخرة. وإن موالاة الكافرين لها عواقب وخيمة في الدنيا قبل الآخرة.. والله بأحكامه وأوامره ونواهيه إنما يريد حمايتنا ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[1]. وإن من يدرك ذلك يكون خضوعه وتنفيذه للآيات أفضل. كذلك فإن رخصة التقية هي من رأفة الله بعباده وتخفيفه عنهم.

واليوم نرى المسلمين وقد توسعوا في هذه الرخصة حتى أصبحت وباءً يجتاح الأمة فالكل يعزفون نغمة المديح والنفاق ويعلنون ولاءهم للظالمين... وبهذا وأدوا كلمة الحق وسكتوا جميعهم صاغرين. فداستهم الأقدام.. حقاً إنه لوباء خطير. فأين الأطباء؟ إن الأمة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد.. ولقد نالت أمراض الجسد ما تستحق من الاهتمام.. ولكن أمراض الأمة حتى الآن لم نهيّء لها أطباء. إن المسكن الصحي له شروط لا بد أن تتوفر فيه حتى يكون صالحاً للحياة.. وكذلك المجتمع الصحي له شروط في الأخلاق والعقيدة.

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٨.

ونحن في طب الجسد قد عرفنا أن من يخرج من بيته الدافىء إلى جو بارد يتعرض للمرض وعليه أن يتخذ احتياطات صحية. لكننا في طب المجتمع لا نتخذ احتياطات لمن ينتقل من بيئة إلى بيئة أخرى مختلفة.. وإن للأمة سنناً وشروطاً لا بد منها لحفظ كيانها. ولقد شبّه القرآن المجتمع «كأنهم بنيان مرصوص» والبنيان يحتاج إلى مهندسين وشروط مادية للبناء. وشبه رسول الله (ﷺ) المجتمع بالجسد الواحد. والجسد يحتاج إلى أطباء وشروط صحية وحيوية وذلك لندرك أن الأمة بناء يبنيه الناس فعلى قدر علمهم بالبناء والصيانة تأتي الثمار. فلا بد من التوجه إلى دراسة آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس لإيجاد أطباء المجتمع ومهندسيه. ولإعطاء الحصانة للأفراد ضد الأوبئة الفكرية والاجتماعية.

٨ ـ آية برهان الحب:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ما زالت الآيات توجه المؤمنين إلى قطع الولاء مع الكافرين وأن الحب لا يكون إلا لله وحزبه. وكل من يدّعي حب الله ولا يستجيب لأمر الله ورسوله فأعماله تكذب قوله. كما قال أحدهم: (إن صياح أعمالك منعنا من سماع أقوالك).

والحبُّ أمر زائد على الفهم. إذ هناك فرق بين فهمي لموضوع وحبي له. لأن السلوك مرتبط بالحب أكثر من ارتباطه بالفهم.

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحبَّ لمن يحب مطيع

وكثير من المستشرقين قد فهموا حقائق الإسلام ولكن سلوكهم لم يتأثر لأن دوافع السلوك تكون أحياناً شعورية: أي نابعة من الفهم. لكنها في أغلب الأحيان لاشعورية.. من حوادث ماضية خلفت رواسب في النفس من حب وكراهية. كالأثر الذي خلفته الحروب الصليبية في نفوس الغربيين من حقد وكراهية للإسلام والمسلمين.

ولهذا لا يعتبر الإنسان مؤمناً حقاً حتى يكون الله ورسولهُ أحبَّ إليه مما سواهما. لأن سلوكه عند ذلك يحمل طابع الالتزام بأمر الله وإعطاء الأولوية له.

وموضوع الحبّ والفهم يمكن أن يكون مرادفاً لموضوع الإخلاص والصواب[1]. والناس في ذلك على أربعة أصناف:

١ ـ من يحب الإسلام ويفهمه وهو الحالة السوية التي يجب أن نسعى إليها.

٢ ـ من يحب الإسلام ولكن لا يفهمه. مثل عامة المسلمين والذين يظنون أن التقدم العلمي خطر على الدين. وأن الإيمان يتنافى مع التَّسخير ومعرفة قوانين الكون والخَلْق.

٣ ـ من يفهم الإسلام ولكنه لا يحبه. كالمستشرقين.

٤ ـ من لا يفهم الإسلام ولا يحبه.

والقرآن يذكر الحبّ ويذكر الفهم والعقل.. فلئن كان الحبّ هو المؤثر الأول على السلوك فإن الفهم يدعم الحب ويقويه ويعطيه حصانة من التقلب. لأن الحب وحده لا يوثق به فإنه عرضة للتغير.. وإن سماع محاضرة لشخصية جذابة تملك اللهجة التأثيرية يمكن أن يقلب الحب إلى كراهية.. والرسول (ﷺ) كان يستعيذ بالله من تقلب القلب «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[2].

والحب ينتقل بالعدوى من الأبوين والبيئة التي يعيش فيها الإنسان. ويمكن تحريكه بالمواقف المؤثرة والقدوة الصالحة. لكن الفهم (أو العلم) لا يحصل إلا بالجهد والمثابرة في الدرس والنظر. وعلى هذا نخرج من الموضوع بالنقاط التالية:

---

(١) يحسن الرجوع إلى كتاب العمل قدرة وإرادة للأستاذ جودت سعيد وهو يبحث في شرطي: (الإخلاص والصواب) مفصلاً.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

١ ـ السلوك علامة وبرهان على الحب.

٢ ـ السلوك يشترط فيه الفهم والحب.

٣ ـ لكل منهما سنن وخصائص. فمن خصائص الحب أنه ينتقل بالعدوى.

ومن خصائص الفهم أنه لا يحصل إلا بالجهد والمعاناة.

٤ ـ الحب يتأثر بالفهم. والفهم يتأثر بالحب أيضاً (فالعلاقة بينهما جدلية).

٥ ـ لكن السلوك مرتبط بالحب أكثر من ارتباطه بالفهم.

﴿فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾

يطالبهم بالعمل الذي يصدق القول ويعدهم على ذلك بالحصول على:

١ ـ حب الله.

٢ ـ مغفرته لذنوبهم. وماذا يريد المؤمن أكثر من ذلك؟!

والآية تتعرض لمرض خطير نعاني منه الآن وهو اختلاف القول عن العمل.. بل الأقوال التي لا تنتهي وليس وراءها عمل وذلك على مستوى الفرد والجماعة. **والتاريخ هو مجموعة الأعمال وليس محصلة للكلام.**

وينشأ عن ذلك انفصال الفكرة عن العمل. فتصبح الأفكار نظرية بعيدة عن الواقع.. والأعمال تقليدية غوغائية بعيدة عن التخطيط الفكري. ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[1] فالآية تعيد الربط بين القول والعمل.. بين الفكرة والتطبيق.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

إن الإعراض عن الطاعة هو الكفر الذي يستوجب الحرمان من حب

---

(١) سورة الصف: الآية ٢.

الله. . فيا من تتطلعون إلى نيل المحبة من الله. . . اسلكوا طريق الطاعة.

«ما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه. . .»[1].

---

(١) رواه البخاري.

الفصل الثاني

في الذين نزل عليهم الكتاب



إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾
ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى
نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ
كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ
عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ
قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ
يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ
أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ
قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾
ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ
أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ
وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى
بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ
كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ
وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى
بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم
بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ
أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ
فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ
ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ
مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم
مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ
الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ
مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا
وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى
الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ
لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ
بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا
اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)
هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ
عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن
كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ
لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَدَّت
طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا

يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ
وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟
إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ
أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞
وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ
بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى
ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ
أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ
وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ
وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾
وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ
وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ۞ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ
وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟
بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ
حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ
مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ
ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ
ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

في الذين نزل عليهم الكتاب

أولاً: الأنبياء:

تحدثت في الآية السابقة عن الحب وأهميته في السلوك.. والحب يتأثر بعرض نماذج مخلصة بذلت لله كل ما تمتلك وتستطيع.. الحب يتحرك حين يرى قدوة حسنة. ولذا يعرض طرفاً من أخبار الأنبياء صفوة الله في خلقه للتأثير في الحب والسلوك عند المسلم. فكثيرون هم الذين لا تتغير أعمالهم لمجرد شرح بعض الحقائق لهم، لكنهم حين يرون نموذجاً يمثل هذه الحقائق يتأثرون ويتغيرون.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

والاصطفاء هو الاختيار للرفع إلى مكانة سامية ولأداء دور جليل. والآية تذكر هنا عمل الله وحده (الاصطفاء).. وعلينا أن نذكر أن عمل الله يأتي كثمرة ومكافأة بعد أن يقوم الإنسان بأسبابه. وهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانت لهم أعمال سامية هيأتهم للنبوة.. ونحن نعلم من حياة رسول الله (ﷺ) قبل نزول الوحي عليه.. أنه لم يسجد لصنم قط ولم يشرب خمراً وعرف بالصدق والأمانة ورجاحة العقل وكريم الخلق... استأجرته خديجة في تجارتها فجاءها بربح وفير. وحكّمته قريش عند نزاعها في نقل الحجر الأسود،

فحلّ النزاع بما يرضي الجميع . . لم يعجبه دين قومه فانطلق إلى حراء يفكر ويتأمل ويناجي رب الوجود أن يهديه إلى الدين الصحيح . . فكيف لا يكون هو المصطفى؟! صلوات الله وسلامه عليه.

والآية تعرض نموذجين من الأفراد: آدم ونوحاً، ونموذجين من الأُسَر: آل إبراهيم وآل عمران. وهي لفتة هامة إلى أهمية وجود الأسرة المؤمنة.

ولقد جاء الأنبياء والرسل ليرفعوا الجانب الأخلاقي في الحياة الإنسانية ويرتقوا به إلى جانب التقدم المادي والصناعي . . فالحياة مهما تطورت في تسخير الكون إن لم تحكمها الأخلاق تصبح دماراً واستعباداً للبشر . . .

والأنبياء جاؤوا ليكونوا قدوة يتأسّى بها البشر ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾[1]. ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[2]. ولكل موضوع آفة، وآفة النموذج أن يظن الناس أنه خلق آخر متفرد عن سائر البشر لا يمكن اتباعه . . فيتعطل دور القدوة. وهذا ينتج عن زيادة التعظيم والتقديس للأنبياء وليس من عدم احترامهم. ولهذا نهى رسول الله (ﷺ) المسلمين عن زيادة التعظيم والإطراء له: وجاء التأكيد في القرآن على بشرية الرسول (ﷺ) لإزالة الحاجز الذي يعوق التأسي. فنحن مطالبون بما في وسعنا وهو السير وفق سيرة الأنبياء. ولسنا مطالبين بما لا نستطيع كنزول الوحي. وذلك حتى لا تضيع الفائدة من النماذج وتتعطل القدوة بهم.

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ﴾ وهي إشارة إلى أهمية ما يرثه الأبناء من الآباء من قيم وأخلاق تتحكم باللاشعور وبالتالي في السلوك.

﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق الاصطفاء . . عليم بحاجة البشر إلى

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

الأنبياء كنماذج . . فهو تعقيب على ما سبق وتمهيد لما سيأتي من الحديث عن امرأة عمران ومناجاتها لـربها .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ أي خالصاً لـوجهـك . . والكلمـة «محـرراً» تحمـل مـدلـولاً عـظيـماً . . فمن عـاش لله فقـد تحرر من كل أنواع العبوديات . وامرأة عمران كانت تنـوي أن تجعل وليـدها من سدنة المعبد كما كـان متعارفـاً في ذلك الـزمان لمن أراد أن يخدم دين الله . وهي تطلب القبول من السميع العليم .

﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ قالت ذلك لأنها ظنت أنها لن تستطيع الوفاء بنذرها .

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ وهي جملة معترضة تأتي عـلى لسان الله تعـالى لتؤكد علمه بكل شيء . وتتابع امرأة عمران كلامها :

﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ فالأعمال التي يقوم بها الذكـر ليست كالأعـمال التي تقـوم بها الأنثى ولم تكن البنـات تنذر لخـدمـة دين الله في الهيـاكـل في ذاك الزمان . ومع ذلك فإن امرأة عمران سمّت ابنتها وطلبت من الله أن يحميها :

﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ وهي لفتة لطيفة منها أن تذكر ذرية ابنتها أيضاً وتلجئهم إلى الله . وجاءت ثمـرة دعائها كأحسن ما تكون :

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ فلم يكن مجرد قبول . ولكنه قبول حسن .

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ فنمت نمـواً حسناً في جسمهـا وعقلها ونفسهـا . . لأنها نـذرت لله منذ أن كـانت في بطن أمهـا . ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ وكـان زوج خالتها . و«الخالة بمنزلة الأم»[1] فكأنها تربّت عند خالتها . وقيل : إن زكـريا كفلهـا

(١) ثبت في الصحيح ، وقيل إن زكريا زوج أختها لقوله (ﷺ) عن عيسى ويحيى عليهما السلام أنهما ابنا خالة .

لأنها كانت يتيمة. ويبدو أن أم مريم جاءت بها إلى سَدَنَة المعبد ـ وبينهم زكريا عليه السلام ـ وسلمتهم إياها على أنها نذرت لله. فتنافسوا في كفالتها حرصاً على الأجر من الله. حتى اقترعوا بالأقلام (سهام القرعة) كما ستأتي الآية بعد ذلك. فخرج سهم زكريا فتولى كفالتها.

المهم في الأمر أن هذه الكفالة كانت من حسن رعاية الله لها إذ نشأت تحت رعاية نبي كريم لتتشرب الفضائل وحسن التعبد لله.

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ ﴾ وهو مقصورة في المعبد خصصت لإقامة مريم ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ قيل: إنه كان يجد عندها الفاكهة في غير أوانها فيتعجب ويسأل فتقول مجيبة:

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

وقبل أن نتابع القصة نقف قليلاً لنتأمل بعض النقاط الهامة:

١ ـ امرأة عمران ونذرها: لو تصورنا امرأة قروية متواضعة بسيطة تهتم بمشكلة العالم في الجانب الأخلاقي.. حتى أنها تنذر أن تجعل وليدها يخدم العالم في الجانب الأخلاقي. لو رأينا هذا المنظر فماذا يكون شعورنا..؟ لقد كانت امرأة عمران امرأة قروية بسيطة من بلاد متخلفة تحيط بها الحضارات الرومانية وغيرها.. وقد يفكر الرجل بهذه المشكلات ولكن النساء في العالم المتخلف عادة بعيدات عن هذا الاهتمام..

قد ينظر إلى هذه المرأة باستخفاف وأنها ساذجة لن تؤثر بشيء ولن تغير شيئاً من الأحداث.. ولكن الله يتقبل نذرها، ويذكر قصتها كنموذج للمؤمنات..

والجميل في الأمر أنها لم تتمنَّ أن يكون وليدها رجلاً يحمل الرقي المادي الموجود في عصره.. بل تمنت أن يحمل عبء الإصلاح الأخلاقي.

٢ ـ سمعت أناساً يستشهدون بالآية ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ على أنها دليل على تفضيل الرجل على المرأة. والعبارة من كلام امرأة عمران لأنها كانت

تظن أن هذا الجانب الأخلاقي لا تستطيع أن تقوم به امرأة. لكن الله تقبّلها قبولاً حسناً..

فمعنى ذلك أن الأنثى تستطيع بكل اقتدار أن تُسْهِم بإصلاح الجانب الأخلاقي ورفع لوائه. ثم صارت هذه المرأة بمستوى يغبطها عليه الرجال الصالحون بل الأنبياء. حتى أن زكريا لما رأى مكانتها عند الله توجّه إلى الله بالدعاء. ثم إن هذه المرأة بلغت من المرتبة أن ولدت النبي عيسى الذي بلغ الناس من تعظيمه مبلغاً متطرفاً.. حقاً إن الأمر كما قالت مريم: «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.. ولا يهمنا نوع هذا الرزق بقدر ما يهمنا أن نتذكّر أن الله قادر، يرزق من يشاء بغير حساب. ولكل مجتهد نصيب.

٣ ـ الإنسان المؤمن يحمل همّ هداية ذريته.. وقد ورد في السنة أن الإنسان يدعو إذا أتى أهله: «اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا»[1]. فإن الشيطان لا يؤذي ولده قط. وذلك أن المرء إن كان حريصاً على ذريته حتى قبل أن تتخلق... فإن حرصه لن يقف عند حدود الدعاء بل سيبذل جهده لحماية ذريته. فالدعاء: تحديد للهدف ثم يتابع الإنسان سعيه فيعطيه الله سؤله. وهكذا يكون الدعاء مستجاباً.

نعود إلى الآيات:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ في ذلك المكان دعا زكريا وقد شعر بمكانة مريم وكرامتها عند الله، ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فإن الذرية لا خير فيها إن لم تكن طيبة... وإنما يريد المؤمن أن يزداد قرباً من الله بأولاده الصالحين. ويأتي الجواب: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مصدقاً بما أنزل من عند الله من كتب ورسل. وقد تكون الإشارة إلى عيسى عليه السلام بالذات في قوله: «بكلمة من الله».

---

(١) رقم الحديث ٨٢٨ من مختصر صحيح مسلم للمنذري.

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ ذا مكانة في قومه وحصوراً: عفيفاً يصون نفسه من المحرمات وقتل قبل أن يتزوج.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فهو ليس (ذرية طيبة) فحسب بل يتصف بكل هذه الصفات العالية. ويبدو أن اسم يحيى معرب عن يوحنا في العبرانية. واسمه عندهم يوحنا المعمدان، وقد جاء في إنجيل مرقص أن الملك هيرودوس سجنه ثم قتله نزولاً عند رغبة زوجته وابنتها. ويستغرب زكريا بعدما جاءته البشرى بيحيى:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ طلب زكريا أن يجعل الله له دليلاً وعلامة على الحادث الذي بشر به. فكانت العلامة: أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً (أي بالإشارة والإيماء). قيل: إن لسانه ربط فلم يستطع أن يخاطب الناس ثلاثة أيام. وقيل: إن ذلك كان في إمكانه ولكن الله طلب منه أن يصوم عن الكلام ويتفرغ للعبادة والذكر شكراً لله على ما أعطاه.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ والذكر مستحب في كل وقت لكنه أكثر ثواباً في أوقات اختارها الله وخصها بميزات معينة.. كما يصطفي من البشر رسلاً وكما يختار من الأمكنة مواضع أكثر قدسية (كالمساجد الثلاثة: في مكة والمدينة والقدس)، ففي القرآن نلاحظ التأكيد على الذكر في وقتين: المساء والصباح.. وفيهما من الجلال والجمال ما يحرك القلب إلى ذكر الله القادر المبدع. وفيهما تتعاقب الملائكة فيكون الذكر مشهوداً من عدد مضاعف منهم. والمؤمن يفتتح يومه بذكر الله فيبعده ذلك عن المعاصي، ويختتم يومه بذكر الله فيكون في ذلك كفارة لكل غفلة أو زلة، فلا يضع جنبه على فراشه إلا طاهر النفس منيباً إلى الله ولا يستيقظ إلا ليجدد العهد مع الله حامداً ربه على نعمة الحياة..

وتعود الآيات لتتابع الحديث عن مريم.. والقصد من ذلك تصحيح

المفـاهيم والعقائـد ومناقشـة أهل الكتـاب في الأخطاء التي وقعـوا فيهـا . . والله سبحانه يبـدأ القصة من أولهـا فينقيها من كـل الروايـات والمزاعم ثم ينتقـل إلى مناقشة أهل الكتاب. وتبدأ القصة بخطاب الملائكة لمريم وإشعارها بأنها مختارة لدور هام عليها أن تُعِدَّ نفسها له:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ فالاصطفاء الأول: قبولها محررة لله بقبول حسن وتطهير الله لها من ارتكاب المعـاصي والفواحش ـ تكـذيباً لمـزاعم اليهود والـذين اتهموهـا بالفاحشـة ـ والاصطفـاء الثاني: خـطاب الملائكـة لها واختيـارها لتلد عيسى عليـه السلام بمعجزة من الله. وكـل من يكلف بدور عـظيم يحتاج إلى تهيئة وتربيـة فقد قيل لمحمد (ﷺ): «قم الليل إلا قليلاً، نصفه أو أنقص قليلاً، أو زد عليه، ورتل القرآن ترتيلاً. إنا سنلقي عليـك قولاً ثقيـلاً»[1]. وقيل لنسـاء النبي عليه الصـلاة والسلام ﴿يا نساء النبي لستن كأحـد من النساء﴾[2]. وطلب منهن أن يمثلن قـدوة ونماذج لغيرهن. وهنا يُطلب من مريم أن تهيىء نفسها لهذا الدور العـظيم بزيـادة في العبادات:

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾.

وعـلى العلماء والدعـاة في كل زمـان أن يعدّوا أنفسهم ليقـوموا بـدور القـدوة للناس بزيادة في القربات إلى الله.

وقبـل أن يتابـع في القصة يلتفت إلى الـذين ينكرون نـزول الـوحي عـلى محمد (ﷺ) ليرد عليهم.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ وهم يعلمون أن محمـداً (ﷺ) كان أميّاً لم يقـرأ الكتب السابقـة ولم يخالط أهـل الكتاب حتى يعـرف منهم هذه الأخبـار. فكيف يحدثكم بهـذه القصة؟ هـل كان حـاضراً عنـدمـا جـرت هـذه الأحداث كلها؟

---

(١) سورة المزمل: الآية ٥.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ والأقلام هي السهام التي كانوا يقترعون بـها لكفالة مريم. كان المشركون يقولون: إن محمداً (ﷺ) كان يقف على حدّاد أعجمي ويتعلم منه هذا الكلام فرد عليهم: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾(١). وتعود الآيات لتتابع القصة:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ بأمر منه: كن فيكون. فقد خلق الناس بالأسباب وخلق عيسى بكلمة التكوين. وقيل: إنه سمي كلمةً من الله لأنه بشّر بـه في كلام الله للأنبياء. وقيل المراد بالكلمة: البشارة لأمّه.

والآية تبشرها بولد وتسميه وتنسبه إليها ثم تذكر بعض صفاته.

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

قيل: إن المسيح لقب الملك عندهم لأن الكاهن كان يمسحه بالدهن المقدس. ومهمة الملك إقامة العدل ورفع الظلم. فكأن المسيح حرّرهم وأرجعهم إلى مقاصد الدين. وقد يكون معنى المسيح: المبارك والله أعلم. ﴿وجيهاً في الدنيا﴾ ومكانة المسيح في القلوب واحترامه تفوق وجاهة الملوك. ولا سيما إذا تذكرنا أن عدد النصارى أكبر من عدد أتباع أي دين آخر... إضافة إلى محبة المسلمين لعيسى عليه السلام. وتتابع الآيات في وصفه:

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ وهي معجزة من الله ﴿وَكَهْلًا﴾ يتكلم من المهد ويتابع دعوته كهلاً ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ لم تتمالك مريم نفسها من التساؤل الذي يحمل رعشة الخوف تنطلق من قلب عذراء طاهرة.. أمام بشارة عجيبة ستسبب لها الإدانة في طهرها..!! فيأتيها الجواب:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وهو مختلف عن الجواب الذي أعطي

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

لزكريا عليه السلام: ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ لأن قصة عيسى وخلقه أعجب من قصة يحيى عليه السلام. وكله خلق من الله لأن الله هو الذي خلق الأسباب والسنن. والمؤمن مستيقن أن الله لا يعجزه شيء.

﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ والله وحده سبحانه القادر على ذلك: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[1].

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعلمه الأحكام ومقاصدها وأن فيها صلاح البشر وسعادتهم.

﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ والتوراة فيها أحكام أكثر. أما الإنجيل ففيه توجيهات خلقية أكثر.

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كما يقول عيسى عليه السلام: جئت لخراف بني إسرائيل الضالة.

﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

وقد كان كل نبي يأتي بمعجزة تناسب عصره وبحسب العلم السائد في زمنه. وفي زمن عيسى كان الناس يتعلمون الطب ويجتهدون في دراسته.. فجاءت معجزة عيسى تتعلق بالحياة والموت وشفاء الأمراض المستعصية في ذلك الزمن: الأكمه: قيل: إنه الذي ولد أعمى. والأبرص الذي ابتلي بالبرص (وهو مرض جلدي قديم). ونلاحظ تكرار كلمة «بإذن الله» حتى لا يقع الناس بالانحراف في العقيدة.. إذ أن أهم ما في القصة هو الإيمان بأن عيسى عليه السلام رسول من الله خلق بأمر من الله وجاء بمعجزات من عند الله وبإذن الله. أما المعجزة التي جاء بها محمد (ﷺ) فقد اختلفت عن معجزات الأنبياء..

---

(١) سورة القمر: الآية ٥٠.

وإن لم تخرج عن القاعدة في معجزات الأنبياء: وهي أن تناسب العصر والفن الذي برعوا فيه. فلقد برع العرب في ذاك الزمان بالبلاغة في النثر والشعر.. فجاءهم كتاب عجزوا عن أن يأتوا بمثله. ولكن محمداً (ﷺ) هو خاتم الأنبياء ولا بد أن تكون معجزته (القرآن) تحمل الإعجاز إلى يوم الدين.. فكانت معجزة القرآن هي تصديق العلم له.. وكلما ازداد العلم كلما قدم شهادة أكبر للقرآن ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1]. وكانت معجزته في هذا النظام الذي وضعه لحياة الإنسان على الأرض (الإسلام). والذي تحدى به محمد (ﷺ) معاصريه والذين يأتون من بعده ﴿فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه﴾[2].. هاتوا كتاباً يتضمن نظاماً أصلح لسعادة الإنسان في الدنيا..

ولئن ذهبت المعجزات الأولى بذهاب الأنبياء.. فإن معجزة محمد (ﷺ) باقية وفي متناول كل من يتبع محمداً (ﷺ) وهي هذا القرآن الذي صنع به محمد (ﷺ) مجتمعاً ربّانياً.. وكل مسلم يستطيع أن يحرك بالقرآن الأمة ويصنعها من جديد.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يصدق بالتوراة ويعدل بعض أحكامها فيحل لهم بعض ما حرّمه الله على بني إسرائيل في التوراة عقاباً لهم على تعنّتهم وظلمهم: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أُحِلَّتْ لهم﴾[3].

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هذه المعجزات كلها أدلة من الله. فاتقوا الله وأطيعوا رسوله. وقد تكررت هذه الدعوة ـ إلى التقوى والطاعة ـ على لسان كل الأنبياء (انظر مثلاً في سورة الشعراء). وعيسى عليه

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٤.
(٢) سورة القصص: الآية ٤٩.
(٣) سورة النساء: الآية ١٦٠.

السلام نبيٌّ كسائر الأنبياء. وعيسى يؤكـد للناس عبـوديته لله ويـطالبهم بعبادة الله وحده:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ فـأنـا وإيـاكم سـواء.. والله هـو ربي وربكم وهـو وحده يستحق العبـادة. وهكذا يـأتي الرد عـلى لسـان عيسى عليـه السلام وينقض دعوى النصارى فيما بعد بأن عيسى ابن الله.. سبحـانه وتعـالى عما يقولون..

﴿فـاعبـدوه هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، فعِبَادة الله وحــده هي الصراط المستقيم الذي يوصل إلى الهدف بأقل وقت وجهـد ممكن. ولقد تعـرضت كتب اليهـود والنصـارى للتبـديـل والتحـريف والكتـمان.. حتى انحــرفت العقيـدة وخالطها الشرك.

أمـا القـرآن فقـد تعهـد الله بحفـظه من التبـديـل.. ولكن تـرك التعلم والتعليم للقـرآن أدى إلى الكتمان... وحصـل التحـريف (تغيـير المعنى) لبعض آيات القرآن.. حتى دخل على المسلمـين من الجهل والتخلف عن أوامـر الله ما جعلهم في مؤخرة الأمم.

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ نحس بنقلة كبيرة باختصار الفترة بين أحداث هذه الآية وما سبقها... فقـد انتقل من البشارة بعيسى إلى ذكر خبره مع قومه.. وطوى ما بينهما لدلالـة الآية عـلى تحققه وهذا من بلاغة القرآن في الإيجاز.

والموضوع فيه تسلية للرسول (ﷺ) بذكر ما قاسى عيسى عليه السـلام من قبله.. وفيـه بيـان بـأن الآيـات الكـونيـة (المعجـزات القـاهــرة) وإن كـثرت وعـظمت.. ليست مُلزِمة بـالإيمان.. وهـل هناك أكـثر مما جـاء به عيسى عليـه السلام من آيات؟!

فلما بلغوا في التكذيب والتنكر مبلغاً شعر فيه عيسى بكفـرهم قال: **﴿من أنصاري إلى الله﴾**؟ من ينصر ويعمل به ويدعو إليه؟

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

والحـواريـون: هم المختـارون المقـربـون. ولعـل الكلمــة مـأخــوذة من الحواري: وهو لبـاب الدقيق وخالصه. فهم خيار القـوم وصفوتهم. وقيـل بأن الكلمـة خاصـة بأنصـار الأنبيـاء لقـولـه (ﷺ): «لكـل نبي حـواري وحـواريَّ الزبير»[1].

ولقـد كان رسـول الله (ﷺ) في مكة يقـول: «من يمنعني حتى أبلّغ دعـوة ربي». . فلما آمن أهل المدينة كانوا هم الأنصار.

وحواريّو عيسى قالوا: ﴿واشهدوا بأنا مسلمون﴾ فـالإسلام دين الله الـذي جـاء به كل نبي.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

وهـا هم أولاء يعلنـون إيمـانهم بـالـرسـالـة واتبـاعهم الـرسـول. والعلم الصحيـح يستلزم العمـل. كـما قيـل (يهتف العلم بـالعمـل، فـإن أجـابـه وإلا ارتحل).

وهم يـطلبون من الله أن يكتبهم مـع الشاهـدين للرسول بتبليـغ الدعـوة وعلى قومه بما كـان منهم. ومرتبـة الشهادة أعـلى المراتب لأنها تحتـاج إلى حضور وفهم وقدرة على الحكم الصحيح بأمانة دون تحيّز لأحد. وهو الدور الـذي كلف بـه المسلمون ﴿وكـذلك جعلنـاكم أمة وسـطاً لتكونـوا شهداء عـلى النـاس﴾[2]. ولكن أين هم الآن من هـذا الدور؟! لاحضـور ولا وعي!! وتلتفت الآيات إلى الفريق الآخر الذي كفر بعيسى عليه السلام ودبر له المكائد:

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ وأصل معنى المكـر: التدبـير بـالخفاء. وهـو على نـوعـين: مكـر سيّئ. ومكـر حسن. فـالمكـر السيِّئ ينسب

---

(١) ثبت في الصحيحـين، والزبـير هو ابن العـوام ابن عمـة رسـول الله (ﷺ): صفيــة. وهـو من العشرة المبشرين بالجنة.

(٢) راجع تفسير سورة البقرة للآية ١٤٣ منها. في كتاب المؤلفة من هدي سورة البقرة.

للناس: ﴿استكباراً في الأرض ومكر السّيِّىء ولا يحيق المكر السّيّىء إلا بأهله﴾[1] أما في الآية هنا ﴿والله خير الماكرين﴾ فإنها توضح أن تدبير الله الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه وإتمام حكمه وكلها خير في نفسها وإن قصر الناس في فهمها والاستفادة منها. فلقد مكروا للإيقاع بعيسى ـ عليه السلام ـ فأوغروا صدر ملك البلاد في ذاك الزمان عليه وقالوا عن عيسى: إنه يفسد الرعية عليك. فبعث الملك من يقتل عيسى وحاصروا بيته.. ولكن الله دبّر تدبيراً آخر. فرفع عيسى إليه وألقى شبهه على رجل آخر ـ قيل: إنه الخائن الذي وشى به ودل على بيته ـ فأخذوه وصلبوه.

وتنتقل بنا الآيات إلى مشهد جديد نرى فيه عيسى في مناجاة مع ربه وهو يخبره بما دبر له: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾.

والتوفّي في اللغة أخذ الشيء وافياً تاماً. ومن ثم استعمل بمعنى الإماتة. ولكنها استعملت أيضاً بمعنى النوم: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾[2]. وفي هذه استعارة لطيفة.. وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿متوفيك ورافعك إليَّ﴾ فمنهم من قال رفع ولم يمت ومنهم من قال: إنها وفاة النوم.. ومنهم من قال بل وفاة طبيعية ثم رفع في المكانة. وكيف كان الرفع؟ هل بالروح وحدها أم بالروح والجسد؟ كل ذلك من الأمور الغيبية وسواء أكان المعنى: (أماتَهُ الله وَرَفَعَهُ). أم كان: ﴿رفعه ولّما يمتْهُ بعد).. فإن هذا لن يؤثر في إيماننا بالله القادر على كل شيء وفي أن عيسى عليه السلام رسول من الله قد خلت من قبله الرسل ـ ومنهم من مات ومنهم من قتل ـ لكن القرآن في مواضع أخرى يقرر ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم﴾[3]. وليس ذلك لأن الله عصم الأنبياء من أن يقتلهم أعداؤهم.. فلقد ثبت عن اليهود أنهم قتلوا بعض الأنبياء.. إنما القرآن يقرر حقيقة ما حصل لعيسى.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٤٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

(٣) سورة النساء: الآية ١٥٧.

المهم في الأمر أن رفع عيسى قد حدث بأي شكل كان فالله قادر على كل شيء.. فالذين يقفون عند الآية ويجادلون في الرفع والوفاة والكيفية... ليست لديهم الأدلة الواضحة الصريحة. فهم يضيعون الوقت والجهد بدون طائل.. والأولى تجاوز هذه الوقفات.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من افترائهم عليك ومكرهم بك لإيذائك.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ﴾.

وهو وعد من الله قد تحقق. ويمكن أن يكون القصد بالفوقية هو السلطان والاستخلاف في الأرض. وقد تحقق ذلك للنصارى بعد ثلاثمائة عام من المسيح.. عندما أصبح دين الدولة الرومانية الرسمي هو النصرانية - على يد قسطنطين الذي ربما أراد بعمله هذا توحيد بلاده - وبقي نفوذ النصارى وسلطانهم إلى أن ظهر المسلمون فكانوا هم الأتباع الحقيقيين لعيسى عليه السلام - الذي بشر بمحمد (ﷺ) وأمر أتباعه أن يؤمنوا به - وأصبحت الفوقية للمسلمين - أتباع عيسى ومحمد عليهما السلام - فترة من الزمن.. فلما وهنوا وضعف سلطان كتاب الله على نفوسهم، وأعطوا الأولوية في حياتهم للشهوات والغرائز تحولت الفوقية مرة أخرى للنصارى وكانوا في أوج حماسهم لدينهم ولكن بصورة منحرفة زائفة. وقد تكون الفوقية معنوية.. فقد اعترف التاريخ بفضل أتباع عيسى ونظر إليهم على أنهم أعلام الإصلاح والتضحية على مر العصور.. والمرجع بعد ذلك إلى الله:

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فهناك الحكم العادل والجزاء الحقيقي.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

وكما يقول عمر بن عبد العزيز: لئن كنا نؤمن بالآخرة فما أشد تقصيرنا.. وإن كنا لا نؤمن بها فقد هلكنا..

وفي الآية تهديد لهم بعذاب شديد في الدنيا والآخرة. . فكيف نفسر هيمنة الكفار وتحكمهم في شؤون العالم في هذا العصر؟! لا بد من تأمل النقاط التالية:

١ ـ إن الله جعل للحياة الدنيا سنناً من سخّرها واستخدمها حصل على النتيجة ولو كان كافراً. وعلينا أن نتذكر ما سبق أن شرحناه عند سنّة إيتاء الملك: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء﴾. فالله يعطي الملك لأصلح المتعاصرين (الذين هم أكثر إصلاحاً للأرض من بين الأقوام المعاصرة لهم).

٢ ـ ثم إن الأعمال تحتاج إلى فترة حضانة حتى تظهر نتائجها وعواقبها. . إن الكفر والفساد أمراض نفسية واجتماعية. . وهي كالأمراض الجسدية. . لا تظهر أعراضها عند الإصابة مباشرة. . ولكن بعد دور حضانة للجرثوم.

٣ ـ ولا يشترط أن يكون العذاب في نزع السلطان منهم. . وإنما على الصعيد النفسي والاجتماعي ألا يذوقون ألواناً من العذاب؟ وذلك على درجات تتناسب مع الجوانب التي يحدث فيها الكفر والفساد. وظهور مرض (الإيدز) كطاعون جديد يعتبر أحد صور هذا العذاب الشديد الذي ينزل بالمتنكرين لأحكام الله.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فهؤلاء يأخذون أجورهم كاملة ولا يبخسهم الله مثقال ذرة لأنه لا يحب الظلم والظالمين فاحذروا من الظلم. . وإن من يؤيد ظالماً يشاركه في ظلمه. . ومن يسكت على ظلم فقد ظلم. . «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[1] ونَصْرُ الظالم بمَنْعِه من الظلم ورده عنه. ومن غلّب هواه وقع في الظلم. . فإن حبّك الشيء يعمي ويصم. . وقد ننساق دون شعور منا فنميز بين أبنائنا. . وإن الحرمان من

---

(١) رواه البخاري.

كلمة حب ولمسة حنان عند أحد الأبناء يخلف في نفسه آثاراً وعقداً مؤلمة.. لم تخطر لنا على بال..

وإن أكبر المشكلات وأعظم الثورات والحروب في العالم كان سببها الظلم.. ولهذا كان الظلم ظلمات يوم القيامة.. وإنما نزلت الأديان على الناس لإنهاء الظلم.. والله يتهدد الظالمين ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ فمن لك أيها الإنسان إن حرمت من حب الله ورعايته..؟! ما الذي بقي لك..؟!

وينهي الحديث عن قصة مريم وعيسى بالتركيز على نقطتين:

١ - **إن محمداً (ﷺ) لا يعرف شيئاً من هذه الأخبار**.. ولكن الله أوحى إليه بهذا في القرآن: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فالقرآن ذكر لله وذكر للأفكار والأحكام الصحيحة. وهو حكيم: يضع الحكم المناسب في المكان المناسب.

٢ - **إن عيسى بشر خلقه الله مثل آدم**.. بل إن الإعجاز في آدم أكبر ولم ترتابوا في بشريته ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

والبشر كلهم خلقوا من تراب ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾(١) وجسم الإنسان يتركب ويتغذى من الأرض. أما كيفية الخلق فلم نستطع إدراكها حتى الآن.. وإن كان الموضوع مفتوحاً أمام الإنسان بل إن الإنسان مأمور بدراسته: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾(٢). وإن زيادة الكشف والعلم في هذا المجال تزيد من فرص الإيمان بالله القادر وتقرب الإنسان من ربه - تلك هي حقيقة عيسى - عليه السلام - فلا تشك في أمره مهما أثاروا حوله من شكوك وتساؤلات.. ومهما جادلوا فيه.. فإنها هي الحقيقة الساطعة التي يقبلها العقل.

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

---

(١) سورة طه: الآية ٥٥.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.

ثانياً: اتباع الأنبياء

محاجة أهل الكتاب

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ (٦١) ﴾.

هذه الآية تسمى آية المباهلة.. وهي أن يقف الطرفان المتخاصمان رجالاً ونساء وأطفالاً ثم يتضرعون إلى الله أن ينزل اللعنة على الكاذبين.

ويذكر ابن اسحق في سيرته سبب نزول هذه الآيات نختصره فيما يلي:

قدم على رسول الله (ﷺ) وفد نصارى من نجران ستون راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر. عليهم ثياب الحبرات... يقول من رآهم من أصحاب النبي (ﷺ) ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم. وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله (ﷺ) فقال رسول الله (ﷺ): «دعوهم» فصلوا إلى المشرق. فكلم رسول الله (ﷺ) منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والأيهم - وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم..

فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله (ﷺ): «أسْلِما». قالا: قد أسلمنا. قال (ﷺ) «إنكما لم تسلما فأسلما» قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير» قالا: فمن أبوه يا محمد؟... فأنزل الله في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية... فدعاهم رسول الله (ﷺ) إلى ذلك. فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا... ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً نبيٌّ مرسلٌ. ولقد جاءكم بالفَصْل من خبر صاحبكم. ولقد علمتم أنه ما لاَعَنَ قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم. وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم. فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم. فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا النبي (ﷺ) فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا. ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضا. فقال رسول الله (ﷺ): «ائتوني العشيَّة أبعث معكم القوي الأمين».. فتطلع إليها عمر. فدعا رسول الله (ﷺ) أبا عبيدة بن الجراح فقال: «اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه» قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة (رضي الله عنه).

وفي حديث: «لو خرج الذين يباهلون رسول الله (ﷺ) لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً»(١).

وقد استبعد بعض المفسرين أن يكون وفد نجران هو سبب نزول الآيات لأن الوفد قد جاء في العام التاسع للهجرة ـ عام الوفود ـ بينما الآيات نزلت قبل ذلك.. ومع ذلك فإنني أجد أن قصة الوفد تلقي ضوءاً أمام الآيات. ولهذا ذكرتها دون أن أعطي حكماً في الأمر بل أحيله إلى المحقّقين وذوي العلم.. والله أعلم.

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقف صاحب المنار ـ رشيد رضا ـ عند كلمة ﴿نساءنا ونساءكم﴾ واستنتج منها أهمية مكانة المرأة في المجتمع. لأن المباهلة قضية دولية اجتماعية وقد أمر الله النساء بالمشاركة فيها. فأين المسلمون من هذا الموضوع؟ يقول: أما الأغنياء وأهل المدن منهم فإن نساءهم لا تعرف إلا التضرّس (أي البحث عن اللذيذ من الطعام والشراب) **والتطرز** (البحث عن أفخر الملابس) **والتوزن** (المبالغة في النعيم والتطيب). فهل كتب على نساء المدن والأغنياء أن لا يعرفن سوى هذا؟ وهل كتب الله على نساء القرى والبوادي والفقراء أن يكنَّ كالأُتن الحاملة والبقر العاملة؟! (الأولى ضائعة في التنعم والثانية ضائعة في الأعمال الشاقة).. يقول: وبقي حال المسلمين هكذا حتى جاء من يعيِّرهم على نظرتهم هذه للمرأة ـ وظهر دعاة إلى أن تخرج المرأة من هوانها وترتفع... وكانوا قِسْمَين: قسم دعا إلى ذلك اتباعاً لهدي الإسلام. وقسم دعا إلى ذلك اتباعاً للمدنية الغربية. أما القسم الأول فقد حاز على استحسان كثير من الناس وبقي قولاً دون عمل. وأما الثاني فقد استجيب له عملياً وإن ذمه كثيرون».

هذا الكلام قاله رشيد رضا منذ قرابة خمسين سنة. فهل تغيرت الحال؟ ربما حصل تحسن بسيط.. ولكن كان ينبغي أن يتقدم المجتمع وتتغير أحوال العالم الإسلامي في هذا المجال ـ وفي جوانب أخرى ـ أكثر بكثير. وإن ما حصل في الصين واليابان ـ مثلاً ـ خلال خمسين عاماً يعتبر مذهلاً إذا قيس بجمودنا.!!

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

يرد على مزاعمهم بالتأكيد مرة بعد أخرى على توحيد الله العزيز الحكيم. ولن يؤثر إعراضهم على الحقيقة في شيء. ولكنهم هم الخاسرون لأن الله عليمٌ بهم ولن يفلتوا منه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾. وفساد العقيدة يؤدي إلى فساد السلوك والأخلاق.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

بعد التهديد في الآية السابقة يفتح أمامهم الفرصة ويدعوهم إلى التوحيد. . . ويأمر نبيّه والمسلمين أن يتوجهوا إلى أهل الكتاب بدعوة منصفة فيها التساوي والعدل. . تعالوا لنكون متساوين أمام هذا الأمر. . فنطلب منكم ما نلزم به أنفسنا وهو: ﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾ لا صنماً ولا كاهناً. . وكلمة شيء هنا عامة لأن الشرك له ألوان كثيرة. . شرك في التوجه إلى غير الله. . شرك في الخضوع لغير الله ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ وقصة النبي (ﷺ) مع عدي بن حاتم معروفة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾[1] فقال عدي: ما عبدناهم. . ! فوضّحَ له رسول الله (ﷺ): أن طاعتهم حين حلّلوا وحرّموا عليكم. . هي عبادتهم[2].

فهي دعوة منصفة لا يعرض عنها إلا معاند مكابر.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ وقد كتب رسول الله (ﷺ) هذه الآية في دعوته لهرقل قيصر الروم إلى الإسلام.

وكانت اليهود والنصارى تدعي كل واحدة منها أن إبراهيم كان منهم. . فيرد عليهم:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. والنداء: يا أهل الكتاب يذكرهم بفضل الله عليهم والعلم الذي عندهم وأن موقفهم ينبغي أن يتناسب مع علمهم. . لا أن يجادلوا بغير علم. فاليهودية والنصرانية كانت بعد إبراهيم بأجيال فكيف تزعمون أنه يهودي أو نصراني. ﴿أفلا تعقلون﴾؟! ونجد في الآيات دعوة إلى التعقل والرجوع إلى العلم وأن لا يخوض الإنسان فيما ليس له به علم:

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣١.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قد يقبل منكم أن تناقشوا في عيسى الذي عاصرتموه وحدثتكم عنه التوراة والإنجيل... كأن تقولوا: عيسى من أنبياء بني إسرائيل... أو ما شابه... أما أن تخوضوا في إبراهيم بغير علم... فلا يحق لكم.

والإنسان قد ينساق إلى الحديث فيما ليس له به علم وهو يظن أنه يعلم... فتأتي التربية القرآنية لتضع الكوابح على اللسان. وتعيد الترتيب إلى العقلية الفوضوية.. فانتبه قبل أن تتكلم في أمر.. هل لديك علم به؟ ولا بد من تحديد العلم ومراحله حتى لا نظن ما ليس بعلم أنه علم. فالعلم له ثلاث مراحل[1]:

الأولى: النظر أو الملاحظة ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض...﴾[2].

وقد تكرر أمر القرآن بهذا.. فإذا سجّل ما رأى من أحداث أصبح ذلك تاريخاً.

الثانية: التأمّل والتدبّر والبحث عن أسباب الأحداث. ثم تحديد الأسباب الحقيقية ونتائجها.. أي كشف القوانين (أو السنن).

الثالثة: تسخير هذه الأسباب والاستفادة من القوانين للحصول على ما نريد.

فالعلم يجري ضمن هذه الحلقات الثلاث: إدراك الحدث ـ معرفة سببه ـ تسخير السبب. فقراءة السيرة ـ مثلاً ـ هي مرحلة أولى من العلم. ثم تأمل أحداثها ومعرفة أسباب وقوع هذه الأحداث مرحلة ثانية.. ثم تسخير هذه الأسباب لتربية نماذج جديدة تقتدي بالصحابة هي المرحلة الثالثة من العلم

---

(١) يراجع في هذا مفصلاً كتاب (اقرأ وربك الأكرم) للأستاذ جودت سعيد.

(٢) سورة يونس: الآية ١٠١.

بالسيرة. وهكذا يصبح التاريخ علماً.

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ وهذا التقرير لا يشبه زعمهم المتعصب أنه كان يهودياً أو نصرانياً.. وإنما يرجع إلى الحقيقة التي يعترف بها الجميع وهي أن الأنبياء كلهم كانوا مسلمين لله وأوصوا أتباعهم بالإسلام لله. وإبراهيم كان حنيفاً: أي مائلاً عن الشرك. ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فقد زعم المشركون في مكة أيضاً أنهم على ملّة ابراهيم وهم يعبدون الأصنام التي تبرأ منها إبراهيم عليه السلام.

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ في الماضي وفي كل مكان وزمان ومنهم:

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن الادعاء لا يجدي شيئاً والذين يقولون من المسلمين: نحن على دين محمد (ﷺ) بلسانهم ولكن أعمالهم لا تنتمي إلى سنّة النبي بشيء فهم واهمون ولا يخدعون إلا أنفسهم. فإن أولى الناس بالأنبياء هم الذين يتبعونهم... وهؤلاء هم المؤمنون حقاً الذين يضمهم الله إلى صفه ﴿والله ولي المؤمنين﴾.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

في الآية إشارات ومعانٍ هامة منها:

أولاً ـ ﴿ودت طائفة﴾ الحديث عن طائفة وليس عن الكل. فهي فئة من أهل الكتاب تريد وترغب في إضلالكم. وهو أسلوب القرآن في الحكم على الناس. فلا يطلق أحكاماً عامة وإنما يستثني.. مثل قوله: ﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾[1] ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾[2]. ﴿لكن الراسخون في العلم منهم

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٩.
(٢) سورة النساء: الآية ٤٦.

والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك﴾[1]، وهذا ما يعطي الدقة والعدالة لأحكام القرآن. . . وهذا دليل على أن القرآن من كلام الله لأن البشر قلما يرتفعون إلى هذا المستوى من الدقة والعدل في إطلاق الأحكام. خاصة إذا كانت الأحكام تتعلق بأعدائهم. وفي ذلك توجيه وتعليم لنا أن لا نطلق حكماً عاماً بدون استثناء.

ثانياً ـ إن من يحاول أن يُضلّ الآخرين ويظلمهم فإنه يوقع الضلال والظلم على نفسه أيضاً فليس المظلوم وحده هو المتضرر بل إن الظالم يتضرر أيضاً بظلمه. .

وهو موضوع ألحَّ عليه القرآن: ﴿ولا يحيق المكر السيّىء إلا بأهله﴾[2]. ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم﴾[3]. ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾[4]. . . أما كيف يقع الظلم على الظالم فإن هذا يحتاج إلى تأمل:

١ ـ إن الظالم قد أساء إلى إنسانيته وهبط بنفسه إلى أسفل سافلين. وتدسية النفس ظلم لها وحرمان من الأمن الداخلي الذي هو منبع السعادة في الدنيا.

٢ ـ ظلم نفسه بحرمانها من محبة الله وعونه في الدنيا وبجعلها تستحق العذاب في الآخرة.

٣ ـ إنه بظلمه للآخرين عرض نفسه لكراهيتهم وسعيهم للانتقام منه.

٤ ـ إن الظالمين بأعمالهم يدعمون تيار الظلم في المجتمع وهذا ما يعرض المجتمع كله للعواقب الوخيمة. . وستعم النتائج عليهم لأنهم جزء من المجتمع.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦٢.
(٢) سورة فاطر: الآية ٤٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ٩.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣١.

ولهذا كله كان المسلمون لا يخافون من الظلم الذي يقع عليهم بقدر خوفهم من الظلم الذي يصدر منهم.. وقد تحدث الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله عن شيء من ذلك حين بحث قضية الاستعمار.. إذ ليس المستعمَرون وحدهم هم الذين تضرروا به بل إن المستعمِرين أيضاً قد تضرروا... وإنهم حين يرجعون إلى بلدهم يرجعون وكأن في نفوسهم سماً زعافاً مما عملوا...

ثالثاً - ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ فكل إنسان يختار لنفسه المصير... والقرآن بذلك يقرر مسؤولية كل فرد عن نفسه.. والمضلون لا يضلون أحداً رغماً عنه... ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلاتلوموني ولوموا أنفسكم﴾[1]، وإن الله وصف الظالم والذي يقبل الظلم في القرآن بأنهم مستكبرون ومستضعفون وأن الطرفين ظالمان. وحكم بأن مصيرهما إلى النار﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض. قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾[2].

ولهذا يعتبر الساكت عن الحق شيطاناً أخرس. لأنه بسكوته قد نصر الباطل وشارك في الظلم.

رابعاً - إن الظالمين والمضلين لا يعرفون أن ذلك يعود عليهم بالضرر والخسارة في الدنيا قبل الآخرة. ولذا يقول الله عنهم: ﴿وما يشعرون﴾. ولعل الناس الآن على عتبة عصر جديد تتدخل فيه آيات الآفاق والأنفس لتوضح للناس وحدة مصير العالم وأن الأقوياء والأغنياء والذين عندهم علم... إن لم يبذلوا جهدهم لإنقاذ الآخرين فإن سفينة العالم كله مهددة بالغرق. لقد هدد الإشعاع المتسرب من محطة تشيرنوبل بلداناً كثيرة متنوعة في القوة والضعف.. كما يهدد الآن مرض نقص المناعة (الإيدز) العالم بأسره... وعلى رأس المهدَّدين أولئك الخبثاء المضلِّين الذين روّجوا للفاحشة وابتزّوا أموال الناس ودماءهم.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٧.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

ما زال القرآن يناديهم بأحبّ الأسماء إليهم تحريكاً لمشاعر الخير فيهم. وتعليماً للدعاة كي يتنبّهوا إلى أهمية الأدب في الحوار.

وقد كان لدى أهل الكتاب نصوص تصف محمداً (ﷺ) وبعض علاماته. فالقرآن يستنكر عليهم كيف يكفرون وهم يرون الأدلة والبراهين ويرون تحقق البشارات في محمد (ﷺ) والخطاب مستمر اليوم إلى أهل الكتاب بل إنه يأخذ أبعاداً جديدة... فيا أهل الكتاب لم تكفرون مع أنكم تشهدون انكشاف آيات الآفاق والأنفس وشهادتها للإسلام بأنه الحق...؟!

والقرآن يسمي من يعرف الحق ويعرض عنه (مغضوباً عليه) و (ظلوماً).

أما من لا يعرف الحق ويعرض عنه فهو (ضال) وهو (جهول). وذلك من قوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾[1] وقوله: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فالجهل بالحق لا يعتبر عذراً معفياً من العقاب خاصة وأن فرص التعليم وأبواب العلم تزداد انفتاحاً يوماً بعد يوم.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

والكتمان سابق على إلباس الحق بالباطل... فكتمان الحق يشيع الجهل في المجتمع وهذا الذي يساعد الخبثاء على التلاعب بالحقائق... فيخلطون الحق بالباطل. والقرآن يقدم النتيجة على السبب أحياناً كي يلفت النظر إلى الغايات والمقاصد.. فغايتهم هي خلط الحق بالباطل. وأحياناً يقدم النتيجة للإشعار

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

بسرعة حدوثها مثل قوله: ﴿لو اطلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾[1].

فالدواء هو التعليم والتبليغ لآيات الله... وإن تيار العلم كفيل بإزاحة الخداع والدجل. وها نحن أولاء نرى اليوم كيف تتضاءل فرص الخداع والكتمان فلم يعد بإمكانهم إخفاء ما يجري من أحداث لأن القمر الصناعي يلتقط ما يجري في أطراف العالم وأجهزة الاستقبال تفضح كل شيء... ولكن العالم الثالث لا يفتح عينيه ليرى.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وهي محاولة منهم لزعزعة المؤمنين وتشكيكهم بالإسلام وعملهم هذا مثال على الهدف الذي يسعون إليه وهو إلباس الحق بالباطل. على طريقة القرآن في البيان بعرض أمثلة ونماذج.

وتمثيل دور المرتد مقصود لزعزعة الصفوف فكأنه يقول: وجدت ديني أفضل فعدت إليه. وهذا يثير شكوكاً وتساؤلات. ولهذا كان من جملة ما سأل هرقل أبا سفيان عن محمد (ﷺ) لما جاءه كتاب منه يدعوه إلى الإسلام. (هل ارتد أحد ممن آمن بمحمد (ﷺ) فقال أبو سفيان: لا[2]... فهذا يدل على صدق الرسول وقوة الرسالة. وكأن الرسول (ﷺ) حين أمر بقتل المرتد أراد أن يغلق الباب أمام هذه المناورات.. فلا أحد يرغمكم على الدخول في الإسلام.. ولكن إذا دخلتم به فلا رجوع عنه.. فلا تدخلوا بالإسلام إلا عن إيمان ويقين.. والله أعلم.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هكذا كان يوصي بعضهم بعضاً.. لا تسمعوا ولا تصدقوا ولا تظنوا أنه يوجد خير أو صواب عند من لا يدين

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٨.

(٢) حديث سؤال هرقل لأبي سفيان عن محمد (ﷺ) ذكره البخاري في صحيحه.

دينكم.. وهي نظرة متعصبة عنصرية ضيّقة.. تقلص فرص المعرفة أمام الإنسان وتحبسه في قوقعة.

فهل نَهْيُ المؤمنين عن موالاة الكافرين يُعتبر تعصباً وعنصرية ومنعاً من رؤية الحق الذي عندهم؟! يجب أن نفرق بين التعصب والنهي عن الموالاة.

إن الموالاة علاقة حب وثقة وتناصر وتعاون.. ولا تكون إلا بين أصحاب المبدأ الواحد. والتعصب شيء آخر نهى عنه القرآن ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾[1]. ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[2]. ومدح عباده المؤمنين بقوله: ﴿فبشر عبادِ. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾[3]. فهم يستمعون كل قول.. بغضّ النظر عن قائله. والمؤمنون ينبغي أن يكون لديهم هذا الميزان الدقيق ﴿يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾...

وها هو ذا أبو بكر يعلمهم أن يمسكوا بهذا الميزان في أول خطاب له عند توليه الخلافة: (أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم). وكتاب الله هو الميزان: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فالمؤمنون لا يتبعون اتباعاً أعمى.. ولا يعرضون بدون علم أو بصيرة.. ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾[4]، فالحق حق ولو كان مع العدو والباطل باطل ولو كان مع الحبيب. والحق هو هدى الله وهدى الله موجود في آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس (أي السنن) ويمكن أن نقول بمصطلح آخر: إن الآية تندد بالتجسيد وتأمر بالتجريد.. **والتجسيد هو خلط الفكرة بصاحبها (التشخيص).** فنقبل الفكرة لأننا نثق بصاحبها. **والتجريد هو عزل الفكرة عن الأشخاص وعن عواطفنا والحكم عليها بشكل علمي.** فهل المسلمون الآن في مستوى

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٨٣.
(٢) سورة المائدة: الآية ٨.
(٣) سورة الزمر: الآية ١٨.
(٤) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

التجرد الذي يطلبه القرآن؟!

إن بلوغ هـذه المرحلة يحتـاج إلى إنسان قـد تحـرر من ضيق الأفق وضيق المعرفة.

والآية ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ تأتي معترضة أثناء كـلامهم. . ثم يعود السياق إلى متابعة كلامهم:

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ فالحسد هو الدافع لهذا الكيد. والحسد يكون سبباً في الانصراف عن الحق. والحسد مرض خطير يختلف عن الغبطة. . لأن الغبطة دافع إيجـابي ينمي التنافس عـلى الخير. . بينـما الحسد يحمـل الأنانيـة والسلبية إذ يتمنى الحاسد أن تزول النعمة من عند الأخرين.

وقديماً قالوا: (لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله). وأهل الكتـاب منهم من دفعـه حسـده لمحمـد (ﷺ) والمسلمـين إلى رفض الحق. . . وهـذا مـا جعلهم يخسرون في الدنيا ويهلكون في الآخرة.

والحسد مصدره ضعف النفس وجهلهـا. . فالضعيف لا يملك الشجـاعة الكافية ليعترف بفضل غيره عليه. فيعادي ويحسد.

والجاهل: لا يعرف أسباب تفوق الآخرين عليـه. . ولو عـرفها وقـام بها لوصل إلى مثل ما وصلوا إليه وكان بإمكانه أن يتفوق.

﴿ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ فلا تقولوا لهم بأن هذا النبي هـو الموصـوف في كتابنا حتى لا يحتجوا عليكم يوم القيامة بأنكم عرفتم الحق ولم تتبعوه!!

وهذا دليل جهلهم وضعف إيمانهم بالله. ويتحول الكلام إلى الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾. وإن مشيئة الله لا تجـري عبثاً أو جزافاً. . بـل وفق سنة الله في العطاء. . ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[1].

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

فهـو يعـطي فضـل النبـوة لمن يستحق . . . ويستخلف من الأمم مـن تثبت جدارتها . وعمل الله يأتي كثمرة وجائزة على عمل العبد .

تأتي الآيات بعد ذلك لتتحدث عن بعض صفات أهل الكتاب .

ثانياً: من صفات أهل الكتاب

١ً - نِسْبيّة الأمانة عندهم:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾.

وحكم الله يتصف بالدقة والإنصاف. فهو يقرر أن منهم من يتصف بالأمانة ولا تغريه الأموال الطائلة على الإخلال بها. ومنهم من يضعف حتى أمام المبلغ التافه.. فلا يؤدي ما عليه إلا تحت الرقابة والملاحقة: فما علة ذلك؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ والأميّون في رأيهم هم كل الناس ما عدا اليهود وأطلقت الكلمة بشكل خاص على العرب. فكان اليهود يقولون لسنا مؤاخذين إن لم نلتزم بالأمانة والأخلاق مع غير اليهود... فهؤلاء كفرة يجوز خداعهم..!! والقرآن يرد عليهم رداً شديداً:

٢ً - افتراؤهم على الله:

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فالعدل والأمانة والصدق أمور مطلقة يتعامل المسلم بها مع الجميع ولا يحل لمسلم أن يأخذ شيئاً من أي إنسان مهما كان دينه ومذهبه إلا بالطرق المشروعة.

إن هذه النسبية في الأخلاق هي التي تحكمت في أسلوب العالم الغربي - أهل الكتاب - في التعامل معنا . . فهم يتعاملون بالأمانة والوفاء واحترام كرامة الإنسان وحريته . . . داخل حدود بلادهم لا أكثر . . وأما مع العالم الثالث الذي استعمروه فلا أخلاق ولا اعتراف بالحقوق الإنسانية. وحتى الآن ما زالت معظم تصرفاتهم تقول: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ . . . فلقد انسحبت بريطانيا وأمريكا من المنظمة العالمية (اليونسكو) بحجة أن المنظمة تقدم مساعدات أكثر من اللازم للدول النامية . . . فَلْتَمُتْ هذه الدول من الجوع والجهل والمرض . . فإنها لا تستحقّ إلا أن تبقى خادمة للدول العظمى . . !! هذا هو منطقهم . . وهذا هو رقيّهم؟! ولا أريد بذلك أن أدافع عن العالم الثالث . . فمما لا شك فيه أننا نحن الذين نمكنهم من استغلالنا وذلك بجهلنا . . ولكن أردت أن أذكر مثلاً على نِسْبِيّة الأخلاق عندهم . . ولا ينبغي للمسلم أن يقع في هذا الخطأ . . فيعاملهم بالمثل. ورحم الله عمر حين قال (لست بالخبّ - أي الماكر - وليس الخبُّ يخدعني). فالمسلم لا يتلقى أخلاقه من الآخرين . . ولا ينبغي أن تكون أعماله ردود أفعال لأعمال الآخرين . . ولئن لم يتفوق المسلم بأخلاقه واستقامته فأي ميزة له؟!

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[1] فلقد كان (ﷺ) الصادق الأمين حتى مع أعدائه . . التزم بما عاهد عليه اليهود والمشركين فلم ينكث بعهده معهم . . بل كان أعداؤه هم الذين يغدرون وينقضون العهد. فلقد شهد القرآن على اليهود ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾[2]. ولقد نقض المشركون صلح الحديبية . . فأمر الله رسوله أن يعلمهم أن العهد بينه وبينهم قد انتهى ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾[3]، فإن القرآن لا يبيح للمسلم إن تخوف من غدر

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٠.

(٣) سورة التوبة: الآية ١.

أعدائه أن ينقض عهده معهم حتى يعلمهم ﴿وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾[1].

تلك هي القمة التي ارتفع إليها رسول الله (ﷺ) في الوفاء.. والتي يريدنا القرآن أن نرتفع إليها حتى نكون من عباده المتقين. ألا تريدون أن تكونوا من الذين يحبهم الله؟

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فإن من أصول الإيمان والتقوى: الوفاء بالعهد والأمانة. ومن شيم النفاق: الكذب في الحديث والإخلاف في الوعد والغدر بالعهد.

والوفاء بالعهد موضوع دقيق يشمل أبسط الأمور: كالوعد بزيارة.. أو الالتزام بوقت الدوام في الوظيفة.. وقولك لطفل: تعال أعطك.. ويكبر حتى يشمل المعاملات الدولية..

وتتدخل التربية في ترسيخ هذا الخلق إلى أعماق الفرد.. ولهذا نحتاج إلى مراقبة الذات لتنحية السلبيات وتنمية الإيجابيات في أنفسنا.. لأننا ننقل أخلاقنا بالعدوى إلى الأجيال القادمة..

ونلاحظ أن القرآن قد ذكر مثالاً مأخوذاً من أعمال أهل الكتاب وهو نسبية الأمانة عندهم. ثم قرر قاعدة في الأخلاق ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى..﴾. وذلك من أساليب القرآن في البيان: يذكر أمثلة ويستخرج منها قاعدة.. وأحياناً يبدأ من القاعدة ثم يذكر عليها أمثلة.

٣ً ـ جزاء من يشتري بعهد الله ثمناً قليلاً:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ... ﴾ ولا يكون الوفاء فضيلة تستحق المدح إلا إذا التزم به الإنسان وهو قادر على نقضه وآثره على مكاسب الدنيا.. وإن مكاسب الدنيا مهما كانت كبيرة وجميلة في

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

عيون الناس فإنها ثمن قليل زهيد يبيع الإنسان به ذمته وضميره ومصيره في الآخرة.. ويعرض ما ينتظرهم من جزاء في الآخرة:

﴿أولئك لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لا نصيب لهم في الآخرة.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾. فيعرض عنهم كما أعرضوا عن الوفاء بالعهد. ويحرمهم من كرامة خطابه لهم.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والإعراض على درجات: فهناك من ينظر إليك ولكن لا يخاطبك.. وهناك من يخاطبك ولكن لا ينظر إليك.. ويبلغ الإعراض حد الاحتقار حين لا يكلم ولا ينظر.

هذا هو عقاب الآخرة لمن يؤثر الدنيا على الوفاء بالعهود. ويدخل في الآية الذين يحلفون الأيمان لترويج السلع كذباً أو يحلفون ليقتطعوا مالاً أو عرضاً من الدنيا بدون حق. فهل يفلتون في الدنيا من العقاب؟

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكأنها إشارة إلى عقوبة الدنيا. إن خراب الذمم وانتشار الريبة وضياع الأمانة وانعدام الثقة بين الناس... إن هذه هي بعض نتائج مخالفة القانون الأخلاقي الذي وضعه الله للبشر.. وإن أوامر الله تأتي منسجمة مع سنن الحياة وقوانينها... وإن كل من يخالف القانون لا بد أن يحصل على العواقب ولو بعد حين. فأولاً يخسر طهارة نفسه. ثم يأتي العذاب الأليم...

وقبل أن نترك الموضوع ألفت النظر إلى أن من الوفاء بالعهد حفظ سر أخيك المؤمن... فإذا خصّك بحديث مال به عليك من دون الجالسين.. فلا تذع خبره.. والمجالس أمانة.. وهذا أمر يحتاج إلى حكمة حتى تعرف ما الذي يجب أن يذاع وما الذي تكتمه.. فإن كتمان الحق والسكوت عن تعليم الفكر الجيد.. وعدم إذاعة الأحاديث المفيدة فيه خسارة كبيرة للأمة ولهذا هدد الله كاتم العلم بأشد العقاب في آيات عدة.

٤ً - ليّ ألسنتهم لتحسبوه من الكتاب:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ لقد تلاعبوا بكتبهم فأدخلوا فيها ما ليس منها وأوهموا الناس أن هذا الخليط المشوه هو الحق من عند الله. قاموا بهذا التبديل وهم يعلمون أنهم يفترون..!!

وقد سبق أن ذكرنا أن الكتب السماوية تعرضت لآفات ثلاث: **التبديل والتحريف والكتمان**، أما القرآن فقد حفظ من التبديل.. وهي نعمة كبرى من الله.. ولكن ينبغي أن لا نستهين بالتحريف - أي تغيير معنى الآيات - والكتمان.. لأن آثارهما شديدة الخطورة. فالذي يحرف القرآن يتشبث بالأفكار الهدامة لأنه يعطيها قداسة الآيات. وكتمان الآيات يخلق حجاباً بين الإنسان وآيات الله.. ويجعله ألعوبة بيد الخبثاء.

ثالثاً: الرّد على مغالطات أهل الكتاب

وهـذه الصفات التي سبق أن أشـارت إليها الآيـات ناتجـة عن أخطاء.. منها: **سوء العلاقة مع الرسـل**: ففي الوقت الـذي يزعمـون فيه أن عيسى ربٌ أو هو ابن الله ـ والعياذ بالله ـ يكفرون بمحمد (ﷺ) الذي بشر به الأنبياءَ جميعـاً بما فيهم عيسى ـ عليـه السـلام ـ ومـا كـان لعيسى الإنسـان الـذي أنعم الله عليـه بالكتاب (الانجيـل) والحكمة والنبـوة.. ما يمكن لعيسى وقـد أنعم الله عليه.. أن يقول للناس كونوا عباداً لي..!!

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

إن عيسى ـ عليه السلام ـ إنسان نزل عليه الوحي وفهم مقاصده وأكـرمه الله بمرتبة النبوة فما يمكن أن يقول للناس اعبدوني.. بل إنـه قال للنـاس كونـوا ربـانيين. والـرباني: منسـوب إلى الرب.. وهـو الـذي يعيش مـع الله وأوامـره ويمـوت في سبيله. وبحسب الآية: هـو الـذي يُعلِّم الكتـاب ويـدرس[1]. فهي

(١) خلافاً لما يظن بعضهم من أن الرباني هو الذي انقطع للتعبد.

تحث المؤمنين على استكمال الإخلاص والصواب ونلاحظ أن الآية ذكرت التعليم قبل الدرس مع أن الدرس يكون قبل التعليم.

وفي ذلك إشارات:

١ - تأكيد على ضرورة التعليم وأهميته.
٢ - إن الغاية من الدراسة هي تعليم الناس والنهوض بهم.
٣ - ولا يكون الدرس جيداً ومركزاً إلا إذا سبقته رغبة في التعليم.

٤ - إن كل تعليم ينبغي أن يتبعه درس لمعرفة نواحي النقص ودراسة كيفية تلافيها..

وإن من يتخرج من الجامعة لا يكون قد أنهى دراسته بل عندها تبدأ الدراسة الجدية إذا كان ينوي التعليم. ولكن نسبة هؤلاء الذين يبدأون دراستهم الجدية بعد التخرج في أوروبا أكثر بكثير منها في العالم الإسلامي كما يقول مالك بن نبي رحمه الله.. وهذا ما يؤدي إلى الإفلاس العلمي في عالمنا.

والتعليم هو نقل الخبرات إلى الآخرين.. **وأعلى مستوى في التعليم والتبليغ: أن تصل إلى أحسن النتائج بأقل وقت وجهد ممكن.** وهي الوصول إلى الفنية اللازمة بحيث تعرف كيف تأتي البيوت من أبوابها وتتجنب الحواجز وتعرف كيف تتخطى العقبات.

وفي الحقيقة إن التعليم في عالمنا ولا سيما تبليغ الآيات.. لم يستفد من انفتاح الوسائل الجديدة في هذا المجال.. فهو يتحرك كالسلحفاة في عالم الصاروخ.

إن عملية التبليغ في عالمنا قاصرة على جهود فردية أغلبها تقليدي في الشكل والمضمون ومعزولة عما تضيفه آيات الآفاق والأنفس أثناء انكشافها من آفاق رحبة ووسائل فَعّالة.

وتأتي كلمة الدرس عامة فلا تحدد بدراسة الكتاب فحسب.. لأن

الدرس كلما اتسع مجاله جاء تعليم الكتاب أرقى وأفضل.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فعبادة الملائكة والنبيين والقديسين. . كل ذلك من افتراء البشر وتحريفهم. . ويحدثنا عن سوء العلاقة مع محمد (ﷺ) الذي أخذ الله الميثاق على أنبيائه بتصديقه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ مهما آتيتكم من كتاب وحكمة . . فلا يمنعكم ما أوتيتم من علم ونبوة من الإيمان بالنبي الذي يأتي من بعدكم. . وتأييده ونصرته.

﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي عهدي الثقيل المؤكد.

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ فالأنبياء شهداء على ذلك. . وعيسى ـ عليه السلام ـ قال للناس بوضوح ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[(١)] وقد وردت هذه العبارة بنصها في إنجيل برنابا. والله معكم يشهد لكم وعلى أقوالكم وشهادة الله تبرئة للأنبياء مما نسب إليهم أقوامهم من الأكاذيب. وإدانة لأتباعهم.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾ الذين خرجوا من طاعة الله.

ويستنكر عليهم: ماذا يريدون بإعراضهم؟ هل يريدون ديناً أفضل من الإسلام؟

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾

والدين: هو نظام الحياة. وكل من يختار نظاماً للحياة غير نظام الله فقد اختار ديناً غير دين الله. مثلاً: في المجال الاقتصادي نستطيع أن نطور ونتخذ من الوسائل بحسب الظروف المستجدة لكن بشرط أن لا ندخل شيئاً مما حرم

---

(١) سورة الصف: الآية ٦.

الله كالربا والرشوة. والإنسان له قدرة على مخالفة نظام الله، لكنه لا يقدر أن يغير العواقب الضارة التي تنتج عن مخالفته. فهو مثلاً يستطيع أن يشرب الخمر. . لكنه لا يستطيع أن ينجو من آثارها.

وذلك لأن دين الله يختلف عن النظام الذي يضعه البشر لأنه موضوع بحيث يناسب خصائص الإنسان وخصائص الكون. والله هو خالق الكون والبشر وهو وحده الذي يعلم الطريقة المثلى التي تصلح للإنسان وتسعده في دنياه قبل آخرته. . ولقد رأينا ماذا أنتجت الأفكار والمبادىء المغايرة لحكم الله. فالعنصرية في ألمانيا أنتجت حرباً عالمية. . وهي تنتج حتى الآن مأساة السود في جنوب أفريقيا وفي أمريكا. . ومبادىء القومية والرأسمالية والشيوعية تسمم حياة الإنسانية وإن كان لها مظهر براق خداع. . فأنى التفتّ رأيت الفساد وسفك الدماء. .

وقد لا تظهر النتائج بوضوح في الأفراد. . لكنها واضحة في المجتمعات. لأن النتائج في الدنيا جماعية وبحسب أعمال الأكثرية. . كذلك ينبغي أن لا تخدعنا النتائج العاجلة السريعة. . ولكن لنراقب النتائج البعيدة المدى: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة. ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾[1]. فقد يستمتع شارب الخمر أياماً. . لكنه يسقط بعد ذلك تحت وطأة المرض.

وفي هذا العصر برزت أهمية الأفكار وكيف أن الحياة كلها من آثار فكر الإنسان والعالم محتاج إلى المبدأ الأخلاقي الآن أكثر من أي يوم آخر. . لكنه يبحث عن المبدأ الأخلاقي السليم. . بعد أن فشلت مسيحية الباباوات ثم النظم البشرية في إنقاذ الفرد والمجتمع وإسعادهما. . . في مجال التربية مثلاً يأتي إبراهام ما سلو [فيضع الفلسفات التربوية المادية في موضع الدفاع ويدعو بصراحة إلى دخولها ميدان الدين والقيم. . ولكن ليس الدين والقيم التي انسلخت منها أوروبا في مطلع عصر النهضة وأدت إلى الشقاق بين الدين

(١) سورة الإنسان: الآية ٢٧.

والعلم. . وإنما دعا للبحث عن دين وقيم جديدة ذكر مواصفاتها في أبحاثه ولا يجد لها الباحث مثلاً إلا في الإسلام][1]. والمسلمون الآن كالرّجل الجائع يريد خبزاً. . ومعه جواهر لكنه لا يدرك قيمتها.

إن مشكلات العالم الآن لا يحلها إلا الإسلام. ولو وجد مسلمون يدركون قيمة الإسلام ويقومون ببيانه لتغيرت الحال.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

فأما الكون فلا قدرة له على الاختيار ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾[2]. وأما الإنسان فهو - والجن - الذي أعطي القدرة على أن يطيع أو لا يطيع. والذي اختار المعصية ولم يرد أن يستسلم لدين الله. . فإنه في جوانب كثيرة من جسمه وحياته خاضع لنظام الله رغماً عنه. بل إن بعض المجتمعات قد اضطرت إلى محاولة تحريم الخمر وحاربت المخدرات. . وربما تحرم الزنى والانحراف الجنسي. . لا حباً بشرع الله ولكن لتجنب عواقبها الوخيمة. . فهي ترجع إلى نظام الله مكرهة.

فما قيمة هؤلاء المعاندين المكابرين أمام الكون الخاضع لربه؟! وما مصير من يعاكس خط سير السماوات والأرض ومن فيها. .؟! إنه لا بد مسحوق. .

ويتوجه إلى الجميع آمراً بالإيمان بكل الأنبياء. . ويبدأ برسوله (ﷺ):

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ وذلك وفاء بالميثاق الذي أخذ على الأنبياء وأتباعهم: أن يصدقوا بالرسول ولا يفرقوا في الإيمان والتكريم بين رسول ورسول.

---

(١) صفحة ٤٨ من كتاب فلسفة التربية الإسلامية للدكتور ماجد عرسان الكيلاني.
(٢) سورة فصلت: الآية ١١

فالنبوة حركة واحدة لها بدء ولها نهاية ولا يعيب أولها آخرها ولا آخرها أولها. فهي حركة تقدم وتزكية للإنسان وأصلها التوحيد. كشأن الحركة العلمية. فكل عالم يعترف بفضل من سبقه من العلماء ويأخذ ما توصلوا إليه ويتابع البحث فيضيف أموراً جديدة. وهو يعلم أنه لولا جهود السابقين لما استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه. وأن الذين يأتون من بعده سيضيفون أموراً لم يتوصل إليها هو. وهكذا الأنبياء دعوا إلى أصل واحد: التوحيد.. وإن اختلفت شرائعهم ببعض فروعها بسبب اختلاف العصور والمصالح.. ولهذا نهى رسول الله (ﷺ) أتباعه أن يفضلوه على أحد من أنبياء الله ولا على يونس بن متى - وعيسى كان يقول عن محمد (ﷺ): [لأني لست أهلاً أن أحلّ رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله... الذي خلق قبلي وسيأتي بعدي][1].

وهذا الإيمان بالرسل دون تفريق هو ميزة كبيرة لمن يؤمنون بالقرآن. ففي الوقت الذي ينشأ النصراني على كراهية محمد (ﷺ) والحقد عليه ووصمه بالنقائص.. فإن من المدهش أن ترى المسلم يحمل تكريماً عظيماً لعيسى (عليه السلام) وأمه مريم. وهذا ما جعل اللورد هيدلي الذي أعلن إسلامه يقول: حين أسلمت لم أكفر بعيسى (عليه السلام) بل صرت مسيحياً أفضل. وبناء الفرد والمجتمع على هذه العقيدة يفتح جسوراً في التعامل والحوار بين الأمم. وقد اعترف المؤرخون بأسبقية المسلمين في التعامل الكريم مع أصحاب الديانات الأخرى.. ونبذ التعصب ضدهم.

﴿ونحن له مسلمون﴾ أي متخذين نظامَهُ أسلوباً لحياتنا. وحتى لا يظن أنه يكفي أن يقال: أنا مسلم.. بالكلام فحسب. ويوضح ذلك:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ فمن يترك نظام الله ويتخذ لنفسه نظاماً آخر فإنه لا يعتبر مسلماً.. ولن ينال القبول بهذا العمل..

---

(١) صفحة ٦٤ من إنجيل برنابا ترجمة خليل سعادة.

فإن الإسلام قول وعمل . . عقيدة ومنهاج حياة . وإن الله الذي أرسل جميع الأنبياء قد ختم النبوة والرسالة وقرر للناس منهاجاً نهائياً للحياة يمشون عليه . . وهو العليم الحكيم . . ونظامه الأخير هو الذي يصلح لحياة الإنسان والأمم عامة إلى يوم الدين . . وكل من يتجه إلى نظم أخرى . . فلن يقبل منه ولن ينجح في الدنيا . . بل سيسبب الفساد والدمار والشقاء لنفسه ومن حوله في هذه الحياة . إنه سيصطدم بالسنن . . ويتلقى عقوبة كونية من القوانين التي تتحكم بشؤون الحياة من حوله . . بل ستأتي العقوبة من نفسه التي بين جنبيه التي تفقد السعادة والأمان لأنها حرمت من كنف بارئها . . وأما في الآخرة :

﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٨٥)﴾ .

ويهدد الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه من أهل الكتاب ويقرر حرمانهم من الهداية :

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ وذلك أنهم كانوا مؤمنين بأنبيائهم فلما جاء محمد (ﷺ) كفروا به . . فكفروا بدينهم أيضاً لأن دينهم يأمرهم بالإيمان به وقد عرفوا أنه النبي .

﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٦)﴾ فمن عرف الحق ولم يتبعه كان ظالماً مغضوباً عليه . ومن العدل أن يحرم من هداية الله لأن طريق الهداية هو الطاعة ﴿إن تطيعوه تهتدوا﴾[1] .

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ تنصب عليهم اللعنات من كل مكان . ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨)﴾ فلا مجال للعفو أو تخفيف الحكم . . فحكم الله لا يقبل تمييزاً . ولا استئنافاً . . ولا يعطون مهلة أو أي فرصة . ويستثني الذين يتوجهون إلى الله بتوبة صادقة . . ويحثهم على التوبة قبل فوات الأوان : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)﴾ .

---

(١) سورة النور: الآية ٥٤.

والتوبة ليست مجرد كلام يجري على اللسان.. لكنها توبة مع أثرها الإيجابي: تعديل المسار وتصحيح الأخطاء الماضية. والآيات تشعرنا مباشرة بأن التلاعب بالتوبة يفقدها القبول عند الله.. فهناك توبة مرفوضة عند الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ فقد ضاعوا عن الطريق الصحيح وضاعت منهم فرصة التوبة: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾[1].

و«إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ»[2]. فإذا جاء الموت فلا توبة ولا فدية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ...﴾ «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك. قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك»[3].

وينبغي للمسلم أن يراجع نفسه أمام هذه الآيات.. هل هو بريء من كل جوانب الشرك؟ هل يلتزم شرع الله وحده؟ هل يلجأ إليه وحده راغباً وراهباً؟ وهل غايته من كل ما يفعل هي مرضاة الله؟ فإن الرياء من الشرك الخفي.. والرغبة في مدح الناس وثنائهم قد تصل إلى حد تحبط معه الأعمال.. وإن الذين يؤمنون بالآخرة لترتعد فرائصهم من ذكر هول هذا الموقف.. ﴿إنما

---

(١) راجع تفسير الآيات ١٧ و١٨ في كتاب من هدي سورة النساء. للكاتبة.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . . . ﴾[1].

وبعد هذه الآيات التي تصف موقف الكافر يوم القيامة . . يتحدث بالمقابل عن من يعيش للبر ويطلب الحصول عليه:

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ والبر جماع الخير. . ولا ينال إلا بالإنفاق مما تحب. والإنفاق يتعلق بغريزة التملك في الإنسان. . وقد عالجها القرآن بالتنظيم والتصعيد دون أن يحاول إلغاءها. . على طريقة القرآن في التعامل مع الغرائز. . لا يكبتها ولا يلغيها. . ولا يطلق لها العنان دون أي ضابط. وإنما يعترف بها وينظمها بالشكل الذي يحقق فوائد للفرد والمجتمع.

والتربية القرآنية تصعد بالإنسان درجة درجة حتى يصبح سيد غرائزه يتحكم فيها ولا تتحكم فيه. وفي مجال الإنفاق يرتقي بالإنسان عبر ثلاثة مراحل:

١ ـ الإنفاق من الفائض: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾[2].

٢ ـ الإنفاق مما تحب: ﴿وآتى المال على حبه ذوي القربى﴾[3].

٣ ـ الإيثار: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[4].

فالآية الآن تتحدث عن المرحلة الثانية. وتؤكد على علم الله بما تفعلون:

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ إشعاراً برقابة الله وعلمه بما تنفق من طيب أو خبيث. ولكي يحترس الإنسان من الرياء ولا يبتغي بنفقته إلا وجه الله . . . وكما نعلم فإن أول من تسعَّر بهم النار عالم وجواد وشهيد . . لأنهم كانوا يريدون بأعمالهم مدح الناس. كذلك فإن من يشعر بعلم الله الذي

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

(٤) سورة الحشر: الآية ٩.

لا يظلم مثقال ذرة. . فإنه لن يدع المعروف والإحسان لأن الناس لم تقابل معروفه بالمثل. . وإنما يريد من إحسانه وجه الله. . فلا يتزعزع أمام جحود الناس.

وما أن سمع الصحابة الآية حتى بادروا إلى بذل ما يحبون وتسابقوا إلى ذلك. فلقد كانوا يتلقون القرآن بعقولهم وقلوبهم وجوارحهم ويسارعون في طلب مرضاة الله وتنفيذ آياته في حياتهم العملية. . أسرع أبو طلحة (رضي الله عنه) فجعل بستانه (بيرحاء) لله. . وأسرع عمر (رضي الله عنه) يعرض سهمه في خيبر على رسول الله (ﷺ).

ونحن لا خير فينا إن لم تحركنا الآية للنظر في ما هو أحب إلينا من أموالنا كي ننفقه لله.

ومن الحجج التي كانوا يَتَمَلَّصون بها من الإيمان بمحمد (ﷺ) أنهم كانوا يقولون: كيف تقول: إن القرآن مصدق للتوراة ولم يأتِ فيه تحريم لما هو محرم عند بني إسرائيل؟

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ وهكذا يرد عليهم بأن الطعام كله كان حلالاً لهم ولكن إسرائيل - يعقوب - مرض فذكر أنه نذر لئن شفاه الله ليحرمن على نفسه لحوم الإبل وألبانها - وكان يحبها - فشفاه الله فحرم ذلك على نفسه واتبعه بنوه وقومه في ذلك. . من قبل أن يأتي موسى وتنزل عليه التوراة. وبعض المحرمات على بني إسرائيل حرمت عليهم عقاباً من الله لهم ﴿فبظلمٍ من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾[1].

والقرآن دعوة عامة لكل البشر فلا بد أن ينسخ الأمور الخاصة بقوم معينين ويضع قوانين عامة تناسب الجميع إلى يوم الدين.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ اتلوها لنعرف ما هي الأشياء المحرمة وهل حرمت عليكم لذاتها أم لعقوبة لكم. . .

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦٠.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾
إن الكـذب والافتراء والمكابرة هي صفات الظالمين . .

وقول الله هو الصدق. بينما هم يدَّعون أنهم على ملة إبراهيم. فيـدعوهم الله إلى اتباع إبراهيـم: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ وإبراهيم هو النبي الذي يحترمه أهل الكتاب ـ يهوداً ونصارى ـ والمسلمون. . وحتى المشركون كانوا يـدعون أنهم عـلى ملة إبراهيم. . والقـرآن يعلن بـراءة إبراهيم من المشركـين ويدعـو الجميع إلى اتبـاع إبـراهيم إن كـانـوا صادقين في احترامهم له.

وبمنـاسبـة ذكـر إبراهيم يتحـدث عن البيت الـذي بنـاه ومكـانتـه عنـد المسلمـين. وأنهم أمروا بالحـج إليـه. وكأنـه يستنكر عـلى اليهود مـوقفهم من تحويل القبلة إلى الكعبة. ولو كانوا عـلى ملة إبـراهيم لتـوجهوا إليهـا وحجوا إلى البيت.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قيل: إن بكة هـو اسم البيت والمسجد حـوله. . ومكـة هي اسم ما بقي من البلد. والله أعلم. وقد جعل الله هـذا الموضـع مباركـاً. إذ أن فيه بني أول بيت لعبادة الله. . . وهل إبراهيم هو أول من بنـاه؟ أم أنه بني قبـل ذلك بكثـير ثم ضل عنه الناس وعفا عليـه الزمن حتى لم يبق لـه أثر. . إلى أن أمـر إبراهيم ببنائه من جديد؟!

ليس لدينا دليل صحيح يدل على وجود البيت قبل إبراهيم. . ومع ذلـك فقد تكشف الأبحاث التـاريخية في المستقبـل شيئاً عن ذلـك. . فإني أتسـاءل ألم يحـاول الناس قبـل إبراهيم أن يبنـوا مسجداً لعبـادة الله ـ أو معبداً ـ ؟! وممـا لا شك فيه أن التوحيد كان موجوداً قبل إبراهيم. . فقد جاء به الأنبياء من قبل. . والمعـابد مـوجودة في الأمم والحضـارات القديمـة. . والقرآن يقـرر أن أول بيت وضـع لعبادة الله وحـده كان في مكـة. . ونحن حتى الآن لا نملك من العلم ما

نقرر به شيئاً حول هذا الأمر. . فالله أعلم. ويمكن أن يقال: إن الذي بناه إبراهيم هو أول بيت لعبادة الله. جُعِل للناس كافة.

المهم أن هذا المكان فيه بركة وهداية للعالمين. . وذلك حين يجتمع الناس من أمم شتى وألوان مختلفة يأتون من أنحاء الأرض ملبين لله يؤدون فريضة الله يرددون شعار التوحيد. . لم تجمعهم شهوات الدنيا ولا الرغبة في الاستمتاع بالمناظر الطبيعية واسترواح النسائم العليلة. . بل إنهم قد خلعوا كل مظاهر التنعم والاستمتاع، وكابدوا ليؤدوا مناسك الله ويطهروا نفوسهم من دنس الذنوب والمعاصي. .

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ فيه أدلة واضحة منها مقام إبراهيم: وهو الحجر الذي كان يقف عليه أثناء بناء الكعبة. ومن الأدلة عليه هذه المكانة وهذه الحرمة التي في نفوس الناس له. فلقد كان الرجل ـ حتى في الجاهلية ـ يرى قاتل أبيه في هذا المكان فلا يهيجه حتى يخرج منه.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ وهو أمر من الله لعباده أن يعظموا حرمة هذا البيت ويعطوا الأمن لكل من دخله. . إلا إذا كان يريد إثارة الفتن ومحاربة الله ورسوله. فالآية تأمر المسلمين بتأمين كل من دخل البيت. ولا تعني نفي إمكانية أن يعتدى على أحد فيه. . وإن مجيء الإسلام قد أنهى عصر المعجزات. . وكما يقول سيد قطب في كتابه (هذا الدين). إن الله جعل انتصار الإسلام يتحقق من خلال جهود أتباعه. . وإن هذا البيت إنما تصان حرمته بجهود المسلمين. . فإذا ضعف المسلمون وهانوا وتنازعوا فيما بينهم. . فإن كل شيء في عالمهم معرّض للدمار أو الضياع. . وقد حدث في التاريخ عدوان من القرامطة على البيت الحرام حتى سرقوا الحجر الأسود وقطعوا طريق الحجاج. وينبغي للمسلم أن يدرك أنه هو المسؤول عن ضياع مقدساته. . لا أن الله قد تكفل بحماية عالمه ـ برغم ضعفه وتردّيه ـ بطريقة سحرية غامضة.

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾ والتعبير في

الآية دقيق فقد فرض الله الحج على الناس جميعاً.. وقد أذن لهم إبراهيم بعد بنائه هذا البيت في الناس بالحج.. فلم لا يستجيب أهل الكتاب لأذان أبيهم إبراهيم الذي يدّعون اتّباعه..؟!

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٧) ﴾ فكأنَّ تَرْكَ الحج هو كفر.. ومن أنكر فريضة فقد كفر. يقول الرسول (ﷺ) «من ملك زاداً وراحلة ولم يحج بيت الله فلا يضره مات يهودياً أو نصرانياً». وذلك بأن الله قال: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾(١).

إن قراءة الآية وحدها في موضوع الحج.. تشعر القارىء بأهمية هذه الفريضة وشمولها للناس كافة.. وأن الله افترضها عليهم لمصلحتهم هم.. فهو غني عنهم ولن يزيدوا في ملكه شيئاً بحجهم.

ويختم الحديث عن أخطاء أهل الكتاب بالعتاب والاستنكار: لم تكفرون؟ لم تصدون؟

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) ﴾

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾.

هذه النداءات لا تخص اليهود والنصارى وحدهم.. بل إننا بحاجة إلى تدبرها ومواجهة أنفسنا بها. إن عملية الصد عن الإيمان.. وإبعاد الناس عن الخير تتم أحياناً على أيدي أناس طيبين ومتدينين في كثير من الأحيان.

إن العالم الإسلامي الآن يصدّ الناس عن سبيل الله لأنه يقدم صورة مشوهة متخلّفة تلبس لباس الإسلام..

وإن فقدان الأسلوب السليم في التربية والتوجيه يصد الأبناء عن

---

(١) رواه ابن مردويه وابن جرير.

الإسلام. وكم من الآباء نفَّروا أبناءهم من الـدين بأسلوبهم السيّيء في التـوجيه إلى الدين. والسكوت عن الحق يعتـبر نصرة للباطـل ودعماً للذين يصـدون عن سبيل الله . . .

وفي الآيـة إشـارة هـامـة إلى أن سبيـــل الله واضـح ومستقيم وسهـــل. . والخروج عنه هو الاعوجاج الذي يحدث الخلل ﴿تبغونها عوجاً﴾؟! تفعلون هذا وأنتم شهداء تعرفون الحق. . ومع ذلـك تصدون عنـه. . !! وستكونـون شهداء على أنفسكم في الآخرة.

الفصل الثالث

توجيهات للمؤمنين



يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ
إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ
رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٠١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٠٢) وَٱعۡتَصِمُواْ
بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ
فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٠٣) وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ
أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (١٠٥) يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا
كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ (١٠٧) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ
(١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (١٠٩) كُنتُمۡ
خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ
وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ
وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ

مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ
عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ
ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ
أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾
يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ
مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ
هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ
فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ
وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن
دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا
تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ
أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ
بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا
يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾

توجيهات للمؤمنين

بعد الحديث عن أخطاء أهل الكتاب يتوجّه إلى المؤمنين ويحذرهم من الانزلاق وراءهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ والحكم دقيق.. فإن فريقاً من أهل الكتاب هم الذين يريدون إضلالكم.. وليسوا كلهم. ويدخل في ذلك المستشرقون.. والمشرفون على عمليات الصراع الفكري في عالمنا.. وعموماً نستطيع أن نقول: إن احتكاكنا اليومي بأهل الكتاب قليل.. ومع ذلك فإن كل مؤمن لما يهمّ بتطبيق أمر من أوامر الله.. يكثر من حوله النصحاء ـ من المسلمين مع الأسف ـ ويحاولون رده عن طاعة الله متّخذين موقف الناصح الأمين..!! وإن الخبثاء يدركون أنهم لن يتمكنوا من السيطرة والاستغلال في عالمنا إلا إذا ابتعد هذا الشعب عن دينه وخلقه. ولهذا يحاولون عن طريق وسائل الإعلام أو الخبراء والمشرفين أن يتحكموا في برامج التوجيه والتربية والتعليم عندنا.

ولكن المؤمن الذي يعيش مع كتاب الله وسنة رسوله ثابت على دينه:

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾

وقبل قليل كانت الآيات تحدثنا عن الذين يكفرون بعد الإيمان وحرمانهم

من التوبة. فـاحذروا. والمسلم يملك مـرجعاً لـو تمسك بـه فلن يتمكن أحد من إضلاله.. ولئن فاز السابقون بصحبة رسول الله (ﷺ).. فإن المسلم الآن لديه كتـاب الله وسنة رسـوله مكتـوبـة ومحققـة.. وآيـات الآفـاق والأنفس تنكشف وتشهد للقرآن بأنه الحق.. فكيف تكفـرون؟! كيف تعصون أوامـر الله والقرآن يتـلى عليكم في البيـوت والمدارس وأجهـزة الإعـلام..؟! إن المعـاصي تتفشى بشكل عجيب في عالمنـا.. لأننا نقـرأ القرآن ولا يجـاوز حناجـرنا.. ونفتقـر إلى أسلوب التفكير والتوجيه السليم. ولو تمسكنا بديننـا وتوجهنـا إلى الله بإخـلاص لدفَعَنا هذا إلى نيل مزيد من الصواب الذي يهدينا إلى الصراط المستقيم ـ الذي يوصل إلى الهدف بأقل جهد ووقت ممكن ـ.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ فمـن رغب بالهداية فليعتصم بالله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

والتقـوى هي أن تفعـل مـا أمـر بـه الله ابتغـاء أجـره وتـترك مـا نهى عنـه الله خـوفاً من عقـابـه. والتقـوى عـلى درجـات بحسب مستـوى الإيمـان. فمنهم من يخاف الكبائر ويمتنع عنها. ولكن الدرجة المطلوبـة من التقوى هي التخـوّف من الصغائر والحرص على اجتنابها.

خـلّ الـذنـوب صغـيرهـا وكـبـيرهـا.. ذاك الـتـقـى
لا تَحْقـرنَّ صـغـيرة إن الجـبـال مـن الحصى

وإن الذين يتجرؤون عـلى المعصية لضعـاف الإيمان.. كـما يقول عنهم الله سبحانه.

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾[1] فلهذا تجرؤوا.

﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ يقول عبـد الله بن مسعود في معنـاها: [أن يـطاع

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩١.

فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر].

وروي عن أنس أنه قال: لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يَخْزَن لسانه.

وهي النصيحة التي قدمها رسول الله (ﷺ) لمعاذ «كفَّ عليك هذا» وأشار إلى لسانه[1]. ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ فإن الله لا يقبل من الإنسان ديناً إلا الإسلام. ومن يحرص على أن لا يموت إلا وهو مسلم فإنه يحرص على طاعة الله في كل وقت حتى لا يفاجئه الموت وهو على غير طاعة الله.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ والقرآن هو حبل الله المتين. ومن تهاون في التمسك بكتاب الله وقع في الفرقة والاختلاف. فالآية تبين أسباب التفرق والاختلاف في العالم الإسلامي.. فهي سنّة. ويذكرهم بنعمة تأليف القلوب:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ فلقد كان الأوس والخزرج في الجاهلية في حرب دائمة بسبب التنازع على مصالح الدنيا فلما دخلوا في الإسلام آخى بينهم وجمع بين قلوبهم.. ﴿وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم﴾[2]. والآية تدل بوضوح على **أن العقيدة هي الرباط الأساسي الذي تجتمع عليه الأمة.. وليست المصالح الاقتصادية المشتركة ولا الموقع الجغرافي الواحد ولا الانتساب إلى جنس أو قوم**.. ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم﴾ لأن الذين يريدون الدنيا يتقاتلون عليها. أما الذين يحبون الله ويطلبون رضاه فإنهم يتآخَوْن في سبيله.

ذكر ابن اسحق أن الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج وذلك أن رجلاً من اليهود مرَّ بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه، وأمره أن يجلس بينهم، ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٣.

بعاث وتلك الحروب ففعل. فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض، وتشاوروا ونادوا بشعارهم، وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة.. فبلغ ذلك النبي (ﷺ) فأتاهم فجعل يسكنهم، ويقول «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا.. وقد تكون الآية نزلت قبل ذلك فذكرهم رسول الله (ﷺ) بها. ولكن العبرة في القصة والآيات مستمرة... فأعداء الإسلام ما زالوا يستخدمون الأسلوب نفسه ـ وإن اختلفت الملابسات والتفاصيل ـ لتفريق وحدة المسلمين. وماذا أذكر من الأمثلة وتاريخنا المعاصر مليء بالمآسي في هذا المجال.. **ألم يكن الإنجليز هم أول من حرَّك أفكار القومية العربية في ثورة الشريف حسين ضدّ الأتراك حتى استطاعوا القضاء على الخلافة**، وحطموا وحدة العالم الإسلامي فتناثر شظايا متفرقة، ودويلات متنازعة.. واستمروا وغيرهم من أعداء الإسلام ـ في عملية إثارة النزاع والقتال بين الدول العربية بعد ذلك حتى أخذت فلسطين من أيدي المسلمين.. وفرّقوا لبنان.. ونجحوا حتى في الدخول بين المناضلين الفلسطينيين وإثارة المعارك بينهم.. ثم أججوا النار بين السنة والشيعة وأيقظوا بينهم أحقاد الماضي وآلامه؟ كل هذا يجري والمسلمون سادرون يُنفّذون الأدوار التي ترسم لهم ولا يدركون.. ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾[1]؟!

وفي زحمة هذه الفتن لم نسمع صوتاً واحداً يقوم وينادي: (أبدعوى الجاهلية وكتابُ الله وسنة رسوله بين أيديكم)؟!

إن الدول الكبرى تثبت للعالم ـ بمخططها ـ أن المسلمين سفهاء يهددون السلام العالمي ولا بد من التدخّل الأجنبي في بلادهم واقتصادهم لمنعهم وكفهم عن الإفساد.. فالدول الكبرى متحضرة ولا تسمح للبرابرة أن يهددوا سلامة النقل في الممرات المائية ونخوتها في هذا المجال ليست كنخوتها أمام الملايين التي

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٦.

تموت من الجوع والمرض!! فمتى نخرج من هـذه اللعبة الـدنيئة. . ؟! ومتى نعي خطورة الموقف؟!

﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ عـلى وشك الـتردي في نار الكفـر والتفرقة والاقتتال.

﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ والله أرحم بعباده من رحمة الأم بولدهـا . . ومن رحمته أنـه يبين لكم أسبـاب النجاة وسنن الخلاص في الدنيا والآخرة. . لعلكم تنتفعون وتهتدون.

ومن الشروط اللازمة لصيانة المجتمع وجود فئة من الدعاة العلماء. . إنهم مهندسو الصيانة للمجتمع، يقومون بمراقبة أحواله لتصحيح كـل خلل يحدث فيـه وإمداد الأجهزة والأفراد فيه بـالوقـود والطاقـة اللازمـة لإحراز التقـدم. . ولهذا يتوجه الله إلى المؤمنين آمراً إياهم بإيجاد هؤلاء المهندسين:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾

هل القصد: لتكن منكم طـائفة تقـوم بالـدعوة والأمـر والنهي ـ أي هـو فرض كفاية ـ أم أن المعنى: كونوا هذه الأمة التي تدعو إلى الخير. . ؟

والمعنيان مقبولان. . فالأمة تحتاج إلى عدد كافٍ من الدعـاة فيها ليحفـظوا لهـا توازنها وسـلامتها. والأمـة المسلمة يجب أن تحمـل الدعـوة والهدايـة لـلأمم الأخرى. المهم أن الآية تـبرز أهمية الـدعوة والأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر وتأمر الأمة المسلمة بالقيام بها. . ولقد وقف المفسرون أمام هذا الموضوع وأهميته ومنهم رشيد رضا رحمه الله الذي تأمل في الشروط التي يجب أن تتوفر في الداعي إلى الخير فذكر تسعة شروط:

١ ـ العلم بما يدعو إليه. (أي دراسة الإسلام وفهمه)

٢ ـ العلم بمفاهيم المدعوين وحالهم: القيام بعملية مسح لمفاهيم النـاس والفِرَق الموجودة.

٣ ـ علم التاريخ: فكرة عامة عن تاريخ الأمم ولا سيما التي سيمارس فيها الدعوة.

٤ ـ علم الجغرافيا: لمعرفة البلدان وما يجاورها ومصادر الثروة فيها..

٥ ـ علم النفس: كي يستعين به في التوجيه والتأثير.

٦ ـ علم الأخلاق.

٧ ـ علم السياسة: ما هي سياسة كل بلد؟

٨ ـ علم الاجتماع: قوانين النهضة والانهيار في الأمم.

٩ ـ علم اللغات: فلا بد أن يبلغ الدعوة بلغة الأمة.

والقيام بالدعوة إلى الخير يكون على درجات بنسبة المعرفة بهذه الأمور.

وتواجهنا أمام هذا الموضوع مواقف منها:

١ ـ من المسلمين من يقول: إن لم يستجيبوا لكلامي فما الفائدة؟

وينبَغي أن نعرف أننا سنسأل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولسنا مسؤولين عن إعراض الناس بعد ذلك: ﴿فذكر إنما أنت مُذَكِّر، لست عليهم بمسيطر﴾[١].

والناس تسيء فهم الآية: ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾[٢]. إذ أنك لا تكون مهتدياً إلا إذا قمت بما عليك من الدعوة والأمر والنهي.. وبعد ذلك لا يضرك إعراض الناس. طالما أنك أديت واجبك.

٢ ـ بعضهم يقول: إذا كانت الظروف تسمح بالأمر والنهي فعلنا.. أما إذا عَرّضنا ذلك للمخاطر.. فلا مجال لذلك. ويحتجون بالآية ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[٣]. ولا يدركون أن ترك الدعوة والأمر والنهي هو إلقاء بالنفس إلى التهلكة في الآخرة أولاً.. ثم في الدنيا.. فإن المجتمع إن توقف فيه

(١) سورة الغاشية: الآية ٢١.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٠٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٥.

تيار النقد والتصحيح كان مآله الانهيار. وإن القرآن يقرر في الآية التي نحن بصددها أن الذين يدعون إلى الخير ويأمرون وينهون ﴿أولئك هم المفلحون﴾ ولم يخصص ذلك بالآخرة.

٣ ـ ومنهم من يقول: لا أملك العلم الكافي لأداء هذا الدور. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ولكن المؤمن الحريص على أداء واجبه يسعى إلى تحصيل العلم الذي يعينه على ذلك.. ويحاول أن يؤدي واجبه ويجتهد ويبذل ما يستطيع.. ومن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم. صحيح أن الشروط التي ذكرها صاحب المنار قد تشعرنا باستصعاب الموضوع.. ولكن ينبغي أن ندرك أن الداعية يحتاج إلى مزيد من الاطلاع المستمر على جوانب المعرفة. وأن كل أنواع العلوم ضرورية ويمكن تسخيرها للدعوة إلى الخير.

٤ ـ فإذا كانت علة الفريق السابق هي الاستصعاب.. فإن فريقاً آخر يقع في الاستسهال.. ويقوم بالدعوة والأمر والنهي دون علم ولا رفق ولا صبر. [وهي الشروط التي ذكرها ابن تيمية للأمر بالمعروف: علم قبله ـ ورفق معه ـ وصبر بعده]. ولا يمكن القيام بهذا الواجب على وجهه إلا بالخروج من الاستصعاب والاستسهال ومعرفة الجهد اللازم للوصول إلى الهدف.

إن الآية تتعلق ببناء المجتمع المسلم وصيانته.. وهو الهدف الذي يسعى إليه كل من يهتم بالإسلام. لكن الوصول إلى هذا الهدف يقتضي منا الإلمام بسنّة بناء المجتمعات. صحيح أن المجتمعات تختلف باختلاف مثلها الأعلى. لكن سنة البناء واحدة.. فمن حيث البناء المادي لا بد من دراسة الهندسة المعمارية لكل من يريد أن يضع تصميم بناء.. سواء أكان مسجداً أم ملهى.

والآية تنص على إحدى السنن في بناء المجتمعات عامة.. والمجتمع الإسلامي خاصة. وتنسق علاقة إيجابية بين الفرد والمجتمع. فالفرد يتلقى المعارف الموجودة في المجتمع ويزيد عليها بجهوده فيستنكر الأخطاء الموجودة ويضيف علماً وخيراً جديدين. والمجتمع يتلقى الإنتاج الجديد فينشره ويعممه.

وهكذا يتقدم المجتمع في سيره على قدمين. . كلما خطا بإحداهما خطوة دعمتها الأخرى. .

وعملية الدعوة إلى الخير والأمر والنهي. . تقلل نسبة الجهل في المجتمع وبالتالي نسبة الإعراض. وهي عملية مستمرة لا تقف عند حد. . لأن تقدم العلم مستمر. . وإغواء الشيطان مستمر. . والمجتمعات البدائية وحدها هي الراكدة التي لا تتعرض للتغيير. ولا بد للمجتمع المتحضر من تغير وتقدم مستمرين. . يتمان بجهود الدعاة إلى الخير. .

صحيح أن المجتمع المسلم لا تتغير فيه أحكام الله. لكن تطور المعارف والوسائل يطور أسلوب التنفيذ لأحكام الله. . فتطور علم النفس يساعد في تحقيق تربية أمثل، وتطور علم الآفاق يساعد في إيجاد وسائل جديدة لنشر وتعميم الخير وتسخير الوسائل الجديدة للمعارف الجديدة في مجال الأنفس هو مثال على التطور الذي يحدث في مجال الدعوة إلى الخير ـ فمما لا شك فيه أن السنن لا تتغير ولكن قدرة الإنسان على استخدام السنن تتغير وتزداد نمواً. (مثل موضوع الرعد والصواعق فالذي تغير هو فهم الإنسان لها وقدرته على تلافي أخطارها).

كل هذا يفيد في إدراك أن بناء المجتمع لا يتم تلقائياً بل يحتاج إلى معرفة السنة وتسخيرها. وقد يقول قائل: إن الصحابة قد بنوا مجتمعهم ولم يدرسوا هذه العلوم؟! ولا بد أن نتأمل هنا عدة نقاط:

الذين يقولون هذا الكلام هل يقبلون في مجال الطب مثلاً أن نكتفي بما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم فلماذا يفرقون في الأخذ بين العلوم المادية والإنسانية؟!

٢ ـ إن الصحابة اهتموا بتحصيل العلوم المعاصرة لهم واستعملوا أساليب عصرهم. والمسلم مأمور ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾[1]. وقد فتحت

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

للناس مجالات من القوة لم تكن معروفة: قوة العلم ـ قوة التخطيط ـ قوة الدعاية والإعلام ـ قوة الاقتصاد ـ غزو الفضاء.

٣ ـ لم تكن العلوم الإنسانية متقدمة في عصر الصحابة فلم يكن الناس يعرفون قوانين صيانة المجتمع وحمايته. وهذا ما جعل المسلمين يفقدون خط الصعود في مجتمعهم بعد فترة قصيرة من تأسيسه.

قبل أن نترك الآية نتساءل: هل هناك فرق بين الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف؟ إن الأمر بالمعروف هو أكثر من الدعوة إلى الخير من حيث أنه يحتاج إلى قدرة على الإلزام. والفرق واضح بين الإلزام والالتزام.. فالالتزام صادر من داخل الإنسان لقناعته بالأمر. أما الإلزام فيأتي من الخارج بالمنع من القيام بالمنكر وفرض عقوبات عليه..

والمجتمع مؤلف من طائفتين:

١ ـ الذين ألزموا أنفسهم بالخير (الملتزمون).

٢ ـ والمُلزمون: الذين يُمنعون من الخروج عن الخير.

وأما الملتزمون فهم الطبقة الواعية التي تقوم بإلزام الآخرين.. لكن واجبهم لا يقف عند حد الإلزام.. بل لا بد من التعليم والدعوة إلى الخير حتى يتحول الإلزام إلى التزام من النفس.. ونحن بحاجة إلى الدعوة قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبعده أيضاً لتثبيت النفوس على الخير.. وفي مثال السفينة الذي ذكره الرسول (ﷺ) لبيان أهمية النهي عن المنكر والأخذ على أيدي المفسدين.. من الواضح أنه بعد منعهم والأخذ على أيديهم لا بد من البيان والتوضيح لأسباب المنع... وإلا تحول الأمر وأخذ طابع الاستبداد الذي يولد الثورة في نفوس الجاهلين.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾. مرة ثانية يؤكد على النهي عن التفرق والاختلاف. ويعقد بينهما رباطاً وثيقاً.

ولكن هل يمكن القضاء على كل اختلاف؟! وهل يمكن أن يكون الجميع

على رأي واحد؟! إن هذا غير ممكن مهما كان الحق بيناً واضحاً. . ثم إن هناك من يترك الحق ولو تبين له ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾[1] وإن كانوا قلة لا يؤبه لهم. ولهذا فأول ما ينبغي أن نهتم به هو الدعوة إلى الحق والبيان. . فكلما كان المجتمع بصيراً وواعياً تناقصت فيه نسبة المعرضين عن الحق. . وقل الاختلاف.

والأمر الثاني: هو أن الاختلاف في الأمور الأساسية هو غير الاختلاف في الفرعيات. وهذا ما ذكره محمد عبده رحمه الله عند تفسيره الآية (في تفسير المنار) من أن الاختلاف قِسْمان: قسم في الأمور الأساسية وهذا يؤدي إلى مخالفة الآية. وقسم: اختلاف في الفهم والرأي. . ويأتي بمثال فيقول (باختصار): هذا الدرس الذي أقوم به في الأزهر. . كثيرون يختلفون معي في الرأي في كونه غير مفيد وغير مجدٍ. لأن الذين يحضرون قلّة والذين يفهمون أقل والذين يطبقون أقل وأقل. . بينما أشعر أنا بضرورته. . وهذا الاختلاف بيننا لا يجعل منهم أعدائي. .

إن تمسكنا بالأمور الواضحة الهامة يزيل الأثر السيّىء الذي ينتج عن الاختلاف في القضايا البسيطة. . وإن فهمنا لأهمية الاتفاق وعدم التنازع يمكن أن يجعلنا نتجاوز بعض نقاط الخلاف برحابة صدر. . ولا خوف من الاختلاف الذي لا يؤدي إلى تفرقة وتباغض لوجود أدب الاختلاف والحوار.

وهذا الاختلاف الذي لا ضرر منه ـ ولا بد منه ـ لا يكون في البيّنات التي وضحها الله ورسوله (ﷺ) من حلال أو حرام. أما الذين يختلفون بعد مجيء البينات فهؤلاء الذين يهددهم الله بالعذاب العظيم. . في ذلك اليوم العصيب:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ . . . ﴾

من الخزي والخوف من عواقب ما جنت أيديهم. . هؤلاء يفاجئهم بالتأنيب

---

(١) سورة النمل: الآية ١٤.

بأسلوب بليغ:

﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ؟!﴾ إنهم حين اختلفوا وتفرقوا قد ارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾. وفي المقابل فإن الذين ابيضّت وجوههم وأنارت بالإيمان والطاعات.. فأولئك الذين يستحقون رحمة الله:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) ﴾

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾

هذه التوجيهات هي أدلة ترشد إلى الخط السليم.. وبراهين على أن الكتاب حق من عند الله. فكل أمر له عاقبته الملموسة في حياتكم:

فالاعتصام بحبل الله يؤدي إلى التآلف والأخوة بين المؤمنين.

والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نتيجتها ﴿أولئك هم المفلحون﴾.

والاختلاف في الأمور البينات يؤدي إلى التفرق ثم إلى العذاب الأليم وسواد الوجوه فتلك هي آيات الله.. من تأملها اهتدى إلى الحق وسخر السنن لمصلحته.

﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) ﴾ وإن الذين يقولون عندما يخطئون: (هذه إرادة الله) ينسبون الظلم إلى الله... وكل من لا يراجع نفسه عند الفشل ويرد الأمر إلى قضاء الله فقط... فإنما ينسب الظلم إلى الله سبحانه وتعالى عما يقولون ويظنون.

وهذا ناتج عن الجهل بآيات الله وسننه.. وهي أيضاً عملية دفاع عن الذات وتملص من المسؤولية.. والله قد بيّن لنا الأعمال ونتائجها.. فالسنن من الله والنتائج على الله ولكن الأسباب يقوم بها الإنسان. والتسخير هو دور الإنسان ومسؤوليته.. والله لا يريد الظلم.. وقد حرم الظلم على نفسه..

وأنزل شريعته على الأرض ليمنع الناس من الظلم.

هذه التوجيهات ممن خلق السموات والأرض وله ملك السموات والأرض:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ فهو المرجع الحق في كل شيء.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ بالتزامكم هذه التوجيهات.. ويمكن أن تكونوا في كل زمان لو قمتم بتحقيق الشروط المطلوبة في خير أمة:

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وهكذا يصبح موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمراً ضخماً لأن له نتائج خطيرة.. فهو الذي يرفع الأمة إلى القمة.

والمعروف: ما تعارف الناس على فضله.. وهناك معروف خاص تعارف عليه أهل القرآن وهو ما أمر به الله. ولا يمكن الأمر بالمعروف إلا بعد معرفته.

والحديث الذي يأمر الرسول (ﷺ) فيه بتغيير المنكر يذكر ثلاث مراحل متدرجة حسب الاستطاعة. أعلاها أن تغير بيدك وأدناها أن تنكر بقلبك.

والإنكار في القلب يمثل مرحلة المعرفة للمنكر والمعروف. وهي الحد الأدنى من الإيمان وليس بعد ذلك إيمان.

والإنكار باللسان: هي مرحلة التعليم وهذا يحتاج إلى معرفة وحكمة ورفق وصبر.

والإنكار باليد: هو التغيير الفعلي وإلزام الآخرين بالموضوع.

وإن مراحل الإنكار الثلاث مرتبة ترتيباً منطقياً بحيث أن كل مرحلة تحتاج إلى التي قبلها.

وبعض العلماء يقصر التغيير باليد على أصحاب السلطان.. ولكن

﴿كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته﴾[1]. فكل واحد منا له دائرة معينة يستطيع فيها أن يمارس التغيير الفعلي وينكر بقلبه ولسانه ويده. وإن من يفعل ما بوسعه يتوصل بعد ذلك إلى الاقتدار في مجالات لم تكن له قدرة فيها. ومن المؤسف أن المسلمين يهملون القيام بواجبهم في الدائرة التي يملكون فيها السلطان والتأثير ويعلقون الآمال على التغيير في القمة.. وهم بالطبع لا يقدرون على ذلك.. لا لأنهم لا يملكون القوة التي توصلهم إلى القمة.. بل لأنهم يخالفون السنّة في التغيير. فإن القمة لا تتغير حتى تتغير القواعد ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2]. وكل عمل يأتي نتيجة لما قبله وسبباً لما يأتي من بعده.

وابن تيمية له تأملات جيدة في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبق أن أشرت إلى بعضها في تفسير الآية ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك﴾[3]، ويقول: إن رسالة الرسول هي أكمل رسالة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وأمته خير أمة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.. فكيف حصلوا على هذا الكمال كماً وكيفاً؟ لإكمالهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كماً: (أي بكل معروف ولكل أحد) وكيفاً: (أي بفقه وحكمة ورفق وصبر). وهذا ما ميزهم عن سائر الأمم. فجهاد بني إسرائيل لم يكن لرفع الظلم عن الناس جميعاً وإنما لدفع العدوان عن أنفسهم. بينما الأمة المسلمة تجاهد بالمال والنفس لرفع الظلم عن البشر ولو كان في أقصى الأرض.

كذلك ينبغي النظر إذا كان الأمر والنهي لتحصيل مصلحة أو دفع ضرر.. فتوزن المصلحة التي ستحدث هل هي أكبر من الضرر فيما لو ترك الأمر والنهي؟!

وذلك أمر يحتاج إلى استنفار الذهن وإعمال الفكر حتى نضع الأمور في مواضعها.

---

(١) متفق عليه.

(٢) يحسن الرجوع إلى كتاب حتى يغيروا ما بأنفسهم للأستاذ جودت سعيد.

(٣) سورة لقمان: الآية ١٧.

ولنا أن نلاحظ في عالمنا أن المشكلة تبدو في عجز الناس عن تنفيذ المعروف وإيقاف المنكر ولو تعارف الناس واتفقوا على الإنكار.. كما يحدث مثلاً في القرارات التي تصدرها الأمم المتحدة.. فلماذا؟!

أشعر أن الموضوع يحتاج إلى شروط أخرى كي يحدث التغيير.. ولعل الآية هنا تشير إلى أحد هذه الشروط ﴿وتؤمنون بالله﴾.. فإن مستوى الإيمان بالله هو الذي يعطي للقضايا ثقلها.. ويدفع الإنسان إلى العمل بما يقول. فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل. وهذا الإيمان الذي يدفع إلى تحقق الخير في الأرض هو الذي فقده أهل الكتاب:

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ فإن الأمة التي تتخلى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفقد إيمانها. وإن الأمة التي لا تعمم الخير بأن تأمر بكل معروف ولكل إنسان.. تحصر العلم وتحد من انتشاره وهذا ما يؤدي إلى غلبة تيار الفسق ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

وقد سبق أن قلت: إن أهل الكتاب قد اقتصروا في إقامة العدل على أنفسهم بينما على المسلمين أن يسعوا إلى رفع الظلم في أي مكان من العالم.

إن الإسلام يتجاوز القبلية والقومية ويرفع المسلمين إلى مستوى العالمية.. وهو ارتقاء كبير في العلاقات البشرية. وهو التيار الذي يخلص الأكثرية من الجهل والفسق.. ويحقق السلامة للكوكب الأرضي.

والقرآن مع إنصافه للأقلية المؤمنة فيهم يقرر ضعف المجتمع الذي يتغلب فيه تيار الفسق.. لأن العلم فيه محصور في أقلية لا تكفي لإعطاء القوة والتماسك. ولهذا يطمئن المجتمع المؤمن:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

قد يؤذونكم قليلاً.. لكن لن يتمكنوا من إلحاق الضرر بكم ومصيرهم الهزيمة. والناظر في الأوضاع الراهنة يرى الصورة مقلوبة.. فنحن الذين

لا نضرهم إلا أذى لأنهم صاروا أكثر منا نشراً للعلوم والمعارف وأكثر منا إصلاحاً وعمارة للأرض. مع تعادل الأهداف بيننا وبينهم. وحين تكون الأهداف متعادلة ينتصر صاحب الدقة والتنظيم.. الذي استطاع أن يُسَخِّر أكثر..

والمسلمون يرون النتائج ولا يبحثون عن الأسباب.. ويتمنون الوصول إلى النتائج مباشرة دون تعب ولا جهد. ولكن أي هدف ـ مهما كان قريباً ـ فإنك لن تصل إليه إلا بالحركة وبذل الجهد. والحركة تنتج عن دوافع.. كالتي تحدث عنها الأستاذ جودت سعيد في كتابة الإنسان.. وأهمها:

١ ـ الرغبة والرهبة.
٢ ـ الاقتناع بأن عمل الإنسان هو الذي يغير.
٣ ـ وجود المبرر: الشعور بأنك تملك شيئاً العالم محتاج إليه.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

والذلة: عدوان من الخارج يذلهم.. ويرافقهم أينما كانوا.. إلا بحبل من الله أي الدخول في عهد الله: إما عهد الذمة ـ أو التمسك بأمر الله.

أو حبل من الناس: أي الدخول في معاهدات مع الدول الأخرى. ومن المعروف أن إسرائيل تستمد قوتها الآن من الدول الاستعمارية. وهذا من ضرب الذلة عليهم.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾

والمسكنة: ضعف نابع من داخل النفس. (وهو المرض الذي سماه القرآن: الاستضعاف) ولهذا فإن الاحتلال العسكري للأمة التي لا تتصف بالمسكنة عارض لا يدوم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: [يكشف القرآن عن سبب هذا القدر المكتوب على يهود. فإذا هو سبب عام يمكن أن تنطبق آثاره على كل قوم مهما

تكن دعواهم في الدين: إنه المعصية والاعتداء: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ فالكفر بآيات الله ـ سواء أكان بإنكارها أصلاً أم بعدم الاحتكام إليها وتنفيذها في واقع الحياة ـ وقتل الأنبياء بغير حق. وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ـ كما جاء في آية أخرى في السورة ـ والعصيان والاعتداء هذه هي المؤهلات لغضب الله وللهزيمة والذلة والمسكنة... وهذه هي المؤهلات التي تتوافر اليوم في البقايا الشاردة في الأرض من ذراري المسلمين.. الذين يسمون أنفسهم ـ بغير حق ـ مسلمين. هذه هي المؤهلات التي يتقدمون بها إلى ربهم اليوم. فينالون عليها كل ما كتبه الله على اليهود من الهزيمة والذلة والمسكنة. فإذا قال أحد منهم: لماذا نُغْلَبُ في الأرض ونحن مسلمون؟ فلينظر قبل أن يقولها ما هو الإسلام؟! ومن هم المسلمون؟!][1].

ويعود السياق إلى إنصاف الفئة المؤمنة من أهل الكتاب ويذكر أوصافهم:

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

هؤلاء الذين يستثنيهم الله سبحانه من أهل الكتاب سواءً أكانوا في عصر محمد (ﷺ) أم قبله أم بعده.. فإنهم طائفة مؤمنة تقرأ آيات الله في الكتاب وفي الآفاق والأنفس.. وهم خاضعون لأمر الله ساجدون لعظمته.. والآية تشير إلى تلاوة الآيات في أطراف الليل.. والتعبد والسجود فيه.. وكأن هذه الصفة هي التي تعطي الشحنة للإيمان بالله واليوم الآخر وتدفع إلى الأمر والنهي والمسارعة في الخير. والقارىء يحس بأن الترتيب مقصود في عرض الصفات:

١ ـ تلاوة الآيات: التفكر والتدبر والتعلم للآيات والسنن.

٢ ـ العبادة والسجود في الليل.

---

(١) صفحة ٤٥٠ من المجلد الأول. في ظلال القرآن. للأستاذ سيد قطب، رحمه الله.

٣ ـ الإيمان بالله واليوم الآخر.

٤ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ ـ المسارعة في تحقيق الخير فلا يؤجل ولا ينتظر حتى يتقدم الناس وعندها يتحسن هو.

فالصفات الثلاث الأولى تحقق التغيير النفسي وهو الذي يؤدي إلى التغيير الأخلاقي والسلوكي ـ الذي أشارت إليه الصفتان الأخيرتان.

وللمرة الثالثة في هذا المقطع يؤكد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . فاعتبروا يا أولي الأبصار. . فإن الأمر جد خطير في حياة الأمم. وإن البناء الذي لا يتعرض لرقابة أجهزة الصيانة يوشك أن ينهار. .

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾
ولن يضيع جهودهم وعملهم فهو عليهم بهم عادل في عطائه لهم لا يجحد إحسانهم.

ويلتفت إلى المؤمنين ليثبت أقدامهم على الحق فلا يتزعزعوا إن أقبلت الدنيا على الكافرين بعض الوقت. . فإن هذا لن يعفيهم من عقاب الله. .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

نستطيع أن نقول بتعبير العصر: إن القصد من (أموالهم): القوة الاقتصادية.

ومن (أولادهم): القوة العسكرية العددية.

والمقاييس الجاهلية تعتبر قوة الأمة وتقدمها مرتبط بالقوة الاقتصادية والعسكرية. **لكن ذلك وحده لا يكفي لتحقيق التقدم الإنساني**. . ولقد قالت الأمم في الماضي لرسلها: ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾[1].

---

(١) سورة سبأ: الآية ٣٥.

ورد الله على بعضهم ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عند الله زلفى﴾[1].

إن التقدم الأخلاقي هو الذي يحدد المسار السليم للجانبين الاقتصادي والعسكري، فإذا انحطت القيم في الأمة تحول الجانبان الاقتصادي والعسكري إلى مصدر بلاء للبشرية. وليس معنى ذلك أن الإسلام ينفي أهمية هذين الجانبين.. بل إن القرآن يوجه الاهتمام إلى الجانب الأخلاقي الفكري لأن الإنسان غالباً ما يغفل عن أهميته.. بينما بطبيعته يدرك مكانة القوة المادية والاقتصادية.

إن الدولة الصالحة كالأسرة الصالحة لا تقيَّم بمقدار غناها.. وإنما بقر ما يكون التعامل فيها على أساس إنساني وأخلاقي. ومما لا شك فيه أن سنة الحياة ونظامها مبنيان على الأموال والأولاد.. ولكن المثل الأعلى الذي يوجه الأموال والأولاد هو الأهم، ولهذا حذر القرآن من فتنة المال والولد: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾[2]. ﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا﴾[3].

والآية هنا تشير إلى نتائج الآخرة ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لأنها غائبة عن عيوننا.. ولكن النتائج الدّنيوية ظاهرة للعيان يراها كل من له بصيرة.. فالحروب العالمية والاستعمار وكوارث الإشعاع.. كلها حدثت بسبب التضخم في الجانبين الاقتصادي والعسكري وسوء توجيههما.. ولهذا تضرب الآية لهم مثلاً: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ كالريح الشديدة البرودة أصابت زرعاً غضاً طرياً فأحرقته كما تحرق النار.. فهو مثل للكفار ينفقون من الأولاد والأموال فيما يظنون أنه يحقق لهم مصالحهم.. لكن النتيجة تأتي بالعكس فيخربون بيوتهم بأيديهم..

---

(١) سورة سبأ: الآية ٣٧.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٨.

(٣) سورة الفتح: الآية ١١.

إن تخصيص المبالغ الطائلة في أمريكا اليوم.. لتطوير الأسلحة الذرية وحرب النجوم أصبح يؤثر على قيمة العملة ومستوى الاقتصاد.. هذا عدا عن مخاطر الإشعاع وتلوث البيئة.. والدفع العالمي إلى السباق في التسلح وتكريس الأموال والأولاد في هذا المجال.. برغم تفشي الجوع والجهل والمرض في العالم.

إن الدول الكبرى حتى الآن تتشبث بموقف صاحب الجنتين: ﴿أنا أكثر منك مالاً وولداً﴾ والعالم الإسلامي الآن أضعف من خوض الحوار الأخلاقي معها: ﴿إن ترنِ أنا أقل منك مالاً وولداً. فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً. أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً...﴾[1]. لأن العالم الإسلامي الآن كاد يفتن بمنطق القوة المادية.. وغفل عن المثل الأعلى.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

فالخسارة أصابت ﴿حرث قوم ظلموا أنفسهم﴾.. ويؤكد الله على ظلمهم لأنفسهم... وينفي أن يكون الله هو الذي ظلمهم...

ومرة ثانية أقول: إن الذين يواجهون المصائب والفشل بقولهم: هذه إرادة الله.. فإنهم ينسبون الظلم إلى الله.. فإن الله قد وضع للحياة سنناً وبين للإنسان في القرآن أسباب النجاة والفلاح.. فمن أهملها لا بد أن يحصل على عواقب إهماله ومن خالف سنن الله فهو الذي يصنع المصائب والفشل لنفسه.. وما ظلمهم الله.. ولكن أنفسهم يظلمون.

والقرآن هو أول كتاب يتحدث عن ظلم الإنسان لنفسه ويركز عليه.. بينما نحن نتحدث دائماً عن ظلم الآخرين لنا.. وهذا ما يجعلنا عاجزين عن تحقيق النجاح لأننا نربط مصيرنا بإرادة الآخرين وأعمالهم. ولا نواجه أنفسنا لكشف الأخطاء والعيوب التي تؤدي إلى الفشل في أعمالنا..

إن القرآن يعلمنا مواجهة الذات ويدربنا على النقد الذاتي كي نخرج من

(١) سورة الكهف: الآية ٣٩.

دوامة التنصل من المسؤولية والتعليق على مشجب الآخرين. فإن الشيطان لا يملك أن يؤثر فينا إلا إذا استسلمنا له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾.

التوجيه الآن يتضمن النهي عن موالاة المنافقين بأسلوب يشعر بمدى خطورة الأمر.. فالمجتمع كالجسم - وقد ورد هذا التشبيه على لسان النبي (ﷺ) - والبطانة هي القماش الذي يوضع تحت الثوب فيلامس الجسم مباشرة..

فالبطانة هم الذين يوضعون في مركز خاص يطلعون منه على بطائن الأمور وخوافيها. فلا تتخذوا بطانة من دونكم أي من غيركم يختلفون عنكم في المثل الأعلى. إذ أنهم لا يمكن أن يخلصوا لكم ولمثلهم الأعلى في وقت واحد.

فالمجتمع المسلم منظم وينبغي أن يوضع فيه كل فرد في مكانه المناسب.. فهو ينسق الأمكنة والارتباطات بين أفراد يحملون قناعات مشتركة ومثل أعلى واحد. ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ والخبال هو الفساد والاضطراب في العقل. فهؤلاء إن تسلموا مراكز حساسة فإنهم لن يقصروا في إفساد أموركم وبث الاضطراب في عقولكم. فكيف إذا وضع أناس لا يحبون الإسلام في مراكز التوجيه، كلفوا بوضع برامج التعليم ووسائل الإعلام..؟!

﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ يحرصون على الشيء الذي فيه مشقة لكم.

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ من فلتات لسانهم وابتسامة السخرية أو التشفي بكم لو نزل بكم أذى. ولا بد أن يظهر في وجوههم أثر هذه البغضاء. ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ فصدورهم مليئة بالحقد مطوية على البغضاء لكم.

وفي هذا العصر أصبح التجسس فناً ذا وزن وخطر شديدين. وبقدر ما تكون الأمة جاهلة وغافلة بقدر ما يتمكن الجواسيس من الوصول إلى صميمها.

والقرآن يأمر المجتمع المسلم أن يمتحن إيمان الأفراد العاديين الذين يريدون الانضمام إليه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾[1]. صحيح أن الله أعلم بإيمانهن.. ولكن الإنسان له نظرة وفراسة.. والمؤمن كيِّس فطن ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾[2]. يدرك من أسلوب الكلام وسقطات اللسان.. ومن نظرات العيون وتعابير الوجه ﴿سيماهم في وجوههم﴾[3]. والآن أضيفت للإنسان قدرات أخرى لكشف دخائل النفوس وصنع له العلم أجهزة لكشف الكذب.

المهم في الأمر أن نتنبّه إلى خطورة الموالاة.. فإذا كان الاهتمام بهذا الشكل من أجل امرأة عادية تريد أن تنضم إلى المجتمع المسلم.. فلا يسمح لها حتى يمتحن إيمانها.. فكيف ينبغي أن يكون الحرص في امتحان الأفراد الذين سيتولّون المراكز الحساسة في الأمة؟! ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ﴾

فإن هذا الأمر يحتاج إلى إعمال الفكر وتشغيل العقل.. فبالاهتمام والحذر يصان المجتمع. ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ والمؤمن بطبيعته يميل إلى المعاملة الطيبة مع الجميع.. ويحب الخير والهداية للجميع. بينما هؤلاء أفراد لا يملكون الصفاء والإخلاص في قلوبهم.. وإنما يَحِنُّون إلى مجتمع آخر جاهلي لهم فيه وجاهات.. ويظهر أثرهم عند المحن.. فلقد تمكن عبد الله بن أبيّ من أن يقنع ثلث جيش المسلمين ـ في أحد ـ بالرجوع وعدم الاشتراك في المعركة.

فهل تضمنت الآية نهياً عن محبة الناس جميعاً...؟

مما لا شك فيه أن حب المؤمن لأخيه المؤمن هو أقوى من حبه لأي إنسان

---

(١) سورة الممتحنة. الآية ١٠، ومراجعة السورة كلها مفيدة في تحديد معنى الموالاة.

(٢) سورة محمد: الآية ٣٠.

(٣) سورة الفتح: الآية ٢٩.

آخر. ولكن لا بد من توافر حد أدنى من الحب والرحمة للناس جميعاً حتى تستطيع أن تسعى لهدايتهم وإنقاذهم.. ولا يخدم الدعوة شيء بقدر الحب. ولهذا يقول الله: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[1]. ومحمد (ﷺ) انتصر على نفوس أعدائه بالحب.. حاصر ثقيفاً ولم تفتح له.. وتعب المسلمون حتى قالوا: يا رسول الله ادع عليهم.. فقال (ﷺ): «اللهم اهدِ ثقيفاً»[2]... وكان يأتيه الرجل من المشركين وقد تآمر على قتله.. فيبتسم الرسول (ﷺ) ويضع يده الشريفة على صدر الرجل ويدعو له...

من أجل ذلك قال عيسى ـ عليه السلام ـ (أحبوا أعداءكم وصلّوا من أجل الذين يلعنونكم) فمن الواضح أنك لا تستطيع أن تقدم دعوة الله التي جوهرها المحبة والرحمة إلا إذا كنت تحمل الحب والرحمة في قلبك للناس كافة. وهذا لا يعني موالاة الكافرين.. فإن الموالاة ثقة وتناصر وإفضاء بأسرار المسلمين واستعانة على حل مشكلاتهم. ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ وهم لا يؤمنون إلا بما عندهم من الكتب.

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ.. قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ وينبغي للمؤمن أن يكون صريحاً معهم في المواقف التي تفضح نفاقهم ودخائل نفوسهم.. ثم إن الآية فيها إشارة هامة ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ إن هذا الغيظ الذي يحملونه في قلوبهم سيكون سبباً في موتهم.. إن الحقد والغيظ سموم تقتل القلوب وتحرق الأعصاب. إنها النار التي تأكل القلوب والأجسام في الدنيا.. قبل نار الآخرة. وما رزق الإنسان نعمة أعظم من القلب السليم الذي لا يداخله حقد ولا حسد.. إنها العافية من كل الضغائن المنغصة. ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٢) رواه الترمذي وقال حسن غريب.

تَسُؤْهُمْ﴾ إن مجرد مس الحسنة البسيطة لكم يزعجهم . . .

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ مهما كانت كبيرة وأصابت وتمكنت. فإنهم يفرحون بها. . هؤلاء فقدوا رحمة الإنسان. . مسخت إنسانيتهم حتى أنهم يفرحون ويشعرون بالتشفي عند نزول المصائب على المؤمنين ـ فالإنسان السوي لا يمكن إلا أن يتألم لوقوع المصائب. . حتى ولو على من هم على غير دينه.

﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ فالاعتصام من كيدهم مرهون بما عندكم من صبر وتقوى. . الصبر على ما تواجهون من أذى. . والصبر على أمر الله والتزامه. . والتقوى: فعل ما أمر الله به رجاء ثوابه وترك ما نهى عنه خوف عقابه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ فأدوا ما عليكم واتركوا الأمر لله فلن يفلتوا من عقابه.



الفصل الرابع

غزوة أحد

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٞ
فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ
لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوْعِظَةٞ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ
ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٞ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ
قَرْحٞ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ
ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا
رَسُولٞ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ
وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـٔٗاۚ وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ
﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأٓخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِي
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا
كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا

وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن
تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟
خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى
فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ
صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ
مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ
صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ
لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ
طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ
يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا
قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ
مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ

عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا
ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا
ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ
ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن
قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ
﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ
لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ
وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن
يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا
غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ
ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾
هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ
عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى

ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟
قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ
يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ
فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ
ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ
مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ
لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟
حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ
يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا
يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا
يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ
بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ
ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ
مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

غَزوَة أُحد

قبل أن نتناول الآيات لا بد أن نأخذ فكرة عن الأحداث التي نـزلت فيها هـذه الآيات ونـرجع إلى السـيرة لنعيش مع الـظروف التي أحـاطت بـالمسلمـين عندها.

لمحة تاريخية عن الغزوة:

ومرجعنا في ذلك تاريخ «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير الدمشقي.

من المعروف أن أول غزوة بـين المسلمين والكفـار هي غزوة بـدر وستشير إليها الآيات أثناء الحديث عن أحد.. وكانت بـدر في السنة الثـانية للهجـرة.. وأما غزوة أُحُد فكانت في السنـة الثالثـة.. وقد حـدثت بين الغـزوتين أحـداث بسيطة منها:

١ ـ **غـزوة السويق**: في السنـة الثانيـة من الهجرة. وذلـك أن أبا سفيـان حين رجع فـلُّ قريش من بـدر نذر أن لا يمس رأسـه ماء من جنـابة حتى يغـزو محمداً (ﷺ). وخرج في مائتي راكب من قريش حتى نـزل قرب المـدينة. فبعث رجالاً من قريش فـأغاروا عـلى ناحيـة العريض فحـرقوا نخـلاً وقتلوا رجلين.. وانصرفـوا راجعين.. فخـرج رسول الله (ﷺ) في طلبهم فلم يـدركهم، ووجد

المسلمون أزواداً كثيرة قد ألقاها المشركون يتخففون منها وعامتها سويق.

٢ ـ **غزوة بني قينقاع**: في السنة الثالثة للهجرة، وكانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأُحُد. وسبب المعركة أن امرأة من المسلمين جلست إلى صائغ منهم.. فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصّائغ فقتله ـ فشدت اليهود عليه فقتلوه. فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود.. فوقع الشر بينهم.. فحاصرهم رسول الله (ﷺ) حتى نزلوا على حكمه.. فألح عبد الله بن أبيّ بن سلول في الشفاعة لهم وكانوا حلفاء للخزرج.. حتى قال له النبي (ﷺ): هم لك. بينما مشى عبادة بن الصامت إلى الرسول (ﷺ) فتبرأ من حلفهم وولايتهم.

وأما عن خروج المشركين إلى أُحد فقد اجتمع نفر من قريش منهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وطلبوا تخصيص المال الذي نجا في قافلة ما قبل يوم بدر مع أبي سفيان لتجهيز جيش لقتال المسلمين. وذكر أن الآية نزلت فيهم: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسنفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾.

فاجتمعت قريش بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة. وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا. وهنَّ ثمانية: هند زوجة أبي سفيان وأم حكيم زوجة عكرمة ـ وفاطمة بنت الوليد مع زوجها الحارث بن هشام بن المغيرة.. وبرزة زوجة صفوان بن أمية ـ وريطة زوجة عمرو بن العاص ـ وسلافة مع أبنائها ـ وخناس بنت مالك أم مصعب بن عمير.. وعمرة بنت علقمة.

وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف منهم مائة فارس على رأسهم خالد بن الوليد على ميمنة الجيش. (وقيل بأنه كان معهم مائة أخرى على الميسرة بقيادة عكرمة بن أبي جهل) ووصل نبأ خروجهم إلى رسول الله (ﷺ) وكانوا قد وصلوا إلى بطن السبخة على شفير الوادي مقابل المدينة. فأَخْبَرَ المسلمين وقال لهم: رأيت

فيما يرى النائم كأني مردف كبشاً فأوّلته أني أقتل كبش القوم (وقد قتل طلحة صاحب لواء المشركين). . ورأيت كأني أدخل يدي في درع حصينة ـ أوّلتها المدينة ـ ورأيت بقراً تذبح (قتلى من المؤمنين) ورأيت ثلماً في ذباب سيفي أوّلته قتل رجل من عترتي (فكان حمزة). وكان رأي رسول الله (ﷺ) البقاء في المدينة ـ وكانوا قد سكّوا أزقتها بالبنيان حتى صارت كالحصن ـ فإن دخلوا عليهم قاتلوهم ورموهم من فوق البيوت بالحجارة. وإن أقاموا خارجها أقاموا بشر مقام.

وكان في المسلمين من لم يحضر بدراً. فقالوا بحماس: إن لم نخرج لهم ظنوا بنا الجبن. وقال نعيم بن مالك بن ثعلبة: يا نبي الله لا تحرمنا الجنة. فوالذي نفسي بيده لأدخلنها. فقال (ﷺ): «بم»؟ قال: بأني أحب الله ورسوله ولا أفرّ يوم الزحف. فقال (ﷺ) «صدقت» واستشهد يومئذ.

وكان في المسلمين من وافق رأيه رأي رسول الله (ﷺ) ومنهم رأس النفاق عبد الله بن أبيّ. إلا أن الأكثرية طالبوا بالخروج وأصرّوا عليه فاستجاب لهم رسول الله (ﷺ). وكانت صلاة الجمعة فوعظ الناس وذكرهم بالجهاد وانصرف من خطبته فدخل بيته ولبس لأُمته (درعه) ثم أذن في الناس بالخروج. فلما رأى ذلك رجال من ذوي الرأي عدلوا عن رأيهم وقالوا: اسْتَكْرَهْنا رسول الله وهو أعلم منا. فجاؤوا إليه وقالوا: استكرهناك يا رسول الله ونحن نجعل الأمر إليك. فقال (ﷺ): «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل».

وهنا نلمس فائدتين:

١ ـ إن رسول الله (ﷺ) كان له رأي يخالف رأيهم. لكنه خضع لرأيهم حتى يكون الأمر بين المسلمين شورى ﴿وشاورهم في الأمر﴾ .

٢ ـ الثبات وعدم التراجع. فالتفكير والاستشارة تكون قبل أن يعزم الإنسان على الأمر. أما بعد اتخاذ القرار فليس أمام المؤمن إلا الثبات. والتراجع

هنـا فيه تشتيت للرأي ويحـدث بلبلة بين النـاس. ﴿فـإذا عـزمت فتـوكـل عـلى الله﴾[1].

وخرج رسول الله (ﷺ) في ألف من أصحابه. واستعمل على المدينة ابن أم مكتـوم. حتى إذا كان بـين المدينـة وأحد انخـذل عنـه عبـد الله بن أبيّ بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصاني. ما ندري علام نقتل أنفسنـا ههنا أيهـا الناس. واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام السلمي ـ والد جابر ـ فقـال: يا قـوم أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حَضرَ من عدوهم. قالوا: لـو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتـال. فلما استعصوا عليـه قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه (ﷺ). وذكر أن الآيـة نزلت فيهم ﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا: لـو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقـولون بـأفواههم مـا ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾[1].

وذكر أن بني سلمة وبني حارثة همّتا أن تفشلا لما رجع المنـافقون.. ولكن الله ثبتهما كما جاء في الآية ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال جابر بن عبد الله ما أحبّ أنها لم تنزل والله يقول: ﴿والله وليهما﴾ (لأنـه من بني سلمة).

واستأذن الأنصار رسول الله (ﷺ) في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة فرفض (ﷺ). وقال (ﷺ): «من رجل يخرج بنا على القـوم من كثب من طريق لا يمر بنا عليهم؟» فقال أبو خيثمة أخـو بني حارثـة بن الحارث: أنـا يا رسـول الله. فنفذ به في حرة بني حارثـة وبين أمـوالهم حتى سلك به في مـال لمربـع بن قيظي وكـان رجـلاً منـافقـاً ضريـر البصر فلما سمـع حِسَّ رسـول الله ومن معـه من المسلمين، ثار في وجوههم وتطاول على رسول الله وأراد منعهم من المرور، فهمَّ المسلمـون بقتله فنهاهم رسـول الله (ﷺ).. ومضى رسول الله حتى نـزل الشعب من أحد. وهناك نظم الجيش وجعل ظهره إلى أحد. وقال: لا يقاتلنَّ أحد حتى

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٧.

آمره بالقتال. وتعبأ (ﷺ) للقتال وهو في سبعمائة رجل. وأمَّر على الرماة ـ وكانوا خمسين رجلاً ـ عبد الله بن جبير وهو معلم يومئذ بثياب بيض فقال له «انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتوننا من خلفنا. إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قِبَلِكَ». وظاهر رسول الله (ﷺ) بين درعين (لبس درعاً فوق درع). ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير (لأنه من بني عبد الدار وهم حملة الألوية منذ أن تقاسمت قريش المهام) ورد رسول الله (ﷺ) جماعة من الغلمان فلم يسمح لهم بحضور الحرب لصغرهم، منهم عبدالله بن عمر، وأسامة بن زيد. وأراد أن يرد سمرة بن جندب ورافع بن خديج فقيل له إن رافعاً رامٍ فأجازه فقيل له: إن سمرة يصرع رافعاً فأجازه.

وقال (ﷺ): من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم. حتى قام أبو دجانة سماك بن خرشة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به في العدو حتى ينحني. قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه.. فأخرج عصابته الحمراء ـ وكان يعلّم بها عند الحرب ـ فاعتصب بها ثم جعل يتبختر بين الصفين ـ فقال (ﷺ): إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن.

وهنا تبرز أهمية النّضجِ ووضع الأمور في مواضعها ـ وهي الحكمة ـ فأبو دجانة أدرك بما عنده من فهم لجوهر الإسلام أن الاختيال أمام المشركين في هذا الموضع يحبه الله ـ مع كونه محظوراً في مواضع أخرى ـ والقرآن لم يأتِ ليلغي العقل والفهم.. بل إن القرآن آيات لأولي الألباب.. لا يؤتي ثماره إلا بفهم أولي الألباب وإدراكهم لموضع كل حكم.. ومكان كل استثناء.. فالدواء إن استعمل في غير مكانه ودون إدراك لمقاديره تحول إلى سم قاتل. فأولو الألباب يعرفون متى يكون الاختيال ومتى التواضع.. متى يجب الكلام ومتى يطلب السكوت.. متى العزة.. ومتى الخشوع.. وحتى الشورى لها وقتها.. وبعد اتخاذ القرار لا مكان للشورى. إنها الحكمة: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾[1]. إنه الدرس الذي نتعلمه بالمعاناة اليومية.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

نعود إلى غزوة أحد. . والمشركون يستعدون للمعركة وأبو سفيان يحمسهم ويقول لأصحاب اللواء من بني عبد الدار ـ يستفزهم ـ : قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه. . فهمّوا به وتواعدوه وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع. . وقامت هند ومن معها من النساء يضربن الدفوف وينشدن الأشعار ويحرضن على القتال.

وهنا ندرك خطورة دور المرأة في تحريض الزوج والرجل عامة على خوض المخاطر. . صحيح أن المرأة لا تقاتل. . ولكنها هي التي تدفع الرجل للقتال. . وليس الأمر قاصراً على معركة مسلحة. . بل إن لها أثراً كبيراً في خوض معركة الحياة. فهي التي تدفعه إلى الكد والمخاطرة من أجل المثل الأعلى الذي تؤمن به. ولهذا حرم نكاح المشركين والمشركات. وأُمِرَ المؤمنون بتأسيس الأسرة على الإيمان والتقوى. وينبغي للمؤمنات أن يذكرن دائماً خطورة الدور الذي كلفن به: حسن التبعُّل. . حسن التوجيه والدفع إلى الخير.

فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر وكان رئيس الأوس في الجاهلية. وكان قد خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله (ﷺ) وكان يسمى في الجاهلية الراهب، فسمّاه رسول الله (ﷺ) الفاسق. وكان يعد قريشاً: أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان. فلما التقى الناس نادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر. قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، فلما سمع ردهم قال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ثم قاتلهم قتالاً شديداً ثم أرضخهم بالحجارة. وكان قد حفر حُفَراً وغطّاها مكراً بالمسلمين. ويقال بأن رسول الله (ﷺ) وقع في إحداها.

ويذكر أن الزبير بن العوام قال: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله (ﷺ) السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة. وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش. . والله لأنظرنَّ ما يصنع فاتبعته. فأخرج عصابة له حمراء فَعَصَب بها رأسه فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت. . فجعل لا يلقى أحداً

إلا قتله. وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً إلا ذَفَّفَ عليه.. فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا.. وضربه أبو دجانة فقتله. ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ثم عدل السيف عنها فقلت: الله ورسوله أعلم. قال أبو دجانة: رأيت إنساناً يحمس الناس حمساً شديداً فصمدت له، فلما حملت عليه السيف وَلْوَل فإذا هو امرأة.. فأكرمت سيف رسول الله (ﷺ) أن أضرب به امرأة.

ويذكر وحشي قصة قتله لحمزة (رضي الله عنه) لرجلين من المسلمين جاءاه في زمن معاوية يسألانه عن ذلك فيقول: كنت غلاماً لجبير بن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر. فلما سارت قريش إلى أحد قال لي: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق. فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلّما أخطىء بها شيئاً. فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة، وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق، يهدّ الناس بسيفه هداً ما يقوم له شيء. فوالله إني لأتهيأ له وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزّى.. فضربه حمزة ضربة كأنما أخطأ رأسه. وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعَتْ في ثُنْتِهِ حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغلب وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته فأخذت حربتي ثم رجعت إلى العسكر، وقعدت ولم يكن لي بغيره حاجة إنما قتلته لأعتق.. حتى إذا افتتح رسول الله (ﷺ) مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها. فلما خرج وفد الطائف مسلماً.. تَعَيَّتْ عليَّ المذاهب فقلت: ألحق بالشام.. فوالله إني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك إنه والله لا يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وشهد شهادة الحق.. قدمت على رسول الله (ﷺ) المدينة فلم يرعه إلا بي قائماً على رأسه أشهد شهادة الحق. فلما رآني قال: أوحشي أنت؟ قلت: نعم. قال: اقعُد فحدثني كيف قتلت حمزة.. فحدثته. قال: ويحك غيّب عني وجهك فلا أرينّك.. فكنت أتنكب برسول الله (ﷺ) حيث كان لئلا يراني. فلما قبض (ﷺ)، وخرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب خرجت معهم، وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة. فلما التقى الناس

رأيت مسيلمة . . دفعتها عليه فوقعت فيه، وشد عليه الأنصاري بالسيف فربُّك أعلم أيُّنا قتله. فإن كنتُ قتلته فقد قتلت خير الناس بعده (ﷺ)، وقتلت شر الناس. (وقيل: إن الأنصاري هو أبو دجانة).

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله (ﷺ) حتى قتل على يد ابن قمئة وظن ابن قمئة أنه قتل النبي (ﷺ) فرجع إلى قريش يقول: قتلت محمداً. فأعطى الرسول (ﷺ) الراية لعلي بن أبي طالب.

وبرز حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة فأحجم عنه الناس . . فبرز إليه الزبير بن العوام، فوثب الزبير حتى صار معه على جمله، ثم ألقاه، وقتله فقال (ﷺ): «إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير» وقال: لو لم يبرز إليه لبرزت أنا إليه لما رأيت من إحجام الناس عنه.

وقتل عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح اثنين من أولاد سلافة فنذرت أن تشرب الخمر برأس عاصم . . وقتل عاصم يوم الرجيع ولكن الله حمى جسده لأنه عاهد الله أن لا يمسَّ مشركاً.

والتقى حنظلة بن أبي عامر (الفاسق) بأبي سفيان فلما همّ حنظلة بقتله رآه شداد بن الأوس فقتله وأنقذ أبا سفيان. فقال (ﷺ): «إن صاحبكم لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه» وكانت جميلة بنت أبيّ بن سلول عروساً عليه تلك الليلة. فقالت خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة. ولهذا سمي حنظلة الغسيل أي غسيل الملائكة. ورآه أبوه فضرب برجله في صدره وقال: لقد نهيتك عن مصرعك هذا. ولقد والله كنت وصولاً للرحم براً بالوالد.

وأنزل الله نَصْرَه على المسلمين وكشفوا المشركين عن العسكر. يقول الزبير: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أَخْذِهِنّ قليل ولا كثير. إذ مالت الرماة على العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخلوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من خلفنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ القوم علينا بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد منهم . . حتى أخذته عمرة بنت علقمة فرفعته لقريش فلاذوا به.

وكان من أمر الرماة أنهم لما رأوا هزيمة المشركين تنادوا: الغنيمة أي قوم الغنيمة.. ظهر أصحابكم فما تنظرون؟ قال - أميرهم - عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله (ﷺ)؟ قالوا: إنا والله لنأتين الناس فلنصيبنّ من الغنيمة. فلما تركوا أماكنهم.. انتبه خالد بن الوليد وأبو سفيان إلى هذه الثغرة فجاؤوا بالخيل من خلف المسلمين وباغتوهم فحدثت البلبلة في الصفوف وانقلب النصر إلى هزيمة. واستشهد من المسلمين سبعون. وشجَّ رسول الله (ﷺ)، ووقع في حفرة، وكسرت رباعيته، ودخلت في وجنته حلقتان من مِغْفَر.. فلما أدركه أبو بكر وأبو عبيدة (رضي الله عنهما) عزم أبو عبيدة على أبي بكر أن يدعه ينتزعهما من وجنة النبي (ﷺ) فانتزعهما أبو عبيدة بأسنانه فوقعت ثنيتاه. وامْتَصَّ مالك بن سنان الدم من وجنته (ﷺ) حتى أنقاه.

وكانت محنة محّص الله بها المؤمنين وانكشفت عن مواقف متباينة...

- فمن المسلمين من ذهل وتوقف حائراً عن القتال بعد أن سمع الإشاعة بموت النبي (ﷺ).

- ومنهم من انهزم وفر من الميدان تحت وطأة الصَّدْمَة. ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد...﴾.

- ومنهم من ثبت ببطولة.. وسجل في التاريخ صفحات مشرقة تجعلنا نقف أمامها بإجلال..

فهذا أبو طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) يقف بين يدي رسول الله (ﷺ) ويرمي النبل عنه ويقول: نَحْري دون نَحْرك يا رسول الله. وهذا سعد بن أبي وقّاص (رضي الله عنه) بين يدي النبي - وهو ينثر له كنانته ويقول له: «ارم فداك أبي وأمي».

وهذه نسيبة (أم عمارة) بنت كعب المازنية (رضي الله عنها).. وقد خرجت لتسقي الجيش. فلما انهزم المسلمون تقول: (انحزت إلى رسول الله (ﷺ) فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصتِ الجراح إلي).

وتتحدث عن ابن قمئة أنه لما ولى الناس عن رسول الله (ﷺ) أقبل يقول: دلوني على محمد لا نجوت إن نجا. (فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله (ﷺ) فضربني هذه الضربة ـ على عاتقها ـ ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كانت عليه درعان).

وَتَرَّسَ أبو دجانة دون رسول الله (ﷺ) بنفسه يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه...

ولما رَهَق المشركون النبي (ﷺ) وهو في سبعة من الأنصار ورجل من قريش ـ وهو طلحة بن عبيد الله ـ قال (ﷺ): من يردّهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟ فجاء رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل فلما رهقوه أيضاً قال: من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟.. حتى قتل السبعة. ثم قاتل طلحة بن عبيد الله (رضي الله عنه) دون رسول الله (ﷺ) حتى أصيبت يده. (وبقيت شلاء).

وهذه أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) مع أم سليم تحملان القرب على متونها تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآن، وتعودان فتفرغانه في أفواه القوم.

وهذا أنس بن النضر ـ وهو عم أنس بن مالك ـ يتحسّر على غيابه يوم بدر فيقول: غبت عن أول قتال قاتله النبي (ﷺ) للمشركين. لئن الله أشهدني قتالاً للمشركين ليرينَّ ما أصنع. فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال: اللهم إني أعتذر إليك عما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعني المشركين ـ، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ دون أحد فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ واهاً لريح الجنة أجده دون أُحد.. قال سعد: فلم أستطع أصنع ما صنع. فقاتلهم حتى قتل: فَوُجِد في جسده بضعٌ وثمانون من ضربة وطعنة ورمية. فقالت أخته: ما عرفته إلا ببنانه. وذكر أن الآية نزلت فيه وفي أصحابه ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

وذكر أن أول من عرف رسـول الله (ﷺ) بعد الهـزيمة وقـول الناس قتـل رسول الله (ﷺ): هو كعب بن مالك قال: رأيت عينيه تزهران من تحت المغفـر فناديت بأعلى صوتي: يـا معشر المسلمين أبشروا هـذا رسول الله (ﷺ). فـأشار (ﷺ) لي أن: أنصت. فلعل رسول الله (ﷺ) خشي أن يسمع المشركون فيشدّوا عـلى المسلمـين - وهم في هـذا الحـال من الـوهن - كي يقتلوا النبي. فلما عـرف المسلمون رسول الله (ﷺ) نهضـوا به ونهض معهم نحو الشـعـب ومعه أبـو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصمـة ورهط من المسلمين. فلما أسنـد (ﷺ) في الشعب أدركـه أُبيّ بن خلف.. وكان يلقى رسـولَ الله (ﷺ) في مكـة فيقول: يا محمد إن عندي العـود - فرسـاً - أعلفه كـل يوم فَرَقاً من ذرة، أقتلك عليه. فيقول (ﷺ): بل أنا أقتلك إن شاء الله. فلما أدركه أُبيّ قـال: لا نجوتُ إن نجوتَ. فقال القوم: يا رسول الله يعطف عليه رجل منـا؟ فقال رسـول الله (ﷺ): دعـوه، وتناول رسـول الله (ﷺ) الحربـة من الحارث بن الصمـة فانتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعـير إذا انتفض.. فطعنـه في عنقه طعنة تَدَأْدَأَ منها عن فرسه مراراً.. وقيل: إنه الرجل الـوحيد الـذي قتله رسول الله (ﷺ)، فـإنه مـع شجاعتـه (ﷺ) لم يتعمد أن يقتـل أحـداً. وكـان يقـول: «اشتد غضب الله على رجـل يقتله رسول الله (ﷺ) في سبيـل الله»[1]. وذكر أنّ أُبيّ رجع إلى قريش، فقالوا لـه: ذهب والله فؤادك. والله إن بك بـأس. فقال: إنه قد كان قال لي بمكـة: أنا أقتلك. فـوالله لو بصق علـيَّ لقتلني؟! وهذا يـدل على الهزيمة المعنوية ومدى شعور المشركين بصدق النبي (ﷺ).

فبينـا رسول الله (ﷺ) في الشعب.. إذ علت عـالية من قـريش الجبـل. فقـال (ﷺ): اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا. فقـاتـل عمـر ورهط معـه من المهـاجرين حتى أهبـطوهم. ونهض النبي (ﷺ) إلى صخرة من الجبـل ليعلوها، فلما ذهب لينهض لم يستـطع فجلس تحتـه طلحـة بن عبيـد الله، فنهض بـه حتى

---

(١) ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة.

استوى عليها. . فقال (ﷺ) «أَوْجَبَ طلحة». وصلى رسول الله (ﷺ) الظهر بالمسلمين قاعداً.

وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال (ﷺ): «لا تجيبوه. فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: لا تجيبوه. فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟. . فقال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يحزنك. فقال أبو سفيان: أُعْلُ هُبَل. فقال (ﷺ) أجيبوه. قولوا: الله أعلى وأجلّ. . فقال أبو سفيان: لنا العزّى ولا عزّى لكم. فقال (ﷺ): . . . قولوا: الله مَوْلانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال. . فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار. . قال أبو سفيان: تجدون مثلة - أي في قتلاكم - لم آمر بها ولم تسؤني.

ويذكر أن رسول الله (ﷺ) قال لعلي: اذهب فانظر ما صنع القوم. . إن كانوا ركبوا الإبل وتركوا الخيل فقصدهم مكة. أما إن ركبوا الخيل فقصدهم المدينة. فوجدهم قد ركبوا الإبل.

وقبل أن ندع الحديث عن الغزوة نلتقط بعض الأحداث الهامة لدلالتها المؤثرة. ذكر أن اليمان - والد حذيفة وثابت بن وقش كانا في الآطام مع النساء لكبرهما وضعفهما، فقالا: إنه لم يبق من آجالنا إلا ظمء حمار، فنزلا ليحضرا الحرب فجاء طريقهما ناحية المشركين، فأما ثابت فقتله المشركون، وأما اليمان فقتله المسلمون خطأ. . وقد رآهم حذيفة فقال لهم: أي عباد الله أبي أبي - وقد ظنوه من المشركين - ولكن كانوا قد قتلوه. فقال حذيفة: يغفر الله لكم. وتصدّق بدية أبيه على المسلمين، ولم يعاتب أحداً منهم.

وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج فأراد بنوه الأربعة أن يحبسوه يوم أحد وقالوا: إن الله قد عذرك - وكانوا هم يشهدون المشاهد مع رسول الله (ﷺ) - فأتى رسول الله (ﷺ)، واشتكى إليه من بنيه، وقال: والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة. فقال (ﷺ) «أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد

عليك» وقال لبنيه: «ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة». فخرج، فَقُتِلَ شهيداً.

وكان ممن قتل يوم أحد مُخَيْريق من اليهود. وذلك أنه لما خرج رسول الله (ﷺ) للقتال قال لقومه: يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أصبتُ فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء ثم غدا فقاتل مع رسول الله (ﷺ) حتى قتل فقال عنه ﷺ مخيريق خير يهود وجعل أمواله - وكانت سبعة حوائط - أوقافاً بالمدينة لله. وكانت أوَّلَ وَقْفٍ بالمدينة.

وكان أبو هريرة (رضي الله عنه) يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصلِّ قط؟ فإذا لم يعرفه الناس. قال: أصيرم بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش. كان يأبى الإسلام على قومه فلما كان يوم أُحد، بدا له فأسلم، ثم أخذ سيفه، فغدا، فقاتل حتى أثبتته الجراحة، فبينما رجال من بني عبد الأشهل يَلْتَمسُون قتلاهم إذا هم به فسألوه ما جاء بك؟ فقال: آمنت بالله ورسوله.. ولم يلبث أن مات فذكروه للنبي فقال: «إنه من أهل الجنة».

وكان في الأنصار رجل أتيٌّ لا يُدرى من هو يقال له قُزْمان. فقاتل في أحد قتالاً شديداً حتى أثبتته الجراحة، فاحتمل إلى دار بني ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له: (والله لقد أبليت يا قزمان فأبشر)، وكان رسول الله (ﷺ) يقول عنه إذا ذكر: «إنه لمن أهل النار». فقال قزمان لهم: بماذا أبشر؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي. فلما اشتدَّتْ عليه جراحته قتل نفسه. وصدق رسول الله (ﷺ): «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الكافر»(١). ولقد كان مخلصاً لكن لمثل أعلى خاطىء.

وسأل رسول الله (ﷺ) يومها: «من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟» فقال رجل من الأنصار: أنا.. فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق. فبلغه سؤال النبي (ﷺ) عنه، فقال سعد: أنا في

---

(١) صحيح البخاري ومسلم.

الأموات فأبلغ رسول الله (ﷺ) سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعداً يقول لكم: إنه لا عُذْرَ لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عينٌ تطرف..!!

وقتل يومها عبد الله بن حرام فجعل جابر يبكي، ويكشف الثوب عن وجه أبيه.. فقال (ﷺ) له: «لا تبكِهْ ـ أو ما تبكيه ـ ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع».

ويتذكّر عبد الرحمن بن عوف أحداث أُحُد وقد أتى بطعام وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كُفِّن في بردة، إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه.. وقتل حمزة وهو خَيْرٌ مني ثم بسط من الدنيا ما بسط.. وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلَتْ لنا. ثم جعل يبكي حتى برد الطعام.

ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللائي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله (ﷺ) يجدعن الآذان والأنوف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم خَدَماً وقلائد وأعطت خَدَمها وقلائدها وَحْشِيّاً. وبقرت عن كبد حمزة (رضي الله عنه) فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.. وقالت شعراً تشكر فيه وحشيّاً.. وجاء رسول الله (ﷺ) يلتمس حمزة (رضي الله عنه) فوجده ببطن الوادي وقد بقر بطنه ومُثِّل به.. فقال (ﷺ) «لولا أن تَحْزَنَ صفيّة وتكون سنّة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير. ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم». فلما رأى المسلمون حزنه (ﷺ) قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلنَّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب. فذكر أن الله أنزل في ذلك: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله﴾...[1] فعفا رسول الله (ﷺ)، وصبر ونهى عن المثلة. وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى أخيها..

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٦ ـ ١٢٧.

فقال (ﷺ) لابنها الزبير: «القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أمّهْ، إن رسول الله (ﷺ) يأمرك أن ترجعي. قالت: ولم قد بلغني أنه مُثِّل بأخي.. لأحتسبنَّ، ولأصبرنَّ إن شاء الله فتركها فأَتَتْهُ ونظرت إليه وصَلَّتْ عليه، واسترجعَتْ واستَغْفَرَتْ. ثم أمر به رسول الله (ﷺ) فدفن رضي الله عنه ودفن معه ابن أخته عبد الله بن جحش (رضي الله عنه) ـ وقد مثل به أيضاً ـ وأمر بالشهداء أن يدفنوا ـ وعددهم سبعون ـ وكان يجمع بين الرجلين المتصاحبين في اللحد الواحد ويقول: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟» فيقدّمه في اللحد وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة. وأمر بدفْنهم بدمائهم ولم يصلّ عليهم ولم يغسلوا. لكنه (ﷺ) صلى عليهم قبل وفاته كالمودّع للأحياء والأموات.

وقيل: إنه قتل من المشركين يومها اثنان وعشرون. ولم يُؤْسَرْ إلا أبو عزة الجمحي وقد كان في الأسرى يوم بدر فمنَّ عليه (ﷺ) بلا فدية، واشترط عليه ألا يقاتله، فلما أسر يوم أحد قال: يا محمد امنن علي البناتي وأعاهد أن لا أقاتلك، فقال (ﷺ): لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول: خدعت محمداً مرّتين. ثم أَمَرَ به فضربت عنقه. وقيل: إنه (ﷺ) قال يومها: «لا يُلْدَغُ المؤمن من جُحْرٍ مرتين».

وانصرف رسول الله (ﷺ) إلى المدينة فلقيتُه حمنة بنت جحش (رضي الله عنها). فنُعي إليها أخوها عبد الله (رضي الله عنه): فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها خالها حمزة (رضي الله عنه)، فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير (رضي الله عنه) فصاحت، وولولت، فقال (ﷺ): «إن زوج المرأة منها لبمكان».. ومرّوا بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله (ﷺ) بأحد، فلما نُعُوا لها قالت: ما فعل رسول الله (ﷺ)؟ قالوا: خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جَلَلٌ.. (أي قليل).

فلما كان الغد ـ من يوم الأحد ـ أذّن مؤذن رسول الله (ﷺ) بطلب

العدو. . وأذّن مؤذّنه ألا يخرجنَّ أحد إلا مَنْ حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله ـ وكان قد تخلف عن أحد لأن أباه طلب منه البقاء مع أخواته ـ فأَذِنَ له ـ وقصد رسول الله (ﷺ) بذلك إرهاب المشركين ورفع معنويات المؤمنين. وخرج أَخَوان من بني عبد الأشهل جريحان من أحد بعد أن تناجيا: (أتفوتنا غزوةٌ مع رسول الله (ﷺ)؟ والله ما لنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل). يقول أحدهما: فخرجنا. . وكنت أَيْسَرَ جُرْحَاً من أخي. فكان إذا غُلب حملته عقبة ومشى عقبة. . حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

فخرج رسول الله (ﷺ) حتى انتهى إلى حمراء الأسد فأقام بها ثلاثة أيام ثم رجع إلى المدينة. ومرَّ بهم معبد الخزاعي ـ وكانت خزاعة تحبّ النبي وإن لم تُسْلم ـ وهم في حمراء الأسد وكان مشركاً فقال: يا محمد أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك. . ثم خرج من عند النبي حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالرَّوحاء وقد أجمعوا الرّجعة إلى رسول الله وأصحابه، وقالوا: أصبنا حد أصحابه وقادتهم. . ثم نرجع قبل أن نستأصلهم؟ لنكرنَّ على بقيتهم فلما رأى أبو سفيان مَعْبَداً قال: ما وراءك؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جَمْع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرقاً. قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا. . . قال: ويلك ما تقول؟! قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل. قال: فوالله لقد أَجْمَعْنا الكرة عليهم. . قال: فإني أنهاك عن ذلك. فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه. ومرَّ بأبي سفيان ركْبٌ من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: المدينة. . (يريدون الميرة) قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكُمْ بها إليه، وأحمل لكم إبلكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وفّيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فأخبروه أنّا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. فمر الركب بحمراء الأسد فأخبروا النبي بالذي قال أبو سفيان فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

شرح الآيات:

وهي مرتبطة بما قبلها: فالغزوة كانت امتحاناً عملياً لمدى تطبيق

التوجيهات السابقة للمؤمنين. ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

وطريقة القرآن في عرض الأحداث لا تتحرى التسلسل التاريخي. وإنما القصد هو التأثير والفائدة والاعتبار. وهنا تبدأ الآيات بالإشارة إلى تنظيم خطة العمل. وكل عمل يحتاج قبل التنفيذ إلى تفكير.. وكلما كان العمل أضخم احتاج إلى تفكير وتنظيم أكبر.

١ ـ تنظيم المعركة:

ـ تحديد الزمان ﴿غدوت﴾ صباح يوم السبت السابع من شوال في السنة الثالثة للهجرة ـ وتحديد المهمات وتوزيع الجنود عليها ﴿تبوِّىء المؤمنين مقاعد للقتال﴾.

إن وضع خطة للمعركة ـ باصطلاح العصر: استراتيجية المعركة ـ هو أهم عمل فيها.. وهو أخطر ما يواجه القواد من مهام. ولا يخفى علينا ما يحتاج إليه هذا الأمر من كفاءة وحنكة. ثم يأتي الإشراف العملي على تنفيذ هذه الخطة.

وإن وضع الرماة في مكانهم من أُحد يذكرنا بأهميّة المكان.. وأهميّة ما يوضع فيه من قوة.. والدول الكبرى تُدْرِك خطورة ذلك فتضع القوة المناسبة في المضائق الهامة ـ وغيرها من الأمكنة الاستراتيجية ـ في الأوقات الحرجة ليتم التحرك بشكل مدروس. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لم يخف عليه شيء ممّا دار بينكم من المشورة وما تنطوي عليه صدوركم من نوايا وخبايا.. فلقد كان منكم المخلص في رأيه وإن أخطأ فيه.. ومنكم من كان على صواب وإن لم يرد بذلك وجه الله... وإنما هو منافق يتربص بالمؤمنين.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾

والطائفتان هما بنو حارثة وبنو سلمة. والفشل هو الضعف خلافاً لما هو

شائع من أنه الإخفاق والهزيمة. ولعلّهم أطلقوا ذلك لأنه يؤدي إلى الإخفاق. ولعل الآيات تشير هنا إلى الأمر الثاني في الأهمية عند المعارك وهو:

٢ ـ قوة المعنويات:

والقناعة النفسية بسلامة الأهداف وحكمة القيادة. إذ لو لم يكن هناك خلل في ذلك لما ترك الرماة أماكنهم وخالفوا أمر رسول الله (ﷺ).

﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) ﴾ فلقد غلب الإيمان في نفوسهم على عارض الضعف الذي كاد يزعزعهم.. ومن همَّ بسيئة فلم يفعلها كتبت له حسنة. لأنه انتصر على ضعفه. واستحق معونة الله.. فقد لجأ إلى الله وتوكل عليه وإن الله لن يخيبه. ولا بد أن نفهم التوكل على حقيقته في الإسلام. فالمؤمن لا يؤله الأسباب ولا يهملها ـ أو يعطلها ـ فهو يقوم بالأسباب أكثر من الذي يؤلِّه السبب، ويتوكل على الله أكثر من الذي يعطل الأسباب... يؤدّي واجبه وقلبه معلق بالله مؤمن بأن الأسباب هي من سنن الله.. إن لم يقم بها يعتبر مقصراً وعاصياً.. فلا يستحق عطاء الله.

ومن الضروري للإنسان أن يدرك أنه معرض للضعف والخطأ.. حتى يحترس ويتربص بنفسه.. وعندها يصبح أقل وقوعاً في الخطأ لأنه في حالة يقظة وتوتر.

٣ ـ تذكير ببدر:

وكل من يقوم بعمل عليه أن يستفيد من تجاربه السابقة...

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ ﴾ قليلي العدد والعدة. ولم يقل: عندكم مسكنة لأن المسكنة ضعف النفوس والمعنويات. وكان عدد المسلمين عندها ثلاثمائة ضد ألف.

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾ ويأمر بالتقوى لأنها من أسباب النصر

وتحقق الشكر الحقيقي لله بوضع النعمة فيما يفيد.. والشكر يكون بالعمل ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾[1].

وتدبر الآيات والأحداث.. وما أنعم الله به على الإنسان من قدرة على تسخير الأسباب.. وما بيّن لنا من سنن التمكين والنصر.. إن هذا بعض ما يستوجب الشكر لله المنعم.

والتذكير ببدر هنا فيه رفع للمعنويات.. وكذلك ذكر الملائكة والمدد بها للمؤمنين:

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) ﴾هل حصل هذا في بدر أم في أحد؟ اختلف المفسرون في ذلك. ويبدو أن الآيات تتابع بالتذكير بما حصل في بدر وقول الرسول (ﷺ) لأصحابه﴿ألن يكفيكم أن يمدكم..﴾فقد كانوا قلة.. وكانت بدر أول موقعة كبرى لهم مع المشركين.. فاستغاثوا ربهم فأمدهم.. ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين﴾[2]. ويمكن أن يكون الناس قد سألوا رسول الله (ﷺ) يوم أحد: ألن يمدنا كما أمدنا يوم بدر.. فأجابهم (ﷺ): «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف...».. وجاء الوعد بالزيادة في المدد ولكن بشروط:

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ﴾ فاشترط الصبر والتقوى وأن يأتيهم العدو من فوره (من ساعته).. ولهذا قال بعض المفسرين إن المدد بالملائكة لم يحصل في أحد.. لأن المؤمنين لم يحققوا شروطه. والعدد هنا: ثلاثة آلاف.. خمسة آلاف. ليس من قبيل التحديد ولكن من قبيل التبشير والتثبيت. ﴿وما يعلم

---

(١) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٩.

جنود ربك إلا هو﴾[1] وفي غزوة الأحزاب قال: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾[2].

والأرجح أن المدد بالملائكة لتبشير المؤمنين ورفع معنوياتهم وتثبيتهم ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾[3]. لأن تحقق النصر يجري وفق سنن إنسانية. ولقد كان المسلمون يجْنُون ثمرة تقصيرهم - إن غفلوا وقصّروا - كما أن البشر لا طاقة لهم بحرب الملائكة.. ولو اشترك الملائكة بالقتال لما تركوا أحداً.. ومن المفيد الرجوع في هذا الأمر إلى صاحب المنار رحمه الله في تفسيرة للآية فقد ذكر ملحوظات هامة.

﴿مُسَوِّمِينَ﴾ إذا قرئت بفتح الواو كانت بمعنى مرسلين ومكلفين من الله. وإن قرئت بكسر الواو كانت بمعنى مغيرين.. أو معلِّمين: فهم برغم التحام الصفوف يميزون المؤمنين بعلاماتهم.. والله أعلم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ فهذه هي الغاية من الإمداد بالملائكة.. وعلى المؤمن أن يتذكر أنه مهما استعد وبذل جهده فإن النصر بيد الله وعليه أن يلجأ إليه:

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ فهو القوي القادر على كل شيء. والحكيم: يضع النصر في مكانه والهزيمة في مكانها.. وله في كل ذلك حكم عظيمة فإلى جانب دعم المؤمنين..

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ فمقابل البشرى والاطمئنان للمؤمنين.. القطع والقمع للكافرين. وقطع دابر القوم: هو إهلاكهم عن آخرهم.. أما قطع طرف منهم.. فهو إهلاك قسم منهم. مع كبتهم: أي ردهم بعنف وإغاظتهم.

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٩.
(٣) سورة الأنفال: الآية ١٢.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨﴾

ورد أن رسول الله (ﷺ) قال يوم أحد: «اللهم اِلعن أبا سفيان، اللهم اِلعن الحارث بن هشام، اللهم اِلعن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية»[1]. فنزلت هذه الآية. فتيب عليهم كلهم. وورد أيضاً أنه (ﷺ) قال: عندما أصيب في أحد: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم»[2]؟. فنزلت الآية. ويمكن الجمع بين الحديثين. فلقد قال هذا ثم دعا عليهم فيأتي الرد من الله سبحانه وتعالى ويأتي التعليم.. وها هو ذا رسول الله (ﷺ) يُقال له ـ برغم مكانته العظيمة ـ: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾!! فكيف بالبشر؟!

وما يكون للدعاة إلى الله أن يعالجوا كفر الكافرين بالدعاء عليهم.. ومحمد (ﷺ) كان في حياته ودعوته مثالاً للقلب المحبّ الرحيم.. فلقد رفض عرض جبريل عليه من أن يأمر ملك الجبال فيطبق الأخشبين على أهل مكة.. وذلك يوم طاردته ثقيف وآذته.. وأهدرت قريش دمه فلم يستطع دخول مكة إلا بعد أن أجاره أحد أشرافها. ولكن أحداث أحد كانت ثقيلة على نفسه فلقد أصيب في نفسه وعمه وصحابته.. ولعله أحس في هذه الساعة باليأس من توبة هؤلاء الزعماء.. وبأنهم يشكلون عقبة كأداء في طريق الدعوة.. فدعا عليهم.. ولكن عِلْمَ الله أَوْسَعُ وَرَحْمَتَهُ أعظم.. فتنزل الآية ﴿ليس لك من الأمر شيء..﴾ فتصفو نفس رسول الله (ﷺ) من كل يأس أو رغبة في الانتقام.. ويعود القلب الكبير إلى سابق عهده في الحب والعطاء..

يقول له أصحابه بعد أن حاصروا ثقيفاً حصاراً طويلاً فاستعصت عليهم وتحملوا منها أذى كثيراً: يا رسول الله ادع على ثقيف. فيقول (ﷺ): «اللهم اهد ثقيفاً»[3] ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ فإن الأمور لا تجري بحسب الرغبات

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن عمر.

(٢) رواه مسلم من حديث أنس.

(٣) رواه الترمذي وقال حسن غريب.

والأماني. . وشؤون الدنيا لا تنقاد لرغبة إنسان مهما كان جليل القدر. . ولكنها خاضعة لسنن وضعها الله لها. . فالهداية لها قانون. . وإهلاك الكافرين له سنّة. والتوبة أيضاً لها قانونها وشروطها. . والإسلام دين الفطرة والسنن لا دين الخوارق. .

وإن الدعاء على رؤوس الكفر لا يكفي. . ولا بد من البحث عن الحل الجذري لمشكلة الكفر والظلم في الأرض. . ولا بد من بذل الجهد واستنفار الفكر. . للوصول إلى الهدف. فإن ذنب الأتباع لا يقل عن ذنب السادة والرؤساء.

﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ ولا ننسى هنا العلاقة بين عمل الله وعمل العبد. . فالظالمون لا يتوبون ولهذا يستحقون عذاب الله.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وله وحده تصريف الأمور في السموات والأرض. . تأكيداً لمعاني التوحيد التي أشار إليها في قوله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾. فالأنبياء بشر لا يملكون من أمور الدنيا شيئاً. . فكيف يلجأ الناس إلى الأولياء والقبور. . ؟!

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للصادقين فهو أعلم بمن يستحق المغفرة. وفي الآية تلويح بالرحمة تستروح له النفوس بعد أن ذاقت طعم الخطأ والهزيمة في أُحُد خاصة. . وفي الحياة اليومية عامة.

وهنا نفاجأ بمقطع من الآيات يعترض الحديث عن أُحُد. . وفيه توجيهات للمؤمنين: يبدؤها بالنهي عن الربا. . ! فما هي الحكمة يا ترى؟!

يمكن أن نتأمل بعض ما يخطر في ذهننا حول هذه النقطة إلى جانب ما ذكره بعض المفسرين. فصاحب الظلال رحمه الله يقول: إن هذا المقطع من الآيات يقدم توجيهات للإنسان في معركته الكبرى التي تدور في أعماقه. . وفي تعامله مع الناس: (الربا ـ طاعة الرسول ـ التقوى ـ كظم الغيظ. .) وذلك ميدان هام يدخله القرآن ليرافق المؤمن في دروبه ومنعطفاته. .

فالقرآن كتاب الحياة. . والحياة تنتقل بالإنسان من حال إلى حال. . والقرآن يأخذ بيد المؤمن ويدله على التصرف السليم ويحدد له المنطلقات الأساسية. ويقول له: فكر واجتهد. . وأما صاحب المنار رحمه الله فقد ربط الموضوعات بما قبلها: منذ أن جاءت الآيات بالنهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين ويحدد بأن المقصود هنا هم اليهود. ثم بيّن الطريقة للاعتصام من كيدهم (التقوى والطاعة للرسول). . ثم ذكرهم بما يدل على ذلك (بما حصل في بدر وأحد) ثم نهاهم عن عمل من أعمال اليهود. وهو الربا.

ويمكن أن نرى في إقحام موضوع الربا هنا إبرازاً لخطورته. . فهو عدو للمجتمع المسلم لا يقل في فتكه عن المشركين وغيرهم من أعداء المسلمين. وكثيراً ما سبب أحقاداً وحروباً بين الناس. . وعلى المسلمين أن يخوضوا حرباً ضده كي يحققوا لأنفسهم النجاة ﴿فإن لم تفعلوا فَأْذنوا بحرب من الله ورسوله﴾[1]. فالمعركة ليست مع أشخاص المشركين واليهود والمنافقين فقط. . بل هي مع أفكارهم الفاسدة ومعاملاتهم المالية والاجتماعية الضارة المؤذية. . والله أعلم. .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾

يقول ابن مسعود (رضي الله عنه): إذا سمعت النداء من الله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأعِرْها سمعك فإما خير يأمرك به أو شر ينهاك عنه.

وهنا ينهى عن شر ثم يأمر بخير وهو التقوى.

والربا محرم مهما كان قليلاً. . فليس القصد من الآية هو تحريم الضخم من الربا. . وإنما هي إشارة إلى التضخم الذي يصل إليه الربا مع استمرار المدة. (فالفائدة) - كما تسمى نسبة الربا في عصرنا - وهو مصطلح يحتوي الكثير من التّغرير - مهما كانت ضئيلة فإنها تصبح على مر الأيام أضعافاً مضاعفة. والتقوى هي التي تكف النفس عن الربا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾. فإن ترك

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٩.

الربا والحرص على التقوى يثمر الفلاح في الدنيا والآخرة.. ويمكن رؤية ذلك في نتائج المجتمعات. ومقارنة العواقب.

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ فالذين يتعاملون بالربا يطلق عليهم (كافرين) ونلاحظ أن الآيات تشير إلى النتائج الأخروية.. لأنها في عالم الغيب بالنسبة لنا.. أما النتائج الدنيوية السيئة فهي تحت سمعنا وبصرنا ويمكن أن يراها ويتحدث عنها المتخصصون في الاجتماع والاقتصاد - مثل الدكتور شاخت الألماني الذي هاجم الربا وتحدث عن عواقبه - والله يترك هذا الجانب - الدنيوي - لتأملنا وبحثنا.. وتأتي الإشارة إليه كعنوان بحث: ﴿لعلكم تفلحون﴾. وإن فهم الاختصاصي لعظمة هذه الآيات أكبر بكثير من فهم الإنسان العادي - ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾[1].

والاختصاصي هو الذي يحدثك عن أمر كنت تظن أنك تعرفه فإذا بك تكتشف أنك لم تكن تعرفه وهذا هو الفرق بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ ألا تحبون أن ترحموا في حياتكم ومماتكم وأخراكم؟ فإن طاعة الله والرسول تفتح أبواب الرحمة في الدنيا والآخرة.. وأوامر الله تهدف إلى حماية البشر من المشقة وإبعادهم عن التجارب المريرة القاسية ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[2]. وإن التفكير في حال المدين والرحمة به ينشىء مجتمعاً متراحماً ويعود على الجميع بالنفع والرحمة.

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

بعد أن هدد بالنار ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ يرغّب بالجنة.

---

(١) سورة سبأ: الآية ٦.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٨.

وبابها المغفرة. ﴿وسارعوا﴾ حث على السرعة وترك التأجيل.. قبل أن تفوت الفرصة ويغلق باب التوبة والمغفرة.. ومن المؤسف أننا في حالة من التراخي تتنافى مع أية سرعة.. وعامة المسلمين تؤجل الاستقامة والصلاح.. ويقولون: حتى يعمل الناس نعمل.. فما بالهم في أمور الدنيا يتنافسون ويتسابقون.. وفي أمور الآخرة يسترخون وينتظر بعضهم بعضاً؟!.. ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾[1]. نحن مصابون بقصر نظر في البصيرة.. وكثير من الآيات تقوم بدور العدسات في تقريب المنظر البعيد حتى يدخل في ساحة النظر.. ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً..﴾[1]. ونحن بحاجة إلى الحياة مع القرآن وتدبر آياته كي نحسب حساباً للآخرة فإن ما فيها هو خير وأبقى. ﴿عرضها السموات والأرض﴾ هل هذا تحديد لمكان الجنة وحجمها الحقيقي؟

إن أوسع ما يعرفه الإنسان: السموات والأرض.. والجنة توصف بأن عرضها ـ والعرض أقصر من الطول ـ كسعة السموات والأرض كي يشعر الإنسان بالرحمة الواسعة.. وأن جزاء الله أكبر وأعظم من عمل العبد.. والله أعلم.

كل هذه التوجيهات: اتقوا الله ـ أطيعوا الله والرسول ـ سارعوا إلى المغفرة.. مع الترهيب من النار والترغيب بالجنة.. تحشد لانتزاع الربا من النفس وتطهير المجتمع منه. بل إن الآيات تتابع بعرض صفات المتقين لهذا الغرض خاصة ـ وإن كانت هناك أهداف توجيهية عامة من الآيات ـ فأول صفة للمتقين الذين جهزت لهم الجنة:

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾

والإنفاق عكس الربا: فهو عطاء بدون مقابل: بينما الربا أخذ بدون مقابل.

---

(١) سورة القيامة: الآية ٢٠.

وصفة الإنفاق قد تأصّلت في نفوس هؤلاء المتقين حتى أصبح العطاء خلقاً لهم يلازمهم في كل أحوالهم في الشدة والرخاء في الفقر والغنى والمنشط والمكره. وقد سئل (ﷺ) عن أعظم الصّدقة فقال (ﷺ): ﴿أن تَصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى﴾[1].

وفرق كبير بين من ينفق في السراء والضراء... برغم ما أصابه من شدة فإنه يؤثر على نفسه ويرحم ويعطي.. وبين من يستغلّ حاجة الفقير ليأكل ماله بدون مقابل.

ويرد صاحب المنار رحمه الله ـ عند تفسير هذه الآية ـ على من يقول: إن تكليف الفقير بالبذل لا معنى له. [يجب أن تكون نفس الفقير كريمة في ذاتها وأن يتعود صاحبها الإحسان بقدر الطاقة وبذلك ترتفع نفسه وتطهر من الخسة.. والقليل من الكثير كثير فلو أن كل فقير في القطر المصري مثلاً يبذل في السنة قرشاً واحداً لأجل التعليم لاجتمع من ذلك ألوف الألوف وتيسر به في البلاد عمل كبير فكيف إذا أنفق كل أحد على قدره؟!].

٢ ـ ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ والغيظ أشد الغضب. وكَظَم القربة: ملأها وسد رأسها. فالكظم هو سد الطريق أمام الغضب فلا يتدفق.. [ومن أجاب داعي الغيظ إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال ولا يكتفي بالحق بل يتجاوزه إلى البغي لذلك كان من التقوى كظمه][2] لأن التقوى كما يوحي تعريفها: (فعل ما أمر به الله وترك ما نهى عنه الله طلباً لرضا الله) هي مرحلة أداء الفرائض.. أما الزيادة والتطوع فهو الإحسان.

وليس هذا بالأمر السهل.. بل إنه يحتاج إلى قوة نفسية واقتدار.. والرسول (ﷺ) يحدد الصُّرَعة (القوي في المصارعة) على أنه الذي يتغلب على نوازع الغضب في نفسه (الذي يملك نفسه عند الغضب)[3]. والعالم حتى الآن لم

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم الحديث ٥٣٨.

(٢) سورة المعارج: الآية ٦.

(٣) صفحة ١٣٤ من المجلد الرابع من تفسير المنار (الطبعة الثانية) ـ محمد رشيد رضا.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

يعط القوة النفسية حقها من العناية والتنمية. وكظم الغيظ لا يعني الذلة والاستكانة.. بل إن المؤمن يغضب لله.. وقد وصف الصحابة بأن أحدهم كان إذا أريد منه شيء يخالف أمر الله دارت حماليق عينيه كأنه مجنون..

إن المؤمن يغضب لله لكنه لا يفقد اتزانه فيقول أو يفعل في حالة الغضب ما لا يرضي الله... ولقد علمنا رسول الله (ﷺ) كيف نسيطر على الغضب ونطفىء ناره: كالاستعاذة بالله والصمت والجلوس والوضوء... والصفة تكتسب بتدريب النفس عليها «إنما الحلم بالتحلم». وكلما ازداد علم الإنسان اتسع صدره وازداد صبره.. لأنه يدرك عواقب الغضب الوخيمة.. حتى في مستوى صيانة الجسم الإنساني.. فإن الانفجار والاستسلام للغضب يخرب الأعضاء. ولهذا جاءت وصية الرسول (ﷺ) جامعة لمن طلب منه وصية موجزة: «لا تغضب»[1].

لا تغضب على من تقدر عليه.. ولا تذلّ لمن يقدر عليك.. ولكل صفة مكانها الذي يجب أن توضع فيه وإلا اختلّ الأمر..

وقد يكظم الإنسان غَضَبَه... ولكن تبقى نفسه مشحونة بالكراهية والحقد.. فما الفائدة؟!

إن جراثيم الحقد إن بقيت في القلب أكلته ونغّصَتْ على الإنسان عيشه.. ولا بد أن تخرج يوماً ما لتفسد كل ما سبق من توازن وهدوء. ولهذا لا بد من الارتقاء إلى المرحلة الثانية:

٣ - ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فبعد كظم الغيظ لا بد من تطهير القلب من الحقد على من أغضبك وإن إزاحة الكراهية والحقد عن القلب يريحه.. وإن العفو له سكينة في النفس وحلاوة.. وربما تكون نتائج الحقد أسوأ من نتائج الغضب.

والعفو لا يكون مع الضعف.. ولكن العفو عند الاقتدار. وأما حالة المستضعف فيطلب فيها الصبر.. ولهذا أمر المسلمين في مكة بالصبر - ولم يسمّ

(١) رواه البخاري.

كف اليد عن الانتقام في مكة عفواً ـ بينما وجّه إلى العفو في المدينة: ﴿ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا . . ﴾[1].

والآية تنص على شمول هذا العفو ﴿والعافين عن الناس﴾ فليس الأمر خاصاً بالمسلمين.

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ وفي ذلك ربط للعفو بالإحسان. . . فهو أقرب إلى أن يكون من صفات المحسنين وهم أعلى درجة من المتقين.

كذلك فإن الآية تلوح لنا كي نرتقي إلى مرحلة أعلى من مجرد كظم الغيظ ـ ثم العفو. . فهناك المرحلة الثالثة الأعلى: وهي أن تحسن إلى من أساء إليك. فتقدم له معروفاً زيادة على العفو. وهؤلاء هم الذين يحبهم الله. . . وهؤلاء هم أطباء النفوس يداوون العداوة بالإحسان فيستحوذون على القلب ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبين عداوة كأنه ولي حميم﴾[2]. تلك قاعدة في معالجة القلوب يدلنا عليها خالق القلوب وبارئها ﴿وما ينبئك مثل خبير﴾ فصدق الله وضل كل من يحاول التملص من الإحسان بدعوى (اتق شر من أحسنت إليه).

كم نحن بحاجة إلى تذكر هذه الآيات أثناء معاناة الحياة اليومية. . فإنها لنار القلوب بردٌ وسلامٌ.

والتعامل مع الناس يشمل جانباً مادياً وآخر معنوياً. فالإنفاق عطاء مادي. والعفو والإحسان عطاء معنوي. فكأن الله يبين لنا ـ حين جمع بينهما ـ أهمية تزكية النفس وتربيتها حتى تقدر على العطاء المادي والمعنوي ـ ولهذا بدأ بكظم الغيظ ـ وإن الإنفاق المادي لا ينجح إلا إذا كان صادراً عن نفس سمحة معطاء ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٩.
(٢) سورة فصلت: الآية ٣٤.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٣.

٤ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ والفاحشة: الذنب الكبير. ولا يشترط أن يكون (الزّنى) بالذات. والتعبير بالآية عن الذنب على أنه ظلم للنفس... هام لافت للنظر.. فيا حسرة على العباد.. إنهم يملكون مفاتيح السعادة فيرمونها ويجرون وراء المحرمات متوهّمين فيها الكسب والاستمتاع.. فلا يجنون إلا مرارة الندم وتلوث النفس بالمعصية.. وبهذا يظلمون أنفسهم..

والقرآن أول كتاب يركّز على ظلم النفس.. ويطالب البشر أن يتنبهوا إلى أنه أخطر أنواع الظلم. ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾[1].

وإن هؤلاء المؤمنين بشر يخطئون.. لكنهم إن أخطؤوا أسرعوا إلى ربهم تائبين.. ﴿ذكروا الله﴾ في وعده بالجنة ووعيده بالنار.. فاستغفروا لذنوبهم...

جاء في الحديث: «أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال... (حتى قال في الثالثة) قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء»[2] أي ما دام يذنب ويتوب.

﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ فربَّ صغيرة أصبحت مع الاستمرار كبيرة.. لأن الاستمرار في الذنب إصرار.. والإصرار مع العلم يستوجب العقاب.. وهكذا تصبح السيئة خطيئة تحيط بخناق فاعلها حتى تهلكه ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[3]. ولهذا قيل: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

والتراجع عن الأخطاء هو بداية النضج.. لأنه يدل على قدرة في

---

(١) سورة يونس: الآية ٤٤.
(٢) متفق عليه.
(٣) سورة البقرة: الآية ٨١.

المراجعة ومواجهة الذات. وهؤلاء المتقون الذين اهتموا بتزكية أنفسهم وجملوها بهذه الصفات هم الجديرون بثواب الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ فما أحسن هذا الأجر الذي يناله المجتهدون.

وبعد عرض صورة النعيم الذي ينتظر العاملين في الآخرة.. يعود إلى الحديث عن الابتلاء في الدنيا.. فلا بد من الامتحان حتى يتميز المخلصون العاملون ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾[1]. وهكذا تعود الآيات للحديث عن أُحد لتحليل الأخطاء وفهم الحكم وإدراك السنن..

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

يحس القارىء للآيات كأن الحديث عن أُحد حتى الآن كان بمثابة التمهيد.. والآن يأتي النقد الموضوعي.. والعرض الواقعي للمعركة وكشف الحِكَم والسنن الاجتماعية.. فالآيات الآن فيها لقطات حية توضع تحت التشخيص لرؤية الخلل. ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ في هذه الآيات يعلّم الله المؤمنين من علم الاجتماع ما لم يكونوا يعلمون.

١ ـ فالقرآن يأمر بالسير في الأرض لكشف السنن ﴿فسيروا في الأرض فانظروا﴾. وينبغي أن نلاحظ أن الأمر في الآية ليس مجرد قراءة التاريخ.. وإنما الأمر بالسير في الأرض ودراسة الآثار واستنطاق المدن والأحجار.. فهل استجاب المسلمون لهذا الأمر الإلهي؟!

٢ ـ كان التاريخ مجرد سرد للأحداث فجاء القرآن فحوله إلى علم له قوانين وسنن تدعم علم الاجتماع.. وطلب من الإنسان أن يدرس هذا العلم

(١) سورة الحج: الآية ١١.

ليسخره في بناء مجتمع متماسك متطور.

٣ ـ في السور المكّية قرر في الأذهان معنى السنة وثباتها. . ولكن المسلمين عند المعاناة أفلت منهم الموضوع. . فهناك فرق بين المعرفة النظرية والمعاناة. والآيات هنا تواجههم بحزم وكأنها تقول لهم: دعوا العواطف والأماني فإن الأحداث تجري وفق سنن. . هذه السنن قد حكمت من كان قبلكم. . وهي ماضية فيكم أيضاً فانتبهوا لها.

٤ ـ الدعوة إلى تأمل العواقب: ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ ولا تصرفنا النتائج العاجلة عن العواقب البعيدة المدى. تلك التي يطلق عليها القرآن ما هو ﴿خير وأبقى﴾ فالنتائج النهاية هي المهمة ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾[1].

٥ ـ «عاقبة المكذبين»: التكذيب له مظاهر كثيرة. . منها إهمال الدين: أي فقدان الجانب الأخلاقي عند الأمة. . وعندها تعجز الأمة عن التعمير والإصلاح في الأرض. . وتقع فريسة للأمراض الأخلاقية والاجتماعية. فالدراسة التاريخية تبرز عواقب الأمة التي تكذب بالدين. والمسلمون الآن جديرون بالاعتبار.

وإهمال السنن وعدم اتخاذ الأسباب يعتبر من التكذيب بهذا الدين أيضاً. . ولعل الآية تركز على هذا الجانب بالذات. إذ أنها ترسّخ السنينة في عقلية المسلم. وعلى المسلمين أن يدرسوا أسباب ضعفهم كي يعرفوا كيف يَنْهضوا. .

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ والبيان هو التوضيح. ولهذا يصدر بيان بعد انعقاد مؤتمر ـ مثلاً ـ لتوضيح ما جرى. وفرق كبير بين من يقف في التيه حائراً يتساءل: أنّى هذا؟!

وبين من يمسك البوصلة بيده. . إنه يعرف الاتجاه السليم الذي يجب أن

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٢٧.

يسلكه للخروج من التيه.. ولقد ردّدنا مع أجدادنا: العلم نور.. ولكن حتى الآن حين نصطدم نلعن الحواجز ولا ندرك أننا لا نملك النور الذي يضيء ويكشف الحواجز فنتفاداها.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ نلاحظ أن البيان كان للناس عامة.. ولكن لا يستفيد من هذا البيان إلا المتقون.. فإنه يكون لهم بمثابة النور الذي يهدي إلى الطريق الصحيح ويمنحهم النصح والعبرة.

إن بيان الأسباب التي فيها رقيّ الأمم.. والأخذ بهذه التوجيهات يخرج الإنسان من الحيرة ويمنحه الهدى والموعظة.. والآية تصف الآيات السابقة ـ أو القرآن كله ـ بهذا الوصف.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ الوهن: الضعف في العمل والأمر.

لا تضعفوا ولا تحزنوا على ما فات.. فإن الماضي لم يعد باليد.. ومهما حزنت فلن تستطيع تغيير الماضي.. بل قد لا تستطيع إحداث التأثير في الحاضر.. ولكن بفهم الأسباب والنتائج وإدراك السنن تستطيع أن تتدارك الأمر في المستقبل.. فاهتموا بالمستقبل ولا تيأسوا فإن قيامكم الآن بأسباب التقدم سيحقق لكم التقدم والعلو على أعدائكم.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾. وهنا يحتاج الأمر إلى محاسبة للنفس. فإلى أي حد نلتزم حدود الإيمان وإلى أي مدى نهتم بتحقيق سنن الله في تغيير الأنفس.؟!

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ والقرح: جراح الحرب والمصائب التي تصيب القوم فيها. فلقد أصيب الكافرون في بدر بما يقارب ذلك كما أصيبوا في أول غزوة أحد. ومع تساوي الطرفين في القرح فإن بينهما فرق كبير. ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾[1]. وكما قال عمر (رضي الله عنه) «لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار». فكيف

(١) سورة النساء: الآية ١٠٤.

يكون صبر من يسعى إلى هدف ومصير أسمى؟!

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الأيام في الأصل زمن وقوع الأحداث. . ثم أطلقت على الأحداث نفسها. . وخاصة المعارك. . فقد كانوا يقولون عن المعارك: يوم بعاث ويوم داحس والغبراء. . والمداولة أي التصريف: مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء. . فتكون الدولة مرة للمبطل ومرة للمحق. ولكن العاقبة للحق في النهاية. . ولا شك بأن لهذه المداولة أسبابها. فلا تنتصر طائفة جزافاً وإنما بأسباب وأعمال توافرت فيها ولم تتوافر في الطرف الآخر. . والقرآن يقرر ذلك على أنه سنة من سنن الاجتماع. ثم يعرض طرفاً من الحكمة في ذلك:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾

إن سنة الله في الأرض أن ينصر المؤمنين ولكن ليس نصراً رخيصاً بلا تعب أو تضحيات فلا بد من اختبار المؤمنين وامتحانهم بالمصائب والشدائد حتى يثبت المؤمنون استقامتهم في السراء والضراء وثباتهم وجدارتهم.

ورب قائل يقول: ألا يعلم الله مسبقاً من هم المؤمنون الثابتون؟!

إن الله عنده علم الغيب والشهادة. . فهو بعلم الغيب يعلم مسبقاً من هم الصادقون. . لكنه سبحانه وتعالى لا يحكم على الناس حتى يحقّقوا علمه فيهم في عالم الشهادة وذلك من عدله ورحمته بالناس. . ولكي لا يكون للناس حجة عند الثواب والعقاب. . وإن الطالب مهما كان مجتهداً أو نجيباً لا ينجح بمجرد علم أستاذه به بل لا بد من أن يخوض الامتحان. . والطالب الكسول لا يمكن أن يقتنع برسوبه إلا إذا فشل في الامتحان، ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ وتلك نعمة يذكر الله بها عباده. . فلقد كانت الشهادة أمنية كثير من المؤمنين. طلبوها بصدق فأنعم الله عليهم بها. كذلك فإن من مصلحة البشر أن يتخذ منهم شهداء يكونون قدوة وأسوة حسنة للناس. . تؤثر سيرتهم في دفع الناس إلى التضحية في سبيل الحق. ولا يخفى ما في كلمة﴿يتخذ﴾من تكريم واصطفاء من الله لهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ فانتصارهم لا يعني أن الله يحبهم . . . فإن الله يعطي الدنيا لمن لا يحب (ولمن يحب طبعاً) إذا سعى لها سعيها وقام بأسبابها .

وهنا نلمس أن عمل الله جاء بعد عمل الإنسان . . فالإنسان إذا ظلم أبغضه الله .

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والتمحيص : التصفية والتطهير والاختيار بدرجة دقيقة . حتى لا يبقى مجال لبقاء أي دخيل . وهذا شبيه بمعنى فتنة الذهب بالنار لتخليصه من الشوائب . إن بين يدي الساعة فِتناً كقطع الليل المظلم . . يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً . . تأتي الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنجلي . . وتأتي أخرى فيقول : هذه هذه . . . »[1] .

يقال : إن الشيطان يخبّىء أقوى أسلحته للنهاية . . فكلما اجتاز المؤمن امتحاناً تعرض لامتحان أكبر . ولا نجاة لنا إلا بدوام الرهبة والرغبة ﴿يدعوننا رهباً ورغباً﴾[2] حتى نبقى في حالة توتر واستنفار فلا نأمن ولا نيأس .

فقد يغتر الإنسان بنفسه ويظن أنه ثابت راسخ . كما يروى عن رجل من بني إسرائيل أنه أحس بذلك فقال : يا رب امتحني حتى يظهر ثباتي ـ فابتلاه الله بحصر البول . . فلم يستطع الصبر وصار يمشي في الطرقات ويقول لمن تجمع حوله من الأطفال : ادعوا لعمكم الكذاب . !!

كذلك لا ينبغي أن يثبط ذلك من عزيمتنا ونستصعب الأمور . . فإن المحنة التي لا تقضي عليك تزيدك قوة . . وقد وصل عمر (رضي الله عنه) إلى مرحلة ـ بعد اجتيازه لامتحانات ـ أن الشيطان أصبح يفر من الطريق الذي يسلك فيه عمر .

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ . إن وجود الشوائب والأخلاط في الصف الإسلامي تضره وتضعفه . ولهذا تأتي البلايا والقروح فتكون سبباً لتصفية

---

(١) سنن أبي داود .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ٩٠ .

الصف المسلم وقوته ورصه. . وتكون سبباً لمحق الكافرين ومحوهم. . لأنهم يواجهون صفاً كالبنيان المرصوص وضع فيه الشجاع المؤمن في مكانه الملائم. فلم يعد هناك خلل أو زعزعة فيه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ سؤال يحمل الاستنكار. . هل ظننتم أن دخول الجنة يتم ببساطة وسهولة. . ؟!

والوقوع في الاستسهال أو الاستصعاب يدل على سيطرة النظرة الذاتية على الفكر. أما النظرة الموضوعية فهي التي تدرك ما يحتاج إليه الأمر من جهد حتى ينجح.

والنظرة الموضوعية هي انطباق الصورة الذهنية عندنا ـ حول موضوع ـ على حقيقته الخارجية.

فالاستهسال والاستصعاب مرض واحد ذو وجهين. فالذي لا يعرف الجهد اللازم بذله للحصول على هدفه. . قد يستسهل الأمر ـ وهذا يعطل العمل والجهد ـ فلما يفشل في الوصول الى هدفه يستصعب الأمر وييأس وهذا أيضاً يعطل العمل.

والآية هنا تصحح المفهوم عما يدخل الجنة. . فليس مجرد الانتساب إلى الإسلام يدخل الجنة ولا بد من الامتحان حتى تقوم الحجة على الناس ويتحقق علم الله فيكم في عالم الشهادة (أو عالم الواقع) فينكشف المجاهدون ويظهر الصابرون.

والجهاد أعم من الحرب فهو مواجهة الشدائد وخوض المتاعب.

والصبر هو الثبات وإمساك النفس وإلزامها باحتمال المشقات. والجهاد يحتاج إلى الصبر بل قيل: إن الصبر أم الفضائل لأنه ما من فضيلة إلا وتحتاج إليه.

والصبر صفة يكتسبها الإنسان اكتساباً. . فكلما ازداد علمه زاد صبره. . والصبر نتيجة للعلم فالذي يعلم ما يحتاج إليه الهدف من جهد يستطيع أن يصبر

ـ وهو أيضا سبب في زيادة تحصيله.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

فالذين لم يخرجوا في بدر كانوا يتمنون اللقاء مع الكافرين كي يجاهدوا في سبيل الله ويستشهدوا. ولكن مواجهة الأمر غير التمني.. وتوقع الشيء غير الوقوع به ـ لهذا جاء التوجيه من الرسول (ﷺ): «لا تتمنوا لقاء العدو. فإن لقيتموه فاثبتوا».

إن التربية والتعليم يهيئان الإنسان إلى درجة معينة.. إلا أن الممارسة لها أهمية كبرى. إذ تبقى ثغرات في النفس والشخصية لا تسدها إلا الممارسة.

فها هم أولاء الذين أشاروا بالخروج على رسول الله (ﷺ) يوم أُحد.. كانوا يتمنون الموت.. لكنهم أثناء المعركة طمعوا في الغنائم.. ثم تراجع منهم قسم عندما اشتدت المحنة.

حدث أن كنت أذكر مرة أمام بعض المسلمات موقف نسيبة (رضي الله عنها) يوم أحد ودفاعها عن الرسول (ﷺ). فبكت إحداهن وقالت: كلنا نفتدي رسول الله (ﷺ).. فتساءلت: هل يستطيع من عجز عن بذل ساعة يتعلم فيها حديث رسول الله (ﷺ) أن يبذل روحه فداءً له؟!

ثم تعالج الآيات الإشاعة التي راجت في أواخر المعركة.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾؟! يقول ابن القيم: [هذه الآية كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله (ﷺ)]. وإعداد الأمة الكبيرة يحتاج إلى زمن يكفي لتعميم الثبات حتى يصبح من الأمور المسلَّمة المشهورة عندها فلا يغيب عن الأذهان[1].

وهنا يعالج الإشاعة بنقد موضوعي لسلوكهم عندها ـ وهو حيرتهم

---

(١) صفحة ١٦٠ من الطبعة الثانية لتفسير المنار لمحمد رشيد رضا. (بتصرف).

وتراجعهم ـ فحتى لو كانت الإشاعة صحيحة. . فإن سلوككم خاطىء يدل على تجسيد الإسلام في شخص الرسول (ﷺ) فكأن الإسلام في نظركم قد مات بموت رسول الله (ﷺ). . !! وفصل الفكرة عن حاملها أمر جوهري. . والقرآن يعلّم أتباعه أن يفصلوا بين الفكرة والأشخاص. . بين الإسلام والمسلمين. . أن يكون ارتباطهم بالأفكار مجرداً من التأثر والانجذاب للأشخاص.

ولقد أصبح من الواضح الآن خطورة هذا الموضوع. . فالفكرة المجسدة تمكن العدو من التلاعب بها والقضاء عليها. . ولقد تحدث مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ في كتابه «الصراع الفكري». . عن بعض العمليات التي يقوم بها الاستعمار للقضاء على الأفكار في عالمنا. . مستنداً إلى ذاك المرض الذي نعاني منه وهو تجسيد الأفكار. فهو يلجأ إلى تشويه سمعة العلماء والدعاة وتلفيق التهم لهم. . لأنه يعلم أن المسلمين المعاصرين سيعرضون عن أفكار هؤلاء إن فقدوا التعاطف معهم. . وقد يلجأون إلى قتل الشخص المناضل ـ الذي يحاول القيام بالإصلاح في عالمنا الإسلامي ـ لأنهم يعلمون أن أفكاره تموت معه. وقد يجسّدون طموحات أمة في رجل فاسد أيضاً ثم يدبّروا مقتله لتموت طموحات الأمة مع مقتله!.

والآيات هنا توجّه النقد للمسلمين. . وهذا يتطلب منا وقفة تأمل:

١ ـ هل النقد ضروري؟ من المعروف أن النفس لا تحب النقد فهل يمكن الاستغناء عنه؟ والإجابة الواقعية: إنه لا بد من النقد لتصحيح الأعمال في الدنيا. وللحصول على المغفرة في الآخرة. . فالآخرة لا تنال إلا بمغفرة من الله. . ومغفرة الله لا تعطى إلا لمن يتوب. . والتوبة اعتراف بالخطأ. . ومن لا يقدر على سماع النقد لا يقدر على الاعتراف بخطئه والتوبة منه.

وأما في أمور الدنيا فإن النقد هو الركيزة الثالثة للنجاح. لأن كل أمر يتم بالاستناد إلى ثلاثة ركائز: فكرة + عمل + نقد للنتيجة. فالطبيب يكوِّن في ذهنه فكرة عن المرض وكيفية علاجه. ثم يصف الدواء ويعطي التوجيهات اللازمة ويطبق المريض التوصيات ولا بد من المراجعة لمعرفة التطورات التي حدثت وأثر

تطبيق هذه التوصيات على المرض. وعلى ضوء هذه المراجعة يعدل الطبيب الدواء أو يوصي بالاستمرار فيه[1].

٢ ـ فالنقد لا يعتبر خيانة للمسلمين وكشفاً لعوراتهم ـ كما يظن المسلمون الآن ـ بل هو ضرورة لتقويم الأعمال وتصحيحها في الدنيا. وللحصول على مغفرة الله في الآخرة.. أي: إن النقد علاج مرٌّ لا بد منه لتحقيق السلامة في الدنيا والآخرة.

٣ ـ النقد ضروري بشرط أن يكون موضوعياً يذكر الخطأ والصواب ولا يجرِّح أو يشهِّر: ويطلب فيه الرفق والأدب فلا يتحول إلى شتائم.. وكلما ازداد علم الإنسان كلما استطاع أن يقدم النقد بأسلوب فني مؤثر.. كذلك ازدادت قدرته على سماع النقد وقبوله بكل هدوء.

٤ ـ وحين يكون النقد علمياً (موضوعياً) فلا بد أن يتمّ على ملأ من الناس كي يستفيدوا منه فلا يكرروا الأخطاء.. ولهذا فإن القرآن ينقد الأخطاء في آيات تتلى إلى يوم الدين ويتأملها الناس في كل عصر.. مع أنها تتحدث عن أخطاء الصحابة بل وأحياناً فيها عتاب للرسول (ﷺ) على بعض المواقف.

٥ ـ والقرآن حين يتبنى منهج النقد الموضوعي فإنه يعلِّم المسلم أن يفصل بين الإسلام ـ كدين منزل من السماء ـ والمسلمين ـ ولو كانوا هم الصحابة ـ لأنهم نماذج بشرية تحاول تقديم صورة عن الإسلام.. وتبقى هذه الصورة مهما ارتقت معرضة للضعف البشري.. إن هذا الأسلوب يحرر المسلم من التجسيد ويعطيه التعامل السليم الواعي مع السلف الصالح ومع الأشخاص عامة.

٦ ـ إن رفع الصحابة والسلف الصالح إلى مكانة أعلى من النقد وإحاطتهم بهالة من القداسة أمر له أخطار كبيرة...

فهو **أولاً** خلل في توحيد الله.. فالله وحده هو الكامل المنزّه عن الخطأ وعن النقد.

---

(١) راجع كتاب النقد الذاتي للدكتور خالص جلبي.

وهذا يؤدي **ثانياً** إلى الجمود الفكري وتوقف الاجتهاد. ولهذا يزهد المسلم في دراسة العلوم الإنسانية لأن الصحابة لم يدرسوا علم النفس وعلم الاجتماع و. . . إن المسلم المعاصر يعيش معزولاً عن عالمه. . ويريد أن يعالج مشكلات عصره ويقدم الدعوة العالمية إلى الناس بنفس أساليب السلف الصالح. وأبرز مثال على ذلك أن أكثر البرامج الدينية التي تقدم تفتقر إلى المعاصرة وتفشل في اجتذاب الناس والتأثير بهم. . بينما الصراع الفكري يفتك في عالمنا لأنه مبني على دراسة علمية للنفوس ولأمراض أمتنا. . ونحن لا نحس بشيء مما يدور. . والمشرفون على الصراع من أعدائنا يروّجون فينا نزعة المديح والتغني بأمجاد الماضي. . فلا تكاد تجد كتاباً يحمل عنواناً فيه نقد أو تحليل لأمراضنا. . أو للأخطاء التي حدثت في تاريخنا. . وإنما عناوين مديح وتقديس وهي خطة مرسومة لتخدير الشعور فينا وشغلنا عن مشكلاتنا المعاصرة.

وحتى الآن، فأعمالنا لا تنتج ولا تصل إلى أهدافها لأننا نلغي النقد الذاتي (النفس اللوّامة) من حسابنا وحتى الآن فإن المسلم يخاف من النقد ويشعر بخطورته. . فلنستعرض الأخطار التي يحس بها المسلم وتجعله يرفض تبني أسلوب النقد الموضوعي في علاقته مع التراث ومع الأعمال الإصلاحية المعاصرة.

١ً - **الخوف على الدين.** لأنه يحس أن نقد التراث هو نقد للدين.

وهذا ناتج من الخلط بين أمرين: الإسلام: وهو دين الله المنزل الذي لم يستطع أحد حتى الآن أن يثبت أن فيه أدنى خطأ. المسلمون: وهم بشر يتعرضون للخطأ والصواب ولا يعيبهم هذا فهي طبيعة بشرية. كما أن نسبة أخطائهم إلى أخطاء غيرهم ترفع من قدرهم.

وكما قلت قبل قليل فإن هذا هو مرض التجسيد. فإذا كشف المصاب بهذا المرض بعض أخطاء الصحابة تزعزع إيمانه بالدين كله.

فالخطر الحقيقي على الدين ليس هو منهج النقد. . ولكن مرض التجسيد

لأنه من جهة يعرض حامله إلى التزعزع والردة عن الدين. . ومن جهة أخرى يعتبر خللاً في التوحيد. . وحقيقة التوحيد لا تتم إلا بإفراد الكمال لله وحده ونزع القداسة عن الأشخاص.

٢ً ـ الخوف من الحطّ من قا[illegible] الصحابة مما يضعف الاقتداء بهم.

والحقيقة أن هذا نا[illegible] [illegible]طئنا [illegible] النظر إلى الأشخاص: فالإنسان بنظرنا إما طاهر مقدس أو دنس حقير. ولا [illegible]رة لنا على التوازن بين التطرفين[1]. وهذا نابع من مرض التجسيد أيضاً ـ ويسميه مالك من نبي أيضاً مرحلة عالم الأشخاص ـ وينبغي أن نذكر أن كثيراً من المسلمين يعجزون عن الاقتداء بالصحابة لأنهم يشعرون أنهم فوق البشر (هم صحابة ولا يمكن أن نصل إلى مستواهم). ولهذا أشعر بالحاجة في كثير من الأحيان إلى التذكير بحديث الرسول (ﷺ) عندما ذكر إخوانه. . فسأله الصحابة: ألسنا نحن إخوانك يا رسول الله (ﷺ)؟ قال: «أنتم أصحابي. . إخواني ناس يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني».

٣ً ـ الخوف من كشف العورات وفتح فرصة للأعداء أن يطعنوا في الصحابة.

والحقيقة أن أعداءنا درسوا تاريخنا ـ ربما أكثر منا ـ ويعرفون ما حصل فيه من أخطاء سواء أذكرناها أم لم نذكرها. ولكنهم يدركون أمراضنا، وأساليبهم معنا مدروسة ومخططة فإن سكتوا عن الأخطاء. ومدحوا سلفنا وتاريخنا فلكي نبقى مخدّرين مُقَوْقَعين لا قدرة لنا على المعاصرة. وإن تكلّموا عن الأخطاء فلكي يحطموا ارتباطنا بالإسلام لأنهم يعرفون أننا نجسّد الإسلام في السلف الصالح.

كذلك الأمر فيما يتعلق بالعاملين للإسلام الآن والأعمال التي قامت للإصلاح في عالمنا، فهم يعرفونها ويرصدون تحركاتها بمراصدهم للصراع

الفكري. . ويخدمهم كثيراً فقدان النقد الذاتي فيها. . وسكوتهم عن الأخطاء التي فيها لا يعني جهلهم بها.

فالعلاج هو التحرر من التجسيد والخروج من عالم الأشخاص إلى عالم الأفكار. . من النظر الذاتي إلى النظر الموضوعي. . وهو منهج القرآن الذي يعرض الحسنات والسيئات بتجرد.

٤ ً ـ لعل كثيراً من المسلمين يعتبر النقد وقوعاً في مغيبة الصالحين. . .

والعلماء حين بحثوا موضوع الغيبة والجهر بالسوء. . تحدثوا عن الأمور التي يجوز فيها الكلام مراعاة لمصالح المسلمين. (كالزواج والمشاركة في عمل و. . .). فإذا أجزنا الكلام من أجل مصلحة فردية ودنيوية. . ألا نجيزه من أجل القيام بالدعوة السليمة وتحقيق بناء المجتمع الرباني الذي نصبو إليه. .؟!

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ فالإسلام جاء لتنظيم حياة البشر وتحقيق مصالحهم. . فمن ارتد عنه فلا يضر إلا نفسه. . والله غني عن العالمين.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ وهم الذين لم تزلزلهم الإشاعة لإدراكهم نعمة الله عليهم بهذا الدين. .وثباتهم يدل على عمق الإيمان بالله ونعمه الكثيرة عليهم فهم قائمون بالشكر لله والحفاظ على دينه في حياة الرسول وبعد مماته. وأنس بن النصر (رضي الله عنه) نموذج للإيمان الصحيح الذي لم يخالطه التجسيد. . فهو مستعد للموت في سبيل الله والحفاظ على دينه سواء كان الرسول حياً أو ميتاً. . هؤلاء هم الشاكرون الذين يعدهم الله بحسن الجزاء.

كذلك في الآية إشارة إلى أن المؤمن يشكر الله ويحمده حتى عند المصائب. لأنه موقن بأن الله يريد به خيراً فهو يحمده على كل حال.

وصاحب المنار رحمه الله يقول: إن في الآية إرشاداً لنا إلى أن لا نجعل المصائب الشخصية دليلاً على كون من تصيبه على باطل أو على حق. لأن من الجائز أن يبتلى صاحب الحق بالمصائب. وأما شأن الأمم فليس على ذلك ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.. ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾. وما أجل ما قال العباس في استسقائه: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة»..

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ وما دام محيانا ومماتنا لله وبيد الله فلا محل للجبن أو الخوف ولا عذر في الضعف والانقلاب على الأعقاب.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ﴾
قيل: إن في الآية تعريضاً بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد فتركوا موقعهم الذي أمرهم به النبي.

يقول صاحب المنار رحمه الله: إن لنيل ثواب الدنيا سنناً ولنيل ثواب الآخرة سنناً. فمن سار على سنن واحدة منهما وصل إليها.. والمشركون في أحد طلبوا الدنيا وأخذوا بأسبابها.. ولكن المسلمين قصروا بالمخالفة للقائد.

وفي سورة الإسراء يقول الله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك..﴾[1].

ففي الآية يقول (العاجلة) وهي غير النتائج البعيدة المدى. ولهذا فقد يعرض الناس عن الله ويعملون للدنيا فقط فيحصلون على العاجلة. لكن على المدى الطويل يظهر الخلل: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٨.

ونحشره يوم القيامة أعمى﴾[1].

﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ إن رب العزة قد كرم بني آدم وجعل عطاؤهُ لهم معلقاً على إرادتهم. . يقول صاحب المنار رحمه الله: فيا أيها الإنسان اعرف قيمة إرادتك، واعرف قيمة نفسك قبل ذلك. فالإرادة تصغّر الكبير وتكبّر الصغير، وتضع الرّفيع وترفع الوضيع، لأن أعمال الناس متشابهة ومشقتهم متقاربة، وإنما يتفاضلون بالإرادات والمقاصد.

في الآية تكريم كبير للإنسان: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾[2]. كرمه بالحرية والقدرة والإرادة. . فبالقدرة (العقل والصواب) يميز. وبالحرية يختار وبالإرادة (الإخلاص) ينفذ مستخدماً قدرته المادية والفكرية. ونتذكر هنا قول ابن تيمية: إذا توفرت الإرادة الجازمة والقدرة التامة تحقق المراد[3]. [وبتعبير آخر: الإخلاص + الصواب ← عمل ناجح في الدنيا ومقبول في الآخرة].

وإن من ملك الإرادة والقدرة يتحرك إلى هدفه ولا يعيقه شيء. والعطالة إنما تنتج عن نقص في الإرادة: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾[4]. أو نقص في القدرة: ﴿تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾[5]. والقدرات على نوعين: مادية وفكرية (فهْميّة).

في الآية: يربط الله عطاءه بإرادة الإنسان. . فما بال العالم الإسلامي يعطل إرادته ويلغيها، ويرد الأمر كله لله (من باب سلبي) وكأن الله لم يكرّمه بشيء؟!!

ولا بد أن نذكر قول الله: ﴿مَن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٠.
(٣) راجع كتاب العمل قدرة وإرادة للأستاذ جودت سعيد.
(٤) سورة التوبة: الآية ٤٦.
(٥) سورة التوبة: الآية ٩٢.

الدنيا والآخرة﴾[1]. فمن أراد الآخرة وقدّم لها أعطاه الله الدنيا والآخرة.. لأن أوامر الله تعطي النجاح في الدنيا أيضاً.

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾ يؤكد مرة ثانية على الشكر عند المصيبة.. وضمان الجزاء للشاكرين. ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.. كم من نبي قاتل معه ناس من أتباعه يصفهم الله بأنهم ربيون. ومفردها ربي: متوجه إلى الرب ومنسوب إليه. وهي بذلك تشبه معنى ربانيون، أو أن معناها جماعات كثيرة وتكون مأخوذة من النمو والكثرة: ﴿ويربي الصدقات﴾[2]. المهم أن القصد أتْباع الأنبياء الذين قاتلوا معهم.

وكأن الآية مثال على القاعدة التي سبق أن قررتها الآية: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾. والله يعرض النماذج والأمثال لتكون موضع العبرة والتأسي.

والآية تصف هؤلاء الربيون بصفات:

١ - ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾

أصيبوا لكنهم لم يسمحوا للوهن أن يسيطر عليهم. فالمؤمن لا تكون إصابته سبباً للوقوف والتخاذل عن العمل لتحسين الأوضاع. ولا تستكين عزيمته فيرضى بالذل. بل يعمل ليكشف سبب الذل حتى يخرج منه. وعند ذلك تتحول الهزيمة إلى نصر. وذلك بما قدموا من صبر ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فالصبر قوة تخرج من الهزائم والمصائب. وتحقق محبة الله.

٢ - ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾

توجهوا إلى الله في الدعاء. والدعاء تحديد للهدف. وأول أهدافهم الحصول على مغفرة الله لذنوبهم. وفي ذلك إدراك بصير لأسباب ما أصابهم..

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٧٦.

ولهذا يبدؤون الدعاء بالاعتراف بتقصيرهم وهذا دأب المؤمن: يُرجع النعمة إلى الله: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾[1]. ويُرجع الأزمة إلى ما كسبت يداه: ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾[2]. ثم طلبوا من الله أن يعينهم على الاستمرار في أداء واجبهم. ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ وأخيراً يطلبون النصر: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. إن التسلسل في الدعاء هنا يأتي في غاية الإحكام. فعلينا أن نتدارك ما مضى منا من إسراف في أمرنا.. فتجاهل السُّنَنِ من الإسراف في الأمر.. وإهمال التنظيم والانضباط والإعداد يؤدي إلى نزول المصيبة.. وعدم إدراك أهمية الثبات والمواظبة على أداء الواجب..

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ ينبغي أن نعرف كيف نتجنب الزلل والانزلاق أثناء الطريق.. فإن طريق الواجبات وعر ومزالق السهولة كثيرة.. وإن الثبات يحتاج إلى علم وحذر شديدين. فمن عرف منذ البداية طول الطريق وما فيه من عقبات.. وتأكد من أنه هو الطريق الوحيد الموصل إلى الهدف.. استطاع أن يثبت ويتابع جهده.

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ فالإسلام يهدي إلى الأخذ بأسباب الدنيا والآخرة. ونتائج البذل تأتي في الدنيا جماعيّة (بحسب أعمال الأكثرية) لكنها في الآخرة فردية فلا يضيع من الفرد أجر مثقال ذرة مما بذل. بل مع المضاعفة وهذا ما يشير إليه تعالى في قوله: ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ فإن عطاءه للمؤمنين في الآخرة بالإحسان والفضل لا بالعدل.

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [لأنهم خلفاؤه في الأرض يقيمون سننه ويظهرون بأعمالهم حكمته فيكون عملهم لله بالله كما قال فيهم «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»][3] فلقد وصلوا إلى مرتبة

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٣.

(٢) سورة النمل: الآية ٤٤.

(٣) صفحة ١٧٣ من تفسير المنار لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية.

الإحسان بتمسكهم بهذه الصفات.

وقبل أن يواجه المسلمين بذكر الهزيمة يتوجه بنداء إلى المؤمنين لينقذهم من خطر الضعف والتشكك الذي يمكن أن يصيبهم عند تذكر الهزيمة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ وقد سبق أن بدأ التوجيهات للمؤمنين في السورة ـ قبل الحديث عن الغزوة ـ بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾. إنه التحذير للمؤمنين من موالاة من لم يؤمن بهذا الدين. إنه التحذير قبل المعركة وبعدها من الضعف النفسي فإن الصراع الفكري أشد خطراً من ميادين القتال المسلح.. وإن القوة المعنوية أخطر شأناً من القوة المادية.. ولا بد من رفع معنويات الصف المسلم باستمرار وإن الكفار والمنافقين لن يتركوا فرصة هزيمة أحد تفلت من أيديهم.. ولا بد أنهم قاموا بمحاولات كثيرة لزعزعة إيمان المسلمين. كأن يقولوا: لو كان محمد رسولاً لما هزم.. ولو توليتم أبا سفيان ـ أو عبد الله بن أبي ـ لما خسرتم.. كعادة الكفار في اغتنام اللحظات الحرجة في حياة الأمة المسلمة.. كما يقولون الآن: الإسلام سبب تخلفكم.. ولن تنهضوا حتى تصبحوا أتباعاً للحضارة الغربية..

وينبغي تحصين المسلم باستمرار ضد هذه الحرب الفكرية. فما الذي ستكسبوه لو أطعتموهم؟! ﴿يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ إنه الرجوع إلى الجاهلية.. إلى الظلم والظلمات.. إلى جهل الشرك وتحكّم القوي بالضعيف.. إلى العصبية والثأر والفواحش والخمر.. فماذا تجنون من ولايتهم إلا التّراجع والخُسْران؟!!

والذين يزعزعون المسلمين الآن عن دينهم.. إلى أي شيء يدعون..؟! إنهم دعاة الانتكاس والرجعية.. يريدون ردكم إلى العري والإباحية وشريعة الغاب.. إلى وحشية الرجل البدائي ومذاهب الضياع.. (إلى الشعر المنفوش والملابس المرقعة.. وإدمان المخدرات).

وينبغي أن يدرك المسلم أن سبب ضعفه وتخلفه الآن ناتج عن إهماله للعلم والسنن. لا عن إيمانه بالله واليوم الآخر.. فإن الانتكاس عن الإيمان ضياع وخسران مبين.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ ولو تولّيتموه لنصركم. فاحذروا من المشكّكين. وتأملوا سنة الله في حياة الأمم من قبلكم ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها. ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾[1]. ولهذا أمرهم رسول الله (ﷺ) أن يردوا على أبي سفيان: «الله مولانا ولا مولى لكم». وإن من يعتمد على غير الله يقذف الرعب في قلبه.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ﴾

وهذا هو أول النصر للمؤمنين وخذلان الكافرين. والرسول (ﷺ) يقول: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[2]. إن القوة المعنوية هي أهم قوة تعطى للجيش. وإن المؤمن يلجأ إلى الله وحده فلا يخاف أحداً.. بينما المشرك يتوزع قلبه بين الاعتماد على الزعماء والتعلق بالأسباب المادية والأوهام والخرافات.. وأهم شيء أنه مهزوم من الداخل لأنه يشعر أنه على باطل.

وأبرز مثال على ذلك ما حصل في حمراء الأسد. فلقد خاف أبو سفيان والمشركون من لقاء المسلمين وارتحلوا إلى مكة.. بينما قال المسلمون (عندما قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم): ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

فالمشرك يخاف بسبب فقدان التوحيد عنده.. فهو يعطي للناس وزناً كبيراً.. وتسيطر عليه المخاوف من قوى الكون والأسلحة والأوهام.. كذلك يخاف الموت لأنه يعتبر حياته الدنيا هي كل شيء والموت هو النهاية فهو يفر من

(١) سورة محمد: الآية ١١.
(٢) البخاري ومسلم.

الموت. بينما المؤمن يعمل للآخرة.. والموت نهاية الامتحان وبداية الفوز بالجنة.

والآية تحدد النتيجة الدنيوية للمشرك: الرعب. وأما نتيجة الآخرة:

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ هي المأوى والمثوى الذي يلجؤون إليه طلباً للراحة.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ هذه الآية وما بعدها ألصق ما تكون بالغزوة. ويذكرهم بما حصل في أولها. فلقد أنجز الله لكم وعده بالنصر وكان المشركون ينهزمون. ﴿إذ تحسّونهم﴾ أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً. بإذن الله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾

حتى إذا ضعفتم في الرأي والعمل وتغلب عليكم الطمع.. واختلفتم فيما بينكم حول البقاء في أماكنكم ـ والحديث عن الرماة ـ ثم عصيتم أمر الرسول وتركتم أماكنكم بعد أن رأيتم النصر.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ﴾. ولقد ثبت مع أمير الرماة عبد الله بن جبير عشرة منهم وانطلق الباقي من الخمسين يطلبون الغنائم. وفي هذا الموقف انكشفت النوايا والإرادات التي كانت مخفية.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ﴾ صرفكم عنهم إلى المال.. وصرفكم عن التمكن منهم.. وصرف النصر عنكم ليمتحنكم ويرى مقدار ثباتكم عند الشدة والهزيمة.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ فلقد حصلوا على نتيجة خطئهم، وعوقبوا في الدنيا. إذ أن العدو انقلب إليهم فقاتلوه، وقتلوا في سبيل الله. ولقد عفا الله عنهم في الآخرة.. لأنه يعامل المؤمنين بالفضل لا بالعدل. فمن أخطأ من عباده ثم تاب إلى ربه وتحمل نتيجة خطئه في الدنيا تاب

الله عليه. وهؤلاء كان منهم الشهداء الذين سيتحدث الله عن عظم أجرهم في آيات قادمة.. وهنا ينبغي أن نتنبّه إلى أمرين:

١ ـ إن التوبة لا تعفي من نتائج الدنيا.. لأن نتائج الأعمال في الدنيا حتمية (سننية).

٢ ـ إن كون الإنسان قد حصل على مرتبة الشهادة لا يعني أنه كان في الدنيا على صواب في كل أعماله وأفكاره.. فإن الله يعفو ويغفر.. ومن اجتهد فأخطأ فله أجر.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ تذهبون بعيداً في صعيد الأرض. يصف الله المشهد ويعرضه علينا كأنه صورة حية.. كيف فوجئوا بالهجوم من ورائهم فأسرعوا في التفرّق ولم يلتفتوا إلى أحد..

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي من ورائكم. وسواء أناداهم الرسول (ﷺ) في ذلك الوقت أم لم يناداهم، فإنَّ تركهم لمواقعهم يعني تركهم لنداء الرسول (ﷺ).

ويمكن أن يكون معنى: ﴿يدعوكم في أخراكم﴾ أنه يوصيكم لمصلحتكم في الآخرة.

ولقد تفرقوا بعد هجوم العدو عليهم لأنه لم يعد بالإمكان تصحيح الخطأ الذي وقعوا فيه. إذ أن بعض الأخطاء في الدنيا يمكن تصحيحها.. وبعضها الآخر لا يمكن تصحيحه ولا بد من تحمل النتائج.. لكنها تكون عبرة للمخطىء في مرّات قادمة.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ فقد سببوا للرسول (ﷺ) غماً فعاقبهم بغم مثله.

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والغنيمة. ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ من جراح وهزيمة. فبعد الذي حصل لن يفيدكم البكاء والتحسر على الماضي.. ولكن الذي يفيد هو الاعتبار والتخطيط برؤية سديدة

للمستقبل. فلقد عرفتم أن النصر لا يكون حتماً لكم لمجرد أنكم مؤمنون أو لأن الرسول بينكم يتولى قيادتكم.. وإنما لكل موضوع سنة ينبغي كشفها والعمل بموجبها كي تصل إلى هدفك.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٥٣)﴾ فلا تعتذروا عن أنفسكم فإن الخبير لا يخفى عليه شيء.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ﴾.

والنعاس فتور يتقدم النوم. وهو ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر. وقد وصلوا إلى حالة من التعب والحزن والإرهاق الجسمي والنفسي.. فتداركهم الله برحمته وأرسل عليهم سكينة النعاس لتعيد النشاط والحيوية إلى أجسامهم ونفوسهم. فقد يصل الهم بالإنسان إلى حد يحرمه من النوم... فيعاني من الأرق والصداع.. فإن منَّ الله عليه بالنوم أحس بالرحمة والسكينة.

متى حصل لهم هذا النعاس؟ من المفسرين من قال بعد المعركة لقول الله ﴿من بعد الغم﴾ ومنهم من قال أثناء المعركة.. لما يرويه أبو طلحة الأنصاري: (غشينا النعاس ونحن في مصافّنا يوم أحد. فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه)[1].

ومن لم تكن له معاناة ولم يحمل مسؤوليات.. قد لا يشعر بأهمية هذا الموضوع.. لأن التفسير مهما كان موسّعاً فإنه يختلف عن معاناة الأمر وتذوّقه.. وصاحب الظلال رحمه الله يصف تجربة واقعية له جعلته يشعر بأهمية ما يَسْكُبُه نعاسٌ دقائق في النفس من سكينة. هذا ما حصل للمؤمنين الثابتين. وأما الآخرون:

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ هؤلاء كان أكبر همهم حماية أنفسهم من الخطر.. أو: إن أنفسهم أصابتهم بالهَمِّ لما فيها من شكوك وزيغ ورعب ومفاهيم مشوشة.

---

(١) رواه البيهقي - والبخاري في رواية أخرى.

﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ﴾ نقطة دقيقة وهامة.. إن ظن الجاهلية أن يقول الإنسان ليس الأمر بيدي ولا أستطيع أن أفعل شيئاً.. ولقد روي عن الجاهليين أنهم كانوا يقولون: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾[1]. إنها محاولة للتنصل من المسؤولية عن نتائج إفسادهم. أو أنه فساد في التصور عندهم ومفاهيم مشوشة تبلبل حياتهم.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ إن كل ما يجري بحسب سنن الله ولا يخرج عن إرادته التي قضت بذلك وإن من سنن الله أنه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ويقوموا بالأسباب اللازمة.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ إن قولهم هذا وإن كان فيه وجه من الصواب لكن في أنفسهم أمور أخرى.. مَنْبَعها ظنون الجاهلية وقيمها ومقاييسها.

والجاهلية ليست فترة معينة من التاريخ قد مضت وانتهت. وإنما هي مرض ذو أعراض حيثما وجدت الأعراض كان المرض. ولا ينبغي أن نَغْتَرّ بتغيير الأسماء.. فكم اندفعنا إلى أعمال وتصرفات.. وتكون الدوافع بقايا من الفكر الجاهلي.

وصحيح أن الأمر كله بيد الله.. لكن قولهم: ﴿ليس لنا من الأمر من شيء﴾ لم يكن في مكانه.

﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ إن ظن هؤلاء بأنهم يمكن أن يفروا من الموت ظن خاطىء. فالموت لا بد منه. صحيح أن الإنسان الآن استطاع أن يتدخل في خطر الأوبئة ويخفّف من ضحاياها.. ولكن هل يمكن لإنسان أن ينجو من الموت إن انتهى أجله..؟! إن الله يعلم مسبقاً ما سيصل إليه البشر من علم وقد حدّد لكل أمة ولكل فرد الأجل.. على ما وصلت إليه من علم.. وما أكثر الأسباب التي تؤدي إلى الموت.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٨.

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ وهو رد على قول الإنسان: (لو)، التي تفتح عمل الشيطان. فالموت لا بدّ منه..

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العَجْز أن تموت جبانا

فقضية: متى أموت؟ لا أملك التدخّل فيها. لكن الأهم من ذلك أنني أستطيع أن أتحكم في: (على أيّ شيء أموت).. فلو منعني الناس من أن أعيش على الحق، فلا أحد يستطيع أن يمنعني من أن أموت على الحق. ﴿فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾[1] من أجل هذا سيحاسب الإنسان على عمله.. لأنه يملك الحرية والإرادة والقدرة.

ولقد كان المنافقون يردِّدون هذه الأفكار.. وفي الجماعة المسلمة من تشوشه هذه المقولات والشكوك. ومنهم من يكون مخطئاً لكن يظن أنه على صواب.. فتأتي المحن والشدائد لتكشف الخطأ من الصواب وتفرز المؤمن من المنافق. وتأتي الآيات في الوقت المناسب لتعرض هذه المفاهيم الخاطئة وتحلّل دوافعها وتدحضها. وهذا هو الابتلاء والتمييز.

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ قبل ذلك كانت الآية ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ لتمحيص الأشخاص. وهنا تبرز الآية أهمية تمحيص الأفكار. وأن عملية التصحيح للأفكار ينبغي أن تستمر.. وهذا ما يسبقنا به العالم الغربي بمسافات شاسعة بنيها نحن نتجمد على أفكار ـ سواء أكانت من الماضي أم من الحاضر ـ ونعجز عن غربلة التراث والفكر المعاصر.. ولهذا نبقى في دوامة التخلف.

إن الآية تعطي أهمية كبرى لابتلاء النوايا والعواطف: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم﴾ فإن المحن هي التي تكشف عن الأولويات التي تدور في صدر الإنسان.. وفي هذه اللحظات الحرجة يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه: هل

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

حب الله ورسوله ودينه أغلى عليه من أي شيء؟! كذلك تعطي هذه الأهمية لتمحيص ما في القلوب من الأفكار ـ والقرآن كثيراً ما يستعمل القلب بمعنى العقل والفكر ـ وفرز الصحيح عن الخاطىء.

بتعبير آخر يمكن أن نقول إن الآية تؤكد على أهمية امتحان الإخلاص والصواب.. وأن المحن والمصائب تقوم بهذا الدور الهام فتساعد الإنسان على رفع مستواه في هذين المجالين.. والله أعلم.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ السرائر والوجدانات الملازمة للصدور فلا تبرحها. والإنسان يحمل في نفسه صوراً ذهنية خاطئة.. قد لا تتغير إلا بالاصطدام مع الواقع (وهو الحقيقة الخارجية) وهنا يضطر أن يعدل اتجاهه بعد أن يتم الاتصال المثمر بين الفكر والواقع.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾

هؤلاء الذين هربوا عندما هوجموا من خلفهم.. إنما وقعوا بهذا الخطأ بسبب أخطاء سابقة ولقد استطاع الشيطان أن يزحلقهم بسبب خطئهم السابق.

ومراقبة الأخطاء كيف تلاحقت شيء هام ومفيد.. فلقد بدأ الطمع في نفوسهم فدفعهم إلى ترك أماكنهم ومعصية الرسولﷺ في ذلك. وهذا ما جعل عدوهم ينقض عليهم ودفعهم إلى الهرب.. وهذا هو الذي أدى إلى الهزيمة بعد ذلك.

الطمع ← معصية الرسول ← الهرب ← الهزيمة.

وهكذا بدأ الخطأ صغيراً لكنه استتبع بعده أكبر منه.. فلا تحتقروا من الذنوب صغيراً فإنه يجر إلى ما هو أكبر منه. ونستطيع أن نستخلص من الآية قاعدة وهي:

ـ كل عمل يأتي نتيجة لما سبق من الأعمال ويكون سبباً لأعمال آتية ـ.

فإذا كنا نريد مستقبلاً أفضل فعلينا أن نفهم الماضي والحاضر ونعيد الاتصال بينهما حتى نحدد الصلة العلميّة بين الحاضر والمستقبل ونضع خطة عمل تؤتي ثمارها في المستقبل.

والأمر الآخر الذي تلفت الآية النظر إليه.. هو أن الشيطان برغم كيده وتربصه لا يتمكّن من التأثير على الإنسان إلا عندما يفتح له الإنسان ثغرة ـ بما يرتكب من أخطاء مهما كانت بسيطة ـ وعندها يدخل الشيطان ويسحب الإنسان إلى المعاصي الكبرى.. وهذه سنة من سنن الله في أخلاق البشر.

ومع ذلك كله فلقد أدرك هؤلاء الذين زلوا خطأهم وتحملوا نتائجه في الدنيا ولهذا عفا الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾ فلا تيأسوا من رحمة الله مهما كانت الأخطاء كبيرة فإن الله غفورحليم لا يعجل بعقاب المذنبين، بل يمنحهم فرصة للرجوع والتوبة. والآية تضع المؤمن بين الخوف من أخطائه والرجاء في رحمة الله. حتى لا يأمَن ولا ييْأس. وهو أسلوب القرآن في جعل الإنسان في حالة توتر وفعالية.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ يتوجه بالتحذير للمؤمنين من أن يقعوا بأخطاء المنافقين فلقد كان هؤلاء لا يؤمنون بأن لكل نفس أجل.. فكانوا يلومون أقرباءهم إذا تعرضوا لخطر السفر أو الغزو.. ويقولون: (لو)، تلك الكلمة التي تفتح عمل الشيطان. ولا تفيد إلا بإثارة الحسرة في القلوب فالموت والحياة بيد الله يجريه بحكمته وعلمه..

﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) ﴾

ولا يعني ذلك إلغاء المراجعة للأعمال.. ولكن الآيات تعلمنا أين هو الميدان الحقيقي للمراجعة. إن مناقشة الأمر على أساس: لِمَ قُتِل هؤلاء؟ لا تجدي. لأن آجالهم قد انتهت، وسيموتون بالقتل أو غيره.. ولكن ما يجدي

فعلاً هو مراجعة أسباب الهزيمة. . لماذا حصلت؟!

والموقف السليم هو أن تقوم بواجبك كما أمرت وتتخذ الأسباب ثم تتوكل على الله. . فإن حدث خلل وجّهْنَا اللوم إلى أنفسنا وبحثنا عن الخطأ. . وصحّحنا واستغفرنا. . فإن كان الأمر فوق طاقتنا سلمنا لأمر الله ورضينا بقضائه وحكمته.

والإشارة إلى الأعمال هنا لها وقعها ﴿والله بما تعملون بصير﴾. فالحياة والموت من عند الله ولا تسألون عنها. . ولكن تسألون عن أعمالكم. . فأعمالكم لها أثر كبير في الدنيا والآخرة. والله بصير ومحيط بما تعملون.

وطوبى لمن جاءه الموت وهو يؤدي واجبه ويبتغي مرضاة ربه:

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾

فلقد فاز بما هو أفضل من الدنيا وما فيها. . فاز بمغفرة الله ورحمته. . بينما الناس يجمعون المال والمتاع والشهرة والمنصب. . ثم يتركون هذا كله عند الموت. . وينقلبون إلى سخط الله إن كانوا من المعرضين عن الله وأمره. . فلماذا جمعوا؟! ولمن؟! وهل سينفعهم هذا الجمع بشيء؟! لو كان الناس على يقين من هذا لتغير سلوكهم. فلقد كان الصحابي حين يصاب في المعركة يقول: «فزت والله» ويشعر أنه قد نال أمنيته بالشهادة.

ولنا أن نلاحظ خُطُورة موضوع الجهاد والاستشهاد. . وأنه دواء فعال يستعمل ضمن شروط ويوضع في مكانه المناسب. . فإن وضع في غير مكانه تحوّل إلى سم قتال. . وفي الماضي استعمل الخوارج الجهاد والاستشهاد في غير مكانه. . فسبّبوا للعالم الإسلامي فتنة وقَرْحَة مهلكة في جنبه. . وفي عالمنا المعاصر يَؤَجَّجُ الحماس للجهاد والاستشهاد في ظروف تقتضي التفاهم والحوار السلمي. . إن كثيراً من الشيعة ـ مثلاً ـ يشعرون أن معاركهم الجارية مع إخوانهم المسلمين تعتبر جهاداً واستشهاداً. . فلئن سادت هذه الأفكار روح

الأمـة أدى بها ذلـك إلى الانتحار. . ورحمـة الله على الشـاعر الـذي قال: (عِلَّة يصبـح ما مسَّ العليـل). إن المريض يضـع جراثيمـه على كـل شيء يتناولـه. . وهكذا تصبح الأفكار الحيويَّة ـ التي كانت سبباً في صيانة الأمة وبقائها كالجهاد ـ سُمّاً يَقْضي عليها.

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ وهذه الآية أعم من التي قبلها فهي تشمل الناس جميعاً الذين ماتوا في سبيل الله وغيرهم. . وكأنها تنبّه الجميع إلى أن الموت ليس هو خاتمة المطاف. . وإنما هناك حشر وحساب وحياة أخرى خالدة فليس الموت خسارة إلا للذين لم يحسبوا للآخرة حساباً.

وتنتقل الآيات من الحديث عن أشد العـلاقات الإنسـانية عنفـاً وكراهيـة (القتـال والقتل). . لتصف أرقى أنـواع الحب بين البشر. . فيخـاطب الرسـول ويذكر معاملته وعلاقته مع أصحابه.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ وكـما أنـه ينبغي أن تقـاتـل وتثبت في المعركة. . فإنك مطالب بالودّ والحب واللين مع إخوانك وأصحـابك. . كـل في مكانه.

فمن رحمة الله بالبشر أنه منحك هذا القلب الذي يمنـح الحب واللين ولا يتوجه إلى أصحابه باللوم برغم ما أصابه بسبب خطئهم.

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ فيا أيهـا الدعـاة اذكروا هذا دائماً. ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ إنه الدَّفْعُ المستمـر من الرحمن الرحيم إلى مزيـد من الحب والرحمـة. إنه القلب النبـوي يرعـاه الله ويغسله من كل غَبَش. . إنهم أصحابك يا محمد (ﷺ)، وقد سببوا لك آلامـاً كثيرة. . وهم بحاجة ليس إلى عفوك فحسب بل إلى إحسـانك. . أن تستغفـر لهم. . أن تتوجـه إلى الله طالباً العفو عنهم. . !! حقاً إن الإحسان لجميل. .

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ إن هذه المعاملة: اللين والعفو والمشاورة. . تجمع القلوب حول قائدها. . وجمع القلوب يساعد على الثبات عند المحن.

وإن الأمر بالمشاورة هنا يثير العجب. . فالأمر موجه إلى نبيّ يأتيه الوحي من السماء. . ومع ذلك يُؤْمَر بأخذ آراء الناس ومشاورتهم. . ثم إن استشارتهم في أُحُد لم تؤدّ إلى نتيجة جيدة. فكأن الآية تقول: لا تدفعك هذه النتيجة إلى ترك الشورى. وإن القرآن يقرر أن الشورى هي أساس في الحكم الإسلامي: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[1] ويأمر بها النبي (ﷺ) حتى لا يحدث شعور عند أي قائد أو حاكم مسلم أنه يجوز له أن يتفرّد برأيه ويستبدّ به. ثم إن الشورى لها وقتها. فإذا اتخذ القرار انتهى وقت التردّد والاستشارة ولا بد من المضيّ في الأمر عند ذلك بكل عزيمة.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ فبعد الاستشارة واتخاذ القرار والمضي فيه بعزيمة تكون قد اتخذت الأسباب وأدّيْتَ ما عليك. . فتوكّلْ على الله عندها. ذلك هو التوكل الحقيقي: الطاعة وبذل الجهد في المقدور عليه. والتوكل والدعاء فيما لا تقدر عليه. والذين فهموا الأمر بهذا الشكل هم المتوكّلون على الله حقاً. . وهم الذين يحبهم الله. وقبل أن نترك الآية لا بد من وقفة عند موضوع الشورى لتأمّل بعض النقاط.

نقاط هامة عن موضوع الشورى

١ ـ الشورى قاعدة في الحكم الإسلامي: وهي سنة من سنن النجاح في سياسة البشر والآية تقرر هذه القاعدة على الجميع ابتداء من رسول الله (ﷺ). صحيح أن بعض الزعماء قد يصلون إلى درجة من سداد الرأي تشعرهم بعدم الحاجة إلى الشورى. . ولكن نسبتهم قليلة ولا يجوز إلغاء قاعدة عامة من أجل نسبة قليلة من الحكام.

ثم إن الزعماء مهما بلغوا من الدراية والحكمة فلا يمكن أن يحيطوا علماً بجميع شؤون الأمة. . ويمتلكوا الخبرة الكاملة في التخطيط لجميع جوانب حياتها. . وحتى رسول الله (ﷺ) فقد وجد رأى الحباب بن المنذر في مكان نزول الجيش يوم بدر أصوب من رأيه (ﷺ) فأخذ به، والأمر هام ولا سيما في عصرنا

(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.

فقد تفرعت العلوم والاختصاصات إلى حدٍّ لا يسمح بأن يحصلها كلها رجل واحد. . والمتخصّصون الآن أكثر خبرة في مجال تخصصهم من الزعماء والقادة. . فلا بد من الاستفادة من علمهم للوصول إلى التخطيط السليم.

٢ ـ **هل تجب الشورى في كل أمر؟** تجب في الأمور ذات الأهمية صغيرة كانت أم كبيرة وهنا نتذكّر موضوع الرجوع إلى المتخصصين ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[1].

٣ ـ **من هم الذين يستشارون؟** أهل الاختصاص وليس الناس كلهم. .

ففي موضوع التعليم مثلاً يستشار المدرسون والمشرفون على وضع المناهج والمشرفون الاجتماعيون والذين اختارهم الناس لينوبوا عنهم في تسيير دفة الأمور (كالمجلس النيابي مثلاً) وكلما كان الموضوع أكثر خطراً. . احتاج إلى مشاورة عدد أكبر من الخبراء قبل اتخاذ القرار. وينبغي الاستفادة من كل القوى الفكرية الموجودة في البلاد بحيث لا يبقى أحد من ذوي الاختصاص إلا وقد أدلى برأيه. (وأهل الاختصاص عندهم خلاصة تجارب البشرية في الماضي والحاضر).

٤ ـ **كيف تتم هذه الشورى؟** لا تهمّنا الكيفية. . فقد تتم عن طريق تشكيل مجلس نواب أو مجلس شورى أو غير ذلك. . وفي الماضي كان الخلفاء يستشيرون مجموعة من العلماء والوجهاء وكان يقال لهم: أهل الحل والعقد.

قد تتم الشّورى بإحدى هذه الكيفيات أو بغيرها. . فليس المهم هو الكيفية وإنما المهم أن لا يبقى متخصّص إلا وقد أدلى برأيه في الموضوع.

٥ ـ **ما فوائد الشورى؟**

من أبرز الفوائد:

١ً ـ **أنها تقلّل من الوقوع في الخطأ**. . لأنه يُنظر إلى الموضوع من جوانب متعددة ولا يتخذ القرار بناء على نظرة ذاتية مفردة. كذلك يستفاد من رأي ذوي الخبرة والعلم. . فيأتي القرار علمياً. . ويمكن أن نذكر كمثال: لو حكم الجرّاح

---

(١) راجع كتاب من هدي سورة النساء للكاتبة صفحة ٢٦٣ و٢٦٤ لتفسير هذه الآية.

بضرورة استئصال عضو ما من المريض.. فلا بُدَّ أن يأخذ رأي مجموعة من الأطباء قبل إجراء العملية، فلا بد من رأي المتخصص بالأعصاب والتخدير و... وبعد هذا يأتي القرار بإجراء العملية علمياً بعيداً عن الوقوع في الخطأ.

٢ً - الشورى تنمي الشعور بالمسؤولية وتثري الخبرة في الحياة.. وأضرب مثالاً على ذلك: الأب في الأسرة. حين يطرح الموضوع على أفراد أسرته ويأخذ آراءهم ويعرض رأيه ويناقشهم.. كم يعطيهم هذا الأسلوب من فرص للنضج واكتساب الخبرة والشعور بالمسؤولية عما يجري لهذه الأسرة؟

٣ً - وبالتالي فإن الشورى تضمن الاجتماع على تنفيذ القرار.. فهي توحد الصفَّ وتربط الناس بزعيمهم وتملأ قلوبهم بالولاء له لأنه يشركهم في الرأي ويعمل لمصلحتهم. وهل يمكن أن تكون طاعة الذي فرض عليه القرار من الأعلى كطاعة الذي أسهم بوضع القرار؟!

وفي قصة بلقيس في القرآن عرض طريف لأسلوب من الحكم تميز بالشورى فتمكن في الأرض حتى وصفه الهدهد: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾[1]. ثم تكشف الآيات عن بعض ما أوتيت بلقيس من القوة في الحكم: الشورى ﴿قالت: يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون. قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾[2] نلمس مقدار الطواعية والالتفاف حولها.. وقد قدموا رأيهم.. ولكن رأيها كان أصوب فلم تفرضه عليهم حتى عرضته وجاءت عليه بشهادة التاريخ والواقع: ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة **وكذلك يفعلون**﴾[3] فهذا شأن الملوك المتسلّطين وهي سنة استَخْلَصتها من تاريخ الملوك.. فكان رأيها أن ترسل لسليمان هدية ثمينة لتمتحنه.. هل هو ملك متسلّط طامع في الغنائم.. أم صاحب دعوة؟ إنها إحدى قصص القرآن الطريفة لنموذج من الحكم الرشيد أدى إلى هداية أمة ودخولها في الإسلام ببركة الشورى وسداد الرأي.

(١) سورة النمل: الآية ٢٣ وما بعدها من الآيات.
(٢) سورة النمل: الآية ٣٣.
(٣) سورة النمل: الآية ٣٤.

٦ ـ الشورى لا تعطي ثماراً إيجابية إلا في الأمة الواعية. . وأي قرار سديد سيصل إليه ناس لا يعرفون الارتباط بين الأسباب ونتائجها. ولهذا فإن (البرلمان) ومجالس الشورى لا تؤدي دورها الحقيقي في العالم الثالث.

والأمة الواعية تفرض تيار الوعي على حياتها. . فزعماؤها مُنْسَاقون في هذا التيار أو مضطرون إلى مراعاته. . ولهذا نجد أن الأمم المتقدمة لا تحدث فيها أخطاء كبيرة ـ ولا نتحدث عن جانب العقائد والقيم ـ سواء أكان الحكم فيها فردياً أم قائماً على الشورى. بينما في الأمم المتخلفة لا تجري الأمور نحو الأفضل سواء أكان الحكم فيها فردياً أم قائماً على الشورى.

٧ ـ فعملية رفع مستوى الوعي في الأمة تحتل الصدارة في قائمة الواجبات المطلوبة منا: ولا بدّ من دفع التيار إلى درجة السعي لتوفير العدد الكافي من المتخصصين فيها.

٨ ـ وهذا العمل ـ ككل عمل ـ ليس سهلاً. . ولا مستحيلاً. . ولكن يحتاج إلى بذل الجهد اللازم. . يحتاج إلى حدّ معين من الإخلاص والصواب يكفي للإقلاع. . ثم تأتي الزيادة فيهما.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾

وقد بين في آية أخرى كيف يأتي نصر الله وما هي شروطه ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾[1] وقد عرفنا سنّة إيتاء الملك وعلاقة عمل الإنسان بعمل الله. فالآية فيها تثبيت للمؤمن كي يؤدي ما عليه من واجبات ويتخذ الأسباب ثم يعلق قلبه بالله. . لا بالأنصار. . ولا ترهبه قوة الأعداء. . فإن أسباب النصر بيده مهما كانت قوة عدوه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وطالما أديتم ما عليكم فتوجهوا إلى الله في ما لا تقدرون عليه فذاك هو التوكل الحقيقي. ﴿والله يحب المتوكلين﴾ ولا ننسى الحديث القدسي عن الله تعالى ﴿فإذا أَحْبَبْتُه كنت سمْعَهُ الذي يسمع

---

(١) سورة محمد: الآية ٧.

بـه، وَبَصَرَه الذي يبصر بـه، ويده التي يبـطش بهـا، ورجله التي يمشي بهـا، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه»[1].

وقـد وصف المتوكلين حـديث لرسـول الله (ﷺ) «هم الذين لا يسـترقون ولا يتـطيرون ولا يكتوون، وعـلى ربهم يتوكلون»[2] ففسّر التـوكل عـلى أنه تـرك للأعمال الوهمية دون غـيرها. (فـالشفاء الحقيقي لا يكـون بالرقية ـ والتـطير هو التشاؤم ـ وكانوا يتداوون في الجاهلية بالكيّ) والمطلوب شرعـاً وعقلاً أن يُـطلب الشيء من سببه الحقيقي ﴿وأتوا البيـوت من أبوابهـا﴾[3] ولنا أن ننـظر في توكـل رسول الله (ﷺ) في غار ثور وتوكله يوم بدر. فلم يكن (ﷺ) عند هجرته يملك من الأسباب ما يكفي لمقاومة المشركين. ففعل ما أمر به من الهجرة وأوى إلى الغار مطمئناً متوكلاً يقول للصديق: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾[4]. أما في يوم بـدر فقد قام بالأسبـاب التي في وسعه ولجـأ إلى الله خائفـاً أن يقصر أحد من أصحـابه في أداء واجبـه. بينما أبـو بكر (رضي الله عنـه) لم يدرك المـوقف كـإدراك النبي (ﷺ) ولهذا كان هادئاً يطمئن النبي (ﷺ) ويقول لـه إن الله لن يخذلـك. . فالصِّـدِّيق لم يصل علمه إلى ما وصل إليه علم النبي في التوكل في الموقفين.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ أي يأخذ الغنيمة خفية قبل الاقتسام.

روي عن الكلبي ومقاتل أن الرماة قالوا حين تركوا المركـز الذي وضعهم النبي (ﷺ) فيـه: نخشى أن يقول النبي (ﷺ) «من أخـذ شيئاً فهـو لـه» وأن لا يقسم الغنـائم كما لم يقسم يـوم بدر، فقـال النبي (ﷺ): «أظننتم أنـا نغلّ ولا نقسم لكم؟».

وكانوا في بدر قد فقدوا قطيفة حمراء من الغنـائم ـ كما يـروي الترمـذي ـ فظن بعض ضعاف الإيمـان أن رسول الله (ﷺ) قـد أخذهـا. . وكان القـائد في

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٤) سورة التوبة: الآية ٤٠.

الجاهلية يصطفي ما يشاء من الغنائم. . فتكلم المنافقون في ذلك. وجاءت الآيات تنقّي النفوس من كل هذه الظنون. وتنفي الغلول عن الأنبياء. . وتنفر من هذا العمل القبيح وتبين أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ من مال الجماعة أياً كان قبل القسمة.

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

وكما ورد في الأحاديث يأتِ بما غل يوم القيامة يحمله على رقبته مهما كان نوعه.

ولقد تربّى المسلمون على هذه التوجيهات القرآنية حتى أنهم حين فتحوا بلاد فارس جاؤوا بإيوان كسرى وتاجه وسواريه وذلك لا يقوّم بثمن. . حتى قال عمر (رضي الله عنه): إن جنوداً جاؤوا أميرهم بهذا لأمناء. !!

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ لا مجال للمقارنة بين الأنبياء وأتباعهم وبين من حارب الله ورسوله. . الأولون قد اتبعوا رضوان الله فتحروْا من الأعمال ما يرضيه وأما الآخرون فهم الذين يسرقون ويخونون ويرجعون بغضب من الله.

﴿ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ بحسب أعمالهم وحرصهم على رضا الله أو خطئهم ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ مهما كان التفاوت بسيطاً فإن الله بصير به ويجازي عليه. وهذا ما ينعش قلب المؤمن لأن الدنيا مليئة بالظلم فيثبت على الخير والزيادة فيه.

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وكل ما تقدم من وصف الرسول (ﷺ) بالرحمة واللين وأمره بتلك المعاملة الحسنى وتنزيهه عن الغلول. . تمهيد لهذه المنّة. والآية بذلك تمسح القلوب المؤمنة التي أحزنتها الهزيمة فتذكرها بنعمة الله الكبرى: مجيء الرسول. ﴿من أنفسهم﴾ من البشر لا من الملائكة. يحس بإحساسهم ويعيش مشكلاتهم فيستطيع أن يأخذ

بأيديهم.. ويستطيعون أن يتأسوا به.

ولقد حثَّ في الآية السابقة على ابتغاء رضوان الله وحذَّر من سخط الله... وهنا يبين الوسائل التي يتحقق بها رضا الله.. ولا يتركنا حائرين في البحث عن ما يرضي الله.. فلقد أرسل الله للبشر أنبياء.. اختارهم وصحّح أخطاءهم..

١ ـ واتباع الرسول هو أول الطريق للوصول إلى رضوان الله.

٢ ـ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ التي نصّت على الأوامر والنواهي وبيان العواقب. وتلاوة الآيات له أهمية كبرى في الحصول على رضا الله. فهي التي تحقق الصلة مع الله وهي الطريقة لفهم أوامر الله وتنفيذها.. ولهذا قال (ﷺ): «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول: الم حرف ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1].

٣ ـ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم. وتنفيذ الأوامر الإلهية فيه تطهير للنفس وللأمة. وفي الحقيقة إن موضوع التزكية هام.. لأنه يتضمن تغيير ما في الأنفس.. ولا ننسى أن الله ربط تغيير أحوال الأمة بتغيير ما في الأنفس: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2]. وهو الموضوع الذي كرس الصوفيّون له جهدهم: علاج أمراض القلوب. فمنهم من خطا في ذلك خطوات جيدة.. ومنهم من خاض في البدع واشتطّ حتى تاه في الشطحات.

وقد قام رسول الله (ﷺ) بعملية التزكية لأصحابه مهتدياً بما آتاه الله من كتاب وحكمة.. وعلينا أن ننهل من هذا المعين كي نصل إلى التزكية.. ودراستنا لعلم النفس تجعلنا أقدر على فهم عملية التزكية التي قام بها رسول الله (ﷺ) من خلال توجيهاته وتعامله مع أصحابه. إن علينا أن ندرك الموضع الذي يأمر فيه بالابتسام والموضع الذي يأمر فيه بالإعراض.. متى يعلّم بالكلمة؟ ومتى

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.
(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

يعلّم بالنظرة؟ ومتى يعالج بالمقاطعة؟ ومتى يداوي بالحب؟

إن دراسة علم النفس تجعلنا نفهم كيف ربى رسول الله (ﷺ) الصحابي أنساً بن مالك وعلّمه عشر سنوات دون أن يوجه له لوماً!! صحيح أن الأوامر موجودة في الكتاب والسنة ولكن نحن لا نعرف أين نضع اللين؟ وأين نضع الحزم؟.. أين البشاشة؟ وأين يكون الإعراض..؟!

نحن كمن يملك مخزناً للأدوية.. لكنه بحاجة إلى الطبيب الذي يشخص حالة المريض ويحدد له: الدواء اللازم.. فمتى نُعِدّ للأمة العدد الكافي من هؤلاء الأطباء؟!

٤ ـ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والكتاب هوَ شرع الله وحكمه. والحكمة: معرفة الفائدة من حكم الله وأمره. أي إدراك مقاصد الشريعة.. وهذا الإدراك هو الذي يعلمنا كيف نضع الأوامر في مكانها.. ولهذا تُعرَّف الحكمة أيضاً بأنها: وضع الأمور في مكانها. والناس أمام ذلك أربعة أصناف:

١ً ـ من عرف الكتاب والحكمة. فهم العلماء ورثة الأنبياء القادرون على علاج الأمة.

٢ً ـ من عرف الحكمة وجهل الكتاب.. مثل بعض الأمم التي كشفت بعض القوانين في صيانة المجتمع ولكن تجهل أن الله أمر بها في الكتاب.

٣ً ـ من عرف الكتاب وجهل الحكمة.. كأكثر المسلمين في هذا العصر لا ينتفعون من قرآنهم بشيء.

٤ً ـ من جهل الكتاب والحكمة. فهؤلاء الضالون خسروا الدنيا والآخرة.

والمسلم لا يصل إلى الحالة السوية إلا بتعلم الكتاب والحكمة. لكنه يطيع أمر الله ولو لم يدرك بعد الحكمة منه.. لأنَّ الحكمة تنكشف عبر أجيال وتزداد بازدياد العلم.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ يذكرهم وقلوبهم كاسفة بعد أُحد.. كيف كنتم في الجاهلية وكم أنعم الله عليكم.. ما هي آثار هذه المنة في حياتكم؟ ولقد كانوا يدركون قيمة هداية الله ونعمتها.. كما تحدث جعفر بن أبي طالب عن ذلك لنجاشي الحبشة عندما سأله عن الدين الجديد.

وماذا كان العرب قبل الإسلام[1]؟! مجموعة من القبائل المتناحرة ترسف في ذل الجهل حتى كان اسمهم: الأميون، وتقتتل لأتفه الأسباب، ويقتل القوي منهم الضعيف.

ولكن المؤسف حقاً أن المسلمين قد انتكسوا إلى الضلال المبين لأنهم فرّطوا برسالة الله، والانحراف يبدأ ضئيلاً لكنه على مرّ الأيام يصبح بُعداً عن الحق شاسعاً، فَلْنَعُد إلى هذه الوسائل الأربع: طاعة الرسول، وتلاوة الآيات والتزكية وتعلم الكتاب والحكمة، فإنها الخلاص من الضلال المبين.

وفي ظل نعمة الهداية الكبرى تبدو الغنائم تافهة. والآلام بسيطة محتملة إذا كانت جزءاً من الطريق المؤدي إلى رضوان الله تعالى، ودرجات الجنة العالية، وعلينا أن ندرك دورنا من جديد في إنقاذ البشرية من الجاهلية المعاصرة. ولكن هل يسمعون لنا ونحن في هذا التخلف؟ صحيح أن البشرية ليست بحاجة لنا كي نقدم سبقاً في العلوم المادية بل هي في حاجة إلى الدين الذي يعيد القيمة للحياة. ولكن الأمم المتقدمة مادياً لن تسمع ولن تقبل منا الإسلام، حتى نتخلّص من التخلص ونرتفع إلى مستوى الحوار معها. ولا بد أن نخلص أنفسنا قبل الآخرين.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ فقد قتل في أُحُد سبعون من خيرة رجال المسلمين. بينما في بدر قتل سبعون من صناديد قريش وأسر سبعون.

---

(١) تحدث الأستاذ سيد قطب رحمه الله عند هذه الآية بتوسع عن أوضاع الجاهلية في كتابه (في ظلال القرآن).

﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ تساءلوا باستغراب فلأول مرة يفاجؤون بالهزيمة وهم مسلمون وفيهم رسول الله (ﷺ) فكيف يحصل هذا؟! وهنا يتلقّون الدرس الذي دفعوا ثمنه غالياً:

﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ إنها السنَّة في الأعمال الجماعية: إن الإخفاق ناتج عن عوامل داخلية لا عن ضغوط خارجية.

ولهذا فإن القرآن يتحدث عن ظلم الإنسان لنفسه أكثر من أن يتحدث عن ظلم الآخرين له. وفي الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياهافمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»(١).

إن النفس هي المنطلق الأول في الصلاح والفساد.. وكلما ازداد وعي الإنسان وعلمه كلما شعر بالمسؤولية أكثر وأصبح قادراً على الاعتراف بخطئه.. بينما الأطفال هم الذين يضَعُون المسؤولية على الآخرين.. ومن لا يقدر على الاعتراف بخطئه لا يقدر على التوبة.

إن الفهم الموضوعي يربط بين الأسباب والنتائج.. فالحاضر هو نتيجة للماضي وسيكون سبباً لما يأتي في المستقبل.. ويربط بين الأحداث وما في الأنفس ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾. فمن لم يعجبه الواقع الذي هو فيه فعليه أن يغير نفسه ويسعى إلى تغيير الآخرين.. وقبل أن يغيّر عليه أن يقوم بعملية تحليل وربط بين الأسباب ونتائجها.. حتى يعرف ما الذي يجب أن يغيره.

هذه الأفكار العلمية السننية التي طرحها القرآن.. بدأ النّاس الآن يدركون أهميتها. فالمؤرخان (توينبي) و (ويلز) في دراستهما لعوامل انهيار الأمم قالا: إن السبب ما كان خارجياً من عدو مهاجم، وإنما لأسباب داخلية وحروب أهلية.. و(ويلز) لا يضع اللوم على العاصفة التي كسرت الشجرة.. وإنما الشجرة منخورة: و (توينبي) شبّه الحضارات التي تنهار وتموت بالمنتحر، لأنها

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم الحديث ١٨٢٨.

هي التي تقضي على نفسها ويقول: إن هذه النتيجة التي وصلنا إليها بعد مشقة.. وصل إليها شكسبير بشكل بدهي حين قال: إن انكلترا لم ولن تنحني أمام فاتح فخور إن هي لم تطعن نفسها. لكن إن هي طعنت نفسها فلن يكون هناك ما نأسَفُ عليه.

والمسلمون قد أهملوا هذه الأبحاث ولم يدركوا أنها من صلب دينهم وأن الأمر: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم﴾ كالأمر بالصلاة والزكاة ولقد جعل القرآن ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ قاعدة كبيرة تدور حولها مشكلات الفرد والأمة. ومن فهم العلاقة بين عمل الله وعمل العبد لم تستشكل عليه الآيات الأخرى.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)﴾ ولقد كان قادراً على نصركم ولكنه أراد لكم نصراً آخر... نصراً على الذات.. نصراً على الفَهْم الذاتي والنظرات الخاطئة.. نَصْراً على الجهل بالسنن.

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ لأنه ضمن السنن التي وضعها الله لحياة البشر. والأحداث ـ حتى المُؤْسِفة منها ـ يمكن أن تكون فرصة للاعتبار والفائدة ولتحقيق رؤية للأمور أوضح.. والمؤمن الفطن هو الذي يدرك مواضع الخير في الهزيمة.. والآيات تكشف عن بعض الحكم: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ والله سبحانه يعلم المؤمنين من المنافقين.. ولكن بالمحن يكشف للناس في عالم الشهادة عن مواقف الثابتين وَخَلْخلة المنافقين. فالمحن تكسر القشور وتكشف الحقائق التي كانت كامنة وراءها.

وبعد أن حَلَّل أخطاء المؤمنين في الآيات السابقة يتحدّث الآن عن مواقف المنافقين ويسلط بعض الضوء على ما يدور في أعماقهم.. وفي ذلك تنبيه هام إلى ضرورة البدء بالنفس ونقد الذات وتصحيح أخطائها قبل التوجه إلى الآخرين باللوم.

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا

﴿قَالُوا۟ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ والآية تتحدث عن الذين رجعوا مع عبد الله بن أبيّ ـ بعد أن خرجوا مع جيش المسلمين ـ أثناء الطريق إلى أحد وخذلوا الناس.. وقالوا للذين نصحوهم بالثبات والقتال في سبيل الله.. لو نعلم أنه سيحدث قتال لبقينا معكم ولكن نرى أن الأمر ينتهي بدون قتال.

﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ وهنا نجد الدقة في التعبير: فبرغم خطورة الذنب الذي ارتكبوه ـ التولي يوم الزحف وعصيان الرسول (ﷺ) ـ فإنَّ الآية لا تطلق عليهم صفة الكفر الملازم لهم بل تقول: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ وذلك كي لا يتسرع الناس في التكفير بحسب القرائن. والتكفير أمر خطير لا يجوز أن تلوكه الألسنة بكل بساطة.. ورحم الله ابن تيمية فقد قال: (أهل السنة يخطّىء بعضهم بعضاً وأهل البدع يكفّر بعضهم بعضاً﴾..

ولقد بدأ الخوارج في تاريخنا فسنّوا هذه السنة السيئة.. فكفّروا أصحاب المعاصي.. وما زال تيار الخوارج موجوداً في عالمنا.. فالمتديّنون يكفر بعضهم بعضاً، وأهل السياسة يخوّن بعضهم بعضاً. فالطرفان يوجّهان الإدانة إلى جانب الإخلاص وهو أمْرٌ يتعلق بالقلوب التي لا يعلم ما فيها إلا الله. فأي اجتراء على الله وعلى عباده...؟!

بينما نجد الإمام علياً (رضي الله عنه) قد رفض أن يكفّر الخوارج وقال: من الكفر قد فرّوا.. واعتبرهم مؤمنين قد أخطؤوا في وجهة نظرهم ودفعهم ذلك إلى البغي والظلم. إن المسارعة في التكفير هي التي تقطع الطرق أمام الحوار بين الفئات الإسلامية.. وإن الاتهام بالخيانة والعمالة هي التي تثير الحروب بين الاخوة.. ولو أمكننا أن نزحزح مجال الاتهام من جانب الإخلاص إلى جانب الصواب لكانت العواقب أسلم.. فمن من الناس لا يخطىء؟! بل إن بَعْضَ المخطئين يسجل الله لهم أجراً لأنهم اجتهدوا بإخلاص ولكن لم يصلوا إلى الصواب. إن ترك أسلوب التكفير والاتهام بالخيانة.. يفتح قنوات الحوار والتفاهم من جديد في عالمنا العربي

والإسلامي. ويكفينا ما عانينا حتى الآن من حروب لسانية ومسلّحة..

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ في الآية تهديد لهم بعلم الله وما يستتبع من عقاب. ولقد أعطاهم الله فرصة للتوبة والرجوع حين لم يطلق عليهم حكمه النهائي بالكفر. كذلك نجد أن الرسول (ﷺ) لم يُؤمر بعقابهم.. وكل من عاش ضمن المجتمع الإسلامي معلناً إسلامه فعلى الناس أن تقبل منه ظاهره وتَكِلَ سريرته إلى الله. وله ما للمسلمين، وعليه ما عليهم.. فإذا طرح أفكاراً خاطئة وُجّه إليه النقد بالدليل.. وإذا تخاذل عن البذل وُجّه إليه اللَّوْمُ وَعُومِلَ بالجفاء والإعراض. (قصة الثلاثة الذين خُلفوا في آخر سورة التوبة).

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا ﴾ وتطلق الأخوَّة هنا على قرابة النسب لا على أخوة الفكر والإيمان. وفي الآية لفتة طريفة ﴿قالوا.. وقعدوا﴾ تعطي سمة هامة في شخصية المنافق.. وهي المهارة في الكلام والقعود عن العمل.. ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير﴾[1]. وهو الأمر الذي حذر منه المؤمنين ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لاتفعلون. كبرمقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[2]. وإنه لمن المؤلم حقاً أن نرى أن مناهج التعليم عندنا تكرَّس لتخريج المتكلمين.. وأما العاملون فيخبطون بدون علم..

﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ هؤلاء يثبطون المجاهدين بعد عودتهم من المعركة.. ويطرحون أفكاراً خاطئة مستغلين ظروف المحنة لزعزعة النفوس.. وكأنهم لا يؤمنون بأن الموت حق.. وكأن الحياة هي أغلى ما ينبغي للإنسان أن يتشبث به.. والموت نهاية كل شيء.. ويرد عليهم متحدياً ومذكراً بحقيقة الموت الذي لا مفر منه:

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٩.

(٢) سورة الصف: الآية ٢.

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ حقاً إنه الرد المفحم!!

والمنافقون صنف دنيء من البشر لأنهم لا يؤمنون بمبدأ يعيشون من أجله ويموتون في سبيله.. فقد نحترم أصحاب المبادىء ـ ولو كانت خاطئة ـ لأنهم يكرسون حياتهم لمبدأ ويضحون من أجله بأرواحهم.. ولكن المنافقين حياتهم أغلى عليهم من كل شيء﴿ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة﴾ حياة من أي نوع كانت.. ذليلة أم كريمة لا يهمهم ذلك..!! وتأتي الآيات لترد عليهم ولتصحح المفهوم الخاطىء عن القتل في سبيل الله.. إن المنافقين يعتبرون هذا القتل خسارة ويتوجّهون إلى المؤمنين باللوم لأنهم عرضوا أنفسهم له.. ولكن القتل في سبيل الله كرامة وفوز للأفراد والأمم.. وعلى صعيد الدارين: الدنيا والآخرة.. ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

يقرر الله في الآية أن الشهداء أحياء.. ولكن ما نوع هذه الحياة؟ الله أعلم بحقيقة ذلك.. ولكن لنا أن نستدلّ بالأحاديث الواردة في ذلك من مثل قوله (ﷺ): «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش. تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل. فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»[1] فقد يكون القَصْدُ أن الشهيد يدخل إلى الجنة مباشرة حين يُقتل يتمتع فيها ويرزق.. بينما سائر الناس في (البرزخ) ماكثون إلى يوم الحساب..

كذلك يمكن أن نتأمل رأي صاحب الظلال رحمه الله في تفسيره للآية

---

(١) رواه مسلم.

بأن الشهداء أحياء في قلوب الناس يؤثرون فيهم ويدفعونهم إلى التأسي والبذل والجهاد في سبيل الله. والتأثير هو أهم خصائص الحياة. .

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ وكما ورد في الحديث: «قالوا: من يبلغ إخواننا أننا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب؟ فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم. فأنزل الله هؤلاء الآيات»[1].

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾. يمكن أن يكون المعنى أن هؤلاء الشهداء يستبشرون بأن إخوانهم الذين لم ينالوا الشهادة مثلهم في هذه المرة. . لن يحرموا من الأجر وأن الهزيمة لم تنل منهم فلا خوف عليهم ولا يحزنون. . فهم مؤمنون بوعد ربهم في الدنيا والآخرة ماضون في إثر إخوانهم الذين سبقوهم إلى الشهادة.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ إن فضل الله لا ينقطع عن عباده وخاصة منهم المؤمنين. فإنهم على طريق الطاعة والبذل. . والله لن يضيع أجورهم. هذه الآيات بيّنَتْ بعض فضل الله على عباده:

١ ـ فقد بيَّنَتْ أن هؤلاء الذين أخطؤوا يوم أُحُد قد تجاوز الله عن خطئهم في الآخرة.

٢ ـ وبيَّنَتْ منزلة الشهداء عند الله وما أعطوا من نعيم وأنَّهُمْ أحياء يرزقون من الجنة.

٣ ـ في الآية عزاء لكل مؤمن أصيب في قريب له قتل في سبيل الله. والمؤمن يجد استرواحاً وعذوبة في هذه الآيات تتلى عليه عند المصيبة فتكون برداً وسلاماً وتنطق بالحمد لله.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

وأعود إلى النقطة الأولى فإنها تعطينا أسلوباً علمياً في تقدير الأخطاء.

فلقد أخطأ الرماة في ترك أماكنهم.. وأخطأ المنافقون حين رجعوا بثلث الجيش قبل المعركة. ولكن هل هؤلاء وهؤلاء في مرتبة واحدة؟!

إن الأخطاء لها موازين توزن بها. ولا بد أن ينظر إليها من جانبي الإخلاص والصواب. فالمخلص حين يخطىء يدفعه إخلاصه إلى طلب الصواب. ولهذا فإن الرماة حين أخطؤوا بترك أماكنهم ثم رأوا المشركين يكرّون عليهم عادوا فقاتلوا في سبيل الله واستماتوا.. فهؤلاء عفا الله عنهم ومنحهم منزلة الشهداء في الجنة.

ولكن المنافقين خطؤهم في جانب الإخلاص.. فهم ينتقلون من خطأ المعصية إلى خطأ التبرير.. إلى خطأ زعزعة الصفوف وحملات التشكيك. فهؤلاء يقول الله عنهم: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾.

ولهذا لا يجوز لنا أن ننتقص من قيمة إنسان لمجرد أنه ارتكب خطأ.. فلا نسارع في التكفير أو الاتهام بالخيانة في علاقاتنا الأخوية أو الاجتماعية. وإنما نناقش الأمر على أنه خطأ في معرفة الصّواب.. فمن كان مخلصاً عاد إلى الصواب.. وإلا فإنه سيوغل في الأخطاء ويزداد بعداً حتى يفضح نَفْسَه.

وليس معنى ذلك أن نَسْكُتَ عن الأخطاء ونبرّرها لأن هذا يؤدي إلى البعد عن الحق ويزيد في الأخطاء حتى يوصل إلى الضلال. وإنما العبرة في منهج القرآن أنه:

ينتقد الأخطاء ويحلل أسباب الهزيمة دون تكفير ولا تبرير.

وقبل أن نترك الآيات يمكن أن نلاحظ أن الآية:

﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾

وقد سبقتها ـ الآية رقم ١٥٧ من هذه السورة ـ أية تشبهها في الحث على الجهاد في سبيل الله :

﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ .

وهذا يذكرنا بالآيتين الواردتين في سورة البقرة : في الحض على الدعوة ونشر العلم :

﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله﴾[1] : ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار . . ﴾[2] فيمكن أن نقول : إن آيتي البقرة في الأمر بالدعوة والتعليم وذلك ببيان خطورة كتمان العلم . وآيتي آل عمران في الحث على احتمال الأذى والصبر على ما يلاقي في سبيل الدعوة من قرح أو استشهاد . . فكأن آيتي البقرة تكليف للمسلم بحمل رسالة الدعوة والتعليم ، وآيتي آل عمران شحن ودفع للمسلم كي يتحمل عقبات الطريق ولو تطلب ذلك روحه لأداء هذه الرسالة .

وينتقل من الحديث عن الشهداء إلى الحديث عن الذين لم يلحقوا بهم بعد . . أولئك الذين هم على طريق الطاعة والاستجابة لله والرسول . أولئك هم المؤمنون الذين قال عنهم : ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ .

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾

والآية تشير إلى استنْفار الرسول (ﷺ) للمسلمين كي يخرجوا إلى حمراء الأسد لإرهاب المشركين . . في اليوم الثاني من غزوة أحد . وقد سبق أن ذكرنا

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٧٤ .

قصة هذا الخروج قبيل تفسير الآيات المتعلقة بغزوة أحد ﴿وإذ غدوت من أهلك﴾. .

في الآية تطمين للمؤمنين بأنهم يتحركون في رقابة الله ورعايته وتثبيتاً لهم في طريق البذل والجهاد. والمؤمنون إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً. . بينما يزداد الكفار والمنافقون بعداً. . والآيات بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فهي تخاطب كل المؤمنين على مر العصور حين يواجهون البلاء والمحن. . فتشد من أزرهم وتذكي نار العزيمة في قلوبهم. .

والآية تمثل أسلوباً من أساليب استخراج الطاقة الكامنة في الإنسان. فبالرغم من إصابة المؤمنين بالقرح في أحد يؤكد الرسول (ﷺ) أن لا يخرج معهم إلا من شهد المعركة في أحد. . فلما استجابوا ـ بالرغم من جروحهم وإصابتهم ـ دل ذلك على قوة التماسك والانضباط. . ومقدار العزيمة التي يملكها هؤلاء. . وهي مؤهلات المجتمع القوي الفتيّ. . لقد برهن لهم الرسول (ﷺ) بشكل عملي على قوتهم. . وعلى ما يملكون من طاقات لو استخرجت لما وقف في وجهها شيء. حقاً لقد كانت عملية مدهشة في نتائجها. . فلقد عادت القوة والحياة إلى نفوس المؤمنين. . وأرهبت المشركين.

هذه الأحداث تذكر في القرآن لا لمجرد سرد القصص. . لكنها تنبه إلى السنن التي استخدمت في شحن المجتمع ودفعه إلى الأعلى. . وإن الوسائل التي استخدمت في صنع جيل الصحابة ما زالت موجودة بين أيدينا. . ولكن متى نتنبّه إليها ونسخّرها؟!

نحن بحاجة إلى إيجاد النخبة الكافية من الذين يضحون في سبيل الله ويتحملون المشقات في جهادهم لرفع مستوى الفهم والالتزام في المجتمع المسلم. تلك هي معركتنا اليومية.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

والإحسان أعلى من التقوى. . لأن التقوى هي الالتزام بالفرائض. . بينما الإحسان هو الزيادة. فكأن الآية تلوح للمؤمنين كي يرتقوا إلى الدرجة الأعلى

حين تبدأ من الإحسان. . ثم تعطف على المتقين فلا تقطع أملهم. . فإن من بلغ التقوى يمكن أن يرتقي إلى الإحسان.

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾

وقد مر معنا خبر معبد الخزاعي الذي مر بالمسلمين أولاً، ثم مر بالمشركين، فخذَّلهم، وأرهبهم من جيش المسلمين. . فقذف الله في قلوبهم الرعب. . ولكن أبا سفيان أراد أن يرهب المسلمين ويزعزع معنوياتهم. فأرسل مع ركب مُرْتحل نحو المدينة رسالة ليبلغوها إلى رسول الله (ﷺ) ومن معه ووعدهم على ذلك بمكافأة. وفحوى الرسالة: أن أبا سفيان قد جمع لكم ولن يدعكم حتى يستأصل شأفتكم. . فقال (ﷺ) ومن معه: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

فالمحن تزيد في إيمان المؤمن وتعمق صلته بالله. . فهو يدرك طبيعة الطريق وأن الله يمتحنه ليرفع قدره في الدنيا والآخرة: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾[1].

والمؤمن يبذل كل ما في وسعه ويقول ـ وهو يؤدي واجبه ـ حسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد روى صاحب تفسير المنار رحمه الله سبباً آخر لنزول الآيات يمكن اختصاره في أن أبا سفيان عند انصرافه من أُحد واعد المسلمين على اللقاء في بدر من العام القادم. . وخرج أبو سفيان مع أهل مكة لهذا الموعد حتى بلغ عَسفان، فألقى الله الرعب في قلوبهم، فلقي نعيم بن مسعود فحمله رسالة للمسلمين يثبّطهم فيها عن الخروج، ووعده بمكافأة على ذلك. فأتى نعيم المدينة

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٢.

فوجدهم يتجهزون للخروج فثبّطهم وقال لهم: قد جمعوالكم عند الموسم فوالله لا يَفلت منكم أحد. فوقع هذا الكلام في قلوب قوم منهم فقال (ﷺ): «والذي نفسي بيده لأخرجنَّ ولو وحدي» فخرج ومعه سبعون راكباً يقولون: «حسبنا الله ونعم الوكيل» فأقام ببدر ثمانية أيام فلم يلقوا أحداً لأن أبا سفيان رجع بالجيش إلى مكة فسمّاه أهل مكة جيش السويق: (خرجتم لتشربوا السويق) وباع المسلمون، واشتروا في سوق بدر، فغنموا، وربحوا.

والآية تقرر أن الإيمان يزيد وينقص. . ، وعلينا أن نبحث عن الأسباب التي تغذّيه وتنمّيه. والغزالي رحمه الله يتحدث في كتابه: إحياء علوم الدين عن ثلاث حلقات مترابطة: العلم ـ الحال ـ العمل.

فالعلم بالله وبما يرضيه يُحدث في النفس **حالاً**. . يترتّب عليها **فعل** ما يرضيه.

والعبارة التي نكررها [الفهم غير العمل. . ذلك هو اليقين ذاته] إن كلمات الغزالي تلقي ضوءاً على العبارة وتصور مراحل العلم كيف أنه يبدأ كالبذرة في النفس ثم ينمو ـ كما ينمو الجنين الذي بدأ من خلية واحدة ـ فعندما يسيطر على النفس تظهر آثاره في السلوك. . وإن نمو العلم هو نمو الإيمان وزيادته. . فمن الوسائل التي تزيد الإيمان نمواً: النظر والتفكير في آيات الكتاب وآيات الكون. ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ والمؤمن قد يستجيب للأمر الإلهي وهو يشعر بمشقته وصعوبته في البداية. . لكنه ما إن يبدأ ويوطن نفسه على بذل الجهد في سبيل الله حتى يتلقى العون والتخفيف من الله ﴿إن مع العسر يسراً﴾[1] فهؤلاء المؤمنون قد خرجوا برغم الآلام النفسية والجسدية التي كانوا يعانون منها. . خرجوا وقد وطنوا أنفسهم على احتمال مشقة السير ومجالدة العدو. . فهزم الله أعداءهم من الداخل ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾[2] وانقلب

(١) سورة الانشراح: الآية ٦.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

المؤمنون بمعنويات قوية جديدة.. فقد حرصوا على نيل رضوان الله فأعطاهم الله من فضله العظيم.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

وفي ذلك تنبيه إلى خطورة الحرب النفسية.. وإعطاء المناعة للمؤمنين ضد جراثيمها.. وقد كشفت الحادثة عن التباين بين الفريقين من حيث الحصانة ضد الحرب الفكرية.. ولكن ما بالنا الآن وقد فقدنا كل حصانة..؟!

لقد تركنا ولاية الله ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].. ووقعنا في ولاية الشيطان الذي يوقع الرعب في قلوب أوليائه.. حتى لم يعد للعالم الإسلامي ـ ذلك العملاق الذي كانت تهابه الأمم ـ أي وزن أو أثر في الحياة المعاصرة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا: أن رسول الله (ﷺ) قد أمر نعيم بن مسعود بعد ذلك في غزوة الأحزاب ـ وكان نعيم قد أسلم ولم يعلم بإسلامه أحد من المشركين أو اليهود ـ أن يخذل الأحزاب.. أي أنه أمره باستعمال الحرب النفسية ضدهم.. وقد قام بذلك نعيم، ونجح في الإيقاع بين المشركين واليهود وجعلهم ينسحبون من المعركة. كما نجح معبد الخزاعي في ذلك عند حمراء الأسد. لأن الإنسان إذا تغير ما بنفسه يتغير موقفه أيضاً..

وليست الحرب النفسية مجرد صيحات وتهاويل وتهديدات نصُوغها في خطب حماسية تلقى هنا وهناك.. ولكنها عمل فني علمي مبني على معرفة بأحوال العدو ومواضع أمنه وخوفه.. والثغرات الفكرية والاجتماعية الموجودة في بنيانه. وإنه لمن المؤسف حقاً أن نتخلف في إدراك أبعاد الحرب الفكرية وكيفية استخدامها[2].. إضافة إلى ضعف الحصانة ضدها. وباختصار: إن ما لدينا من الإيمان والعلم لا يكفي لإخراجنا بسلام من الحرب الموجهة ضدنا.

---

(١) سورة يونس: الآية ٦٢.

(٢) يراجع كتاب الصراع الفكري لمالك بن بني رحمه الله فهو مفيد في بيان بعض أساليب هذه الحرب.

والآية: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه﴾ تحتمل معنى: أنّ الشيطان يملؤ حياة أتباعه بالمخاوف المزيفة الوهمية.. ويمكن أن يكون المعنى: إن الشيطان يحاول أن يجعل أولياءهُ مصدر خوف ورعب.. فمن كان غافلاً جاهلاً استطاع الشيطان أن يخذله ويخوفه.

وشأن المؤمن أن يكون ذاكراً متبصراً.. والمتبصر يكمل النقص ويتجنب الخطأ ويستنير بالعلم فلا تسيطر عليه الأوهام ولا يستحوذ عليه الشيطان.

﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ في الآية ميزان للإيمان.. فمن كان يؤمن بالله وحده لم يخف من أحد سواه.. [فإذا عرضت لكم أسباب الخوف فاستحضروا في نفوسكم قدرة الله على كل شيء وكونه بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وتذكروا وعده بنصركم.. وأن الحق يدفع الباطل فإذا هو زاهق.. ثم خذوا أهبتكم وتوكلوا على ربكم فإنه لا يدع لخوف غيره مكاناً في قلوبكم][1].

وفي الوقت الذي يتعلم فيه الطفل في عالمنا أن يخاف من كل شيء.. فإن رسول الله (ﷺ) كان يعلم ابن عباس (رضي الله عنه) وهو طفل ألا يخاف من أحد إلا الله ويرسخ في قلبه معاني التوحيد في كلمات بليغة وجيزة: «احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك..»[2].

ويأتي بعد ذلك أنسب ختام للحديث عن غزوة أُحد فنجد في الآيات ثلاث نقاط:

١ً ـ تسلية الرسول وأن لا يحزن لكفرهم.

---

(١) من كلام الإمام محمد عبده رحمه الله في تفسير الآية صفحة ٢٤٥ من المجلد الرابع من تفسير المنار.

(٢) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

٢ً - الإملاء للكفار.

٣ً - الكشف عن الحكمة من وراء هذه الأحداث وهي تمييز الخبيث من الطيب.

وفي الآيات الثلاث القادمة التي يتحدث فيها عن الكفار يتفنن السياق في ذكر ألوان العذاب (عظيم - أليم - مهين). تثبيتاً للمؤمنين وإنذاراً للكافرين حتى لا يغتروا بالنصر المؤقت ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾.

لا تحزن ولا تيأس من الدعوة إلى الله حين ترى الذين يسارعون في الكفر منساقين وراء الدعاية له.. فمن الملحوظ أن الاستجابة لدعوة الله في البداية تكون أبطأ من الاستجابة للباطل.. لأن الباطل يساير الهوى ويرضي الشهوات.. فلا يحزنك هذا فإن للباطل فورات ثم ينتصر الحق.. إن النتائج السريعة قد تخدع ولكن العبرة في الأمور بخواتيمها والله سبحانه يقول: ﴿والعاقبة للتقوى﴾. وهؤلاء الذين يسارعون في الكفر لن يضروا الله ودينه بشيء فالإسلام باقٍ وستكون له الغلبة في النهاية ﴿كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي﴾[1].

ولا بد للبشرية التائهة أن تثوب من غفلتها وتبحث عن خلاصها.. ويبقى هؤلاء الذين سارعوا في الكفر والدعاية له محرومين من حظهم في الآخرة.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ ﴾ فهو يعطيهم بعض مكاسب الدنيا جزاء لقيامهم ببعض أسبابها.. وذلك من عدل الله فلا يضيع عمل إنسان ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾[2] ولو كان كافراً.. فإنه يعطي في الدنيا ثمرة سعيه.. لأنه لا حظَّ له في الآخرة ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٢١.

(٢) سورة الزلزلة: الآية ٧.

الدنيا﴾[1] ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ يتناسب مع عظم سرعتهم في الكفر وكثرة بذلهم في الشر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا ﴾

إن الذين أعرضوا عن الإيمان بعد أن قُدِّم لهم.. وجاءتهم فرص الهداية فرفضوها واستبدلوا بها الكفر والضلال.. لن يضروا إلا أنفسهم إذ عرضوها لسخط الله وعقابه ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ ﴾ اشتروا الألم بأموالهم وجهدهم.. فما أغباهم من تجار..؟!

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ ﴾ والحسبان هو الظن والتوهم.. فلا تغتروا بأن الكافرين كثيراً ما يتنعمون في الدنيا فإنما هو إملاء وإمهال.. إنه يتركهم سادرين في غفلتهم.. وإن من طبع الإنسان أن يغفل عند النعم.. بينما توقظه الشدائد والمحن وتتحدى فكره ونشاطه.

وهؤلاء يمهلهم الله ولا يعجل بعقابهم فلا يستفيدون.. ويزداد إثمهم.. والذنوب والمعاصي كالجراثيم تحتاج إلى فترة حضانة كي ينكشف المرض وتفتك بالجسم. ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾ يتناسب مع تبجحهم بالكفر واغترارهم بمراكزهم وسلطانهم.. وتعاليهم على المؤمنين بأن الدنيا ملك أيديهم..

وهكذا تأتي هذه الآيات الثلاث وفيها تنبيه للمؤمنين إلى أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر وثبات ومثابرة على البذل دون انقطاع أو تأثر بتخاذل الناس وانجرافهم مع الأهواء.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ ﴾

في الآية ذكر لبعض سنن الله وأهمها الابتلاء لتمييز الخبيث من الطيب:

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٢٠.

وصاحب المنار رحمه الله يذكر عند تفسير هذه الآية أن للمصائب والمحن فوائد فردية وجماعية . . فمن فوائدها الفردية :

١ ـ تساعد الإنسان على كشف حقيقة نفسه. فقد يغتر الإنسان بنفسه ويظن أنه قادر على النجاح عند الامتحان. ولهذا نهاهم الرسول (ﷺ) عن تمني لقاء العدو لأن المعاناة غير الكلام .

٢ ـ المحنة ترفع ضعيف العزيمة إلى مستوى القوة ولهذا قالوا: المحنة إن لم تقض عليك زادتك قوة. لأنها تعطي الإنسان تجربة وتكشف له عن قدراته . وتزيد من قوة احتماله

ومن فوائدها الجماعية :

أ ـ أنها تكشف عن المنافقين فإذا عُرفوا لم يفض المسلمون إليهم بأسرارهم .

ب ـ كما أن الجماعة تعرف وزن قوتها وما لديها من قدرة وإمكانات فتستطيع أن تميز بين من لديه الاستعداد لأن ينحاز إلى العدو ومن يتخاذل وبين من هو مصاب بضعف وخلخلة فلا يستطيع أن يثبت على اتجاه .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾

قد يخطر في البال أن أقرب وسيلة للتمييز والكشف هي أن يخبرهم بشكل مباشر عن المؤمن والمنافق ولكن ليس من سنن الله أن يطلعكم على الغيب . . كما أنه ليس من سننه أن يترك الناس دون تمييز. ولو أطلعهم على الغيب لذهبت الفائدة ولما حدث التمحيص. كما أن الإنسان خلق بكيفية معينة غير مهيأة للاطلاع على الغيب . . ربما تحطم لو اطلع على الغيب . . والإمكانات التي منحها الله له إنما هي لكشف سنن الكون وللقيام بالتسخير والخلافة في الأرض.

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ يصطفي من رسله من يشاء فيطلعه على بعض أمور من الغيب. وبعد كل هذه التوجيهات . .

وبعد أن حلل المواقف وتحدث عن تمحيص المؤمنين.. وعن الكفار والمنافقين.. يتوجه إليهم بكلمة الختام.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

وذلك مقابل العذاب (العظيم الأليم المهين) الذي سيقع على هؤلاء الذين انتصروا عليكم وظنوا أنهم قد ربحوا وما هي إلا جولة عابرة سرعان ما تنجلي عن العواقب النهائية التي تنحاز إلى صف المتقين.

وقبل أن نترك الحديث عن غزوة أحد يجدر بنا أن نتأمل هذه التوجيهات الهامة التي نزلت بمناسبة معركة مسلحة لنستفيد منها في المعركة الفكرية القائمة في عالمنا.. فالصراع الآن يتركز في ميدان الأفكار أكثر.. والحرب الفكرية قد تطورت واستخدمت التقدم العلمي على أوسع نطاق.. ونحن لا نكاد نحس بخطرها..

إن هذا التحليل لمواضع الضعف والثبات.. وعمليات التمحيص للأفكار وتنقيتها.. وابتلاء ما في الصدور.. والتصحيحات والتوجيهات..

إن هذا كله ضروري في ميدان الصراع الفكري.. فذلك ميدان له مجاهدوه ومرابطوه.. بل وشهداؤه..

فالآيات بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.. وهي للحياة اليومية الواقعية.

الفصل الخامس

من مواقف اليهود



وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ
شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ
فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ
لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى
بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن
كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ
ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ
وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ
فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن
يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

من مواقف اليهود

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ الآيات السابقة كانت في الجهاد أي بذل النفس. والآية الآن عن بذل المال. فكما أن بذل النفس يميز الخبيث من الطيب فإن بذل المال يميز بين المتيقن والمرتاب.

وقد قيل: إن الآية نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا صفة النبي (ﷺ) فهو بُخْلٌ بالعلم وببيان الحق. وقال آخرون: إنها نزلت في مانعي الزكاة والصدقة.. والأولى أن تبقى عامة. والبخل يكون في كل شيء. . في العلم. . في الرفق والتسامح. . في المساعدة. فكل نعمة منحنا الله إياها تحتاج إلى زكاة وإنفاق. ودعاء المَلَكين: «اللهم أعط منفقاً خلفاً. اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[1] يمكن أن يتحقق في المال وفي الصحة وفي السعادة.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهذا ما جعل بعض المفسرين يرجحون أن الآية في المال. . استناداً إلى الحديث الذي يصور مانع الزكاة وقد

(١) متفق عليه.

طوقه يوم القيامة شجاع أقرع (أي ثعبان) يقول له: أنا مالك.. أنا كنزك.. وتلا هذه الآية[1].

ولكن اللفظ ﴿ما بخلوا به﴾ عام.. ويمكن أن يكون الحديث نموذجاً لأحد أنواع البخل. وعلى كل حال فإن المؤمن مطالب ببذل ماله ونفسه في سبيل الله ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾[2] وأن يكون رضا الله أغلى عليه من كل شيء. ويؤدي الشكر لله بالبذل من كل ما أنعم الله عليه به.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فما الفائدة من الحرص على المال والبخل به طالما أنك ستموت وتتركه..؟! والله هو الذي يرث الأرض ومن عليها..!! فلمَ الخوف من الإنفاق؟!.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾ فالمال لا يذهب معكم عند الموت.. وإنما هي الأعمال فاحرصوا على الإكثار منها وعلى أن تكون خالصة لوجه الله.. فإن الناقد خبير..

والآية تعتبر صلة وصل بين ما سبقها وما بعدها.. فهي مرتبطة بما قبلها لأن تنبه إلى النوع الثاني من الجهاد: الجهاد بالمال. وتتحدث عن البخل وقد عرف اليهود بالبخل.. فتمهد بذلك لما بعدها من حديث عن بعض أخطاء اليهود.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾

ذكر المفسرون سبب نزول الآية وهو أن أبا بكر دخل مدارس اليهود (المكان الذي يتدارسون فيه)، فوجدهم قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم. فقال أبو بكر: ويلك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً (ﷺ) رسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

التوراة. فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله تعالى من فقر وإنه إلينا لفقير. وما نتضرع إليه كما تضرّع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً عنا لما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، وإنه ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً عنّا لما أعطانا الرّبا. فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدوّ الله. فذهب فنحاص إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي.. فسأل رسول الله (ﷺ) أبا بكر فأخبره أنه قال قولاً عظيماً.. فجحد فنحاص وقال: ما قلت... فأنزل الله الآية تصديقاً لأبي بكر (رضي الله عنه)، وأنزل في أبي بكر وما بلغه من الغضب ﴿ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾[1] وهي بعد آيات.

﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ سنحفظ أقوالهم هذه حتى يجازوا بها.. وقد كشف العلم الآن أن كل الأصوات وكل ما يقال محفوظ في طبقات الجو وإن لم يستطع الإنسان حتى الآن أن يلتقطها ويعيد ترتيبها.

﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ إن مثل هذا الكفر ـ سخريتهم بالقرآن ـ ليس بدعاً من أمرهم فقد سبق لهم أن قتلوا الأنبياء بغير حق.. فالجريمتان سيان في العظم والفظاعة. ونلاحظ أنه ينسب أعمال أجدادهم إليهم..؟! ـ قتلهم الأنبياء ـ فما هو المغزى؟!

يمكن أن يكون ذلك إشارة إلى محاولاتهم الكثيرة لقتل محمد (ﷺ).

ويمكن أن تكون إشارة إلى رضاهم بما فعل سلفهم.

ولكن نحسّ أيضاً بأن القرآن يشعر بوحدة حياة الأمة.. فهي كائن واحد له طفولة وشباب وهرم.. وكما يتأثر سلوك الإنسان بالأحداث التي حدثت له في طفولته.. تتأثر الأمة بتاريخها.. فحاضرها ناتج عن ماضيها ومستقبلها مرتبط بحاضرها..

---

(١) أخرجه ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم.

وعملية نَبْش الماضي واستحضار أحداثه إلى حيز الـوعي . . وفرز الأعـمال الصحيحة عن الأخطاء في دراسة تاريـخ الأمة أمـر ضروري جداً للخـروج من أسر التراث . . إن التراث يمكن أن يصبح قيداً ثقيلاً للأمة يعوق حـركتها مـا لم يتعرض للدرس والتمحيص . .

وليس ذلك خاصاً ببني اسرائيل . . بل إنه مـرض قد يصيب كـل الأمم . فاعتبروا يا أولي الأبصار . . فإن الله قد جعـل الماضي حقـلاً للنظر والاعتبـار . . كي لا تتكرر الأخطاء باستمرار . .

﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ والناس يظنون بالله الظلم . . يحدث هذا في لاشعورهم ويعبرون عنه أحياناً بأقوالهم عندما يردون إلى قدر الله النتائج الوخيمـة لتصرفاتهم . ولهذا تأتي التأكيدات باستمرار لتنفي الظلم عن الله وتنسب العـواقب إلى عمل الإنسان وكسبه . . وإن الله لم يترك الإنسـان دون تنبيه وتعليم فقـد علمه وبيّن له في القـرآن أن كل أمـر يجري وفق سننـه ـ ولقد سبق أن تكلمنـا عن ذلك عند قوله تعالى في نفس السورة : ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾[1] .

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾ قالوا ذلك ليبرروا عدم استجابتهم للرسول (ﷺ) . ولقد كان القربان في الماضي : بأن تجمع الصدقـات فإن تقبلهـا الله أرسل نـاراً فتحرقهـا . وهكذا نجد المعاصرين لمحمد (ﷺ) من اليهود يعودون إلى مقياس الماضي بشأن التصـديق بالـرسل . ويـرد عليهم الله سبحانـه بتذكـيرهم بما فعـل أجدادهم في الماضي بالرسل الـذين جاؤوا بـالبينات التي طلبـوها . . ويعتـبرهم مشتركـين مع أجدادهم في الجرم :

﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٨ .

﴿قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾؟!

ويلتفت إلى الرسول (ﷺ) مواسياً:

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

ويمكن أن تكون الزُبُر هنا هي المواعظ الزاجرة.. والكتاب المنير: الشرائع الهادية إلى الخير. وحين يتذكر المسلم أن الأنبياء رمز الطهارة والسمو قد أوذوا بهذا الشكل.. فإن هذا يعزيه ويمنحه الصبر والثبات.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فيا أيها الدعاة لا تحزنوا لما يصيبكم في هذه الدنيا من أذى ولما تَتَعَرّضون له من جحود ونكران مقابل بذلكم وتضحيتكم.. لا تحزنوا فإن الدنيا عرض زائل تمتحنون فيها وسرعان ما تنقضي ويأتي الموت ثم الجزاء بعد ذلك:

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فلا تعلقوا أملاً على جزاء الدنيا..

وإن هذا التنبيه ضروري للإنسان.. فما أسرع ما ينغمس في غفلته.. ويغفل عن مصيره.. وذكر الموت يقمع كبرياء الإنسان ويجعله متساهلاً مع الناس قادراً على العفو والتسامح.. إن ذكر الموت يسهِّل الصعب ويذلِّل طريق الاستقامة والإحسان.. ورؤية الإنسان وهو يعاني من سكرات الموت.. وزيارة القبور وشهود الجنائز.. تلك أمور ضرورية لبناء الأخلاق.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ فهل ندرك ثقل الموثق في الآخرة؟! إن من زحزح عن النار وتمكن من الابتعاد بصعوبة عنها.. ودخل الجنة فقد فاز...!! ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ الدنيا متاع خادع فكن منها على حذر.

وطالما أنكم تعرفون أن الموت حق فكيف تخدعكم الدنيا..؟!

ويكشف عن الوجه الآخر للدنيا.. فوجه فيه المتاع الخداع ووجه فيه الابتلاء..

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ بهذا التوكيد اللغوي يقرر أن الابتلاء سنة للحياة ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾

وهذا نوع من الابتلاء.. سماع الأذى من الناس.. وإن كل من يحرص على التمسك بالحق الآن يسمع أذى كثيراً.. حتى من المسلمين لأن بعدهم عن الحق الآن قد فاق بعد أهل الكتاب ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

وصحيح أن الإسلام دين ميسَّر حتى وصف بأنه الصراط المستقيم لسهولته ويسره وسرعة الوصول به إلى الهدف. ولكن القيام به يحتاج إلى عزم صادق وبعض أوامره لا يقدر عليها إلا من ملك العزيمة والصبر والتقوى وخاصة إن لم يكن المجتمع الإسلامي متوفراً.. وعند ذلك يصبح المتمسك بدينه كالقابض على الجمر. فالصبر والتقوى من عزم الأمور.. ولا يقدر عليهما من كان في حالة خمول واسترخاء.. والأمور التي لا تخرج من السهولة والاستحالة لا تستنفر جهد الإنسان ولا تضعُه في حالة توتر إيجابي.

ولهذا يأتي الترهيب والترغيب في القرآن.. وتأتي آيات لتقول للناس لا تظنوا أن دخول الجنة سهل.. وتأتي الآيات لتقول لا تقنطوا من رحمة الله.. فالأمر ليس بهذه الصعوبة. ولكن كونوا بين الخوف والرجاء.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾

من أذى أهل الكتاب للمسلمين أنهم كتموا ما عندهم من العلم حول نبوة محمد (ﷺ).

والآية عامة في كل أمة نزل عليها كتاب.. فقد أخذ الله على أهل

الكتاب عهداً أن يبينوا ولا يكتموا الآيات. وهناك فرق دقيق بين الأمرين.

فالكتمان: هو الإخفاء ونتيجته: الجهل بالكتاب، وهو جهلٌ بسيط.

أما البيان: فهو إعطاء الفهم السليم. لذلك فنتيجة ترك البيان هي التحريف وهو جهلٌ مركب (لأن صاحبه يظن أن عنده علم بينما هو يحمل مفاهيم خاطئة يجب إزالتها وإضافة الأفكار الصحيحة) ولا شك بأن الكتمان يؤدي إلى الجهل ويساعد أيضاً على حدوث التحريف.

والمسلمون حفظوا القرآن ولم يكتموه ولكن تركوا تبيينه للناس ففقدوا هدايته.

والقرآن يحتاج إلى بيان متجدد في كل عصر يتناسب مع نمو انكشاف آيات الآفاق والأنفس.

فالآية لا تعتبر طلب العلم وحده فريضة على المسلم.. بل توجب عليه التعليم والبيان.. وإلا فإن المسلم يعتبر ناكثاً بالعهد والميثاق مع الله. فإذا فرض علينا أن نبين القرآن ولا نكتمه.. فبالأحرى يفترض فينا أن نتعلمه وندرسه.

فالعلم ميراث النبوة (العلماء ورثة الأنبياء)[1] ونشر العلم فيه علاج للأكثرية المعرضة عن الحق﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾[2] فإذا انضمت الأكثرية إلى جانب الحق تغير المجتمع وتغيرت أحواله. فالنتائج في الدنيا تأتي بحسب أعمال الأكثرية.

فالوفاء بهذا الميثاق من شأنه أن يُسْهم إلى حد كبير في حل مشكلة العالم الإسلامي. ولو أدرك المسلمون أهمية هذا الموضوع لكرسوا له جهداً أكبر..

فلقد أدرك الناس أهمية القراءة والكتابة وأصبح كل فرد الآن حريصاً على الخروج من الأمية: فكانت النتيجة الاجتماعية أن المجتمع قد جهز مؤسسات لتعليم الأميين. فلو كان حرصنا على تعلم القرآن في هذا المستوى

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٤.

لوجدت مؤسسات لتعليم القرآن وبيان آياته.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

رموا به وراء ظهورهم كما ترمى الأشياء التي لا يُحتاج إليها.. ورضوا بدلاً عنه عرضاً من الدنيا.. والثمن القليل: كل شيء تترك من أجله تعليم القرآن.. ولو كان الدنيا بحذافيرها.

وكل ماجاء في القرآن في مجال ذكر عيوب أهل الكتاب يتضمن نهي المسلمين عن ذلك.. وإن عدم مبالاة المسلم بفهم القرآن ودراسته.. يُعتبر نبذاً للقرآن. وإيثار الراحة والسلامة من كيد المعرضين.. على تعليم القرآن ونشره يعتبر نموذجاً لبيع القرآن بثمن قليل.

ولقد توسع صاحب المنار رحمه الله في الحديث هنا عن الذين يمالئون أصحاب السلطة فيسكتون عن الحق وتعليم الآيات. فيكون هذا من الثمن القليل الذي قبل به.. يقول أبو ذر رضي الله عنه لسلمة بن قيس (لا تَغْشَ أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه) يقول (ﷺ): «سيكون بعدي أمراء.. فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض»[1]. ويقول (ﷺ) أيضاً: «ليأتينَّ عليكم أمراء يقربون شرار الناس ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها فمن أدرك ذلك منهم فلا يكوننَّ عريفاً ولا شرطياً ولا جابياً ولا خازناً»[2]. لأنه سيشاركهم في ظلمهم ويكتم الحق ويسكت عنه.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

وقد ذكر في نزول الآية روايتان: الأولى عن ابن عباس يقول فيها إنها

(١) رواه الترمذي وصححه.

(٢) من سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الألباني.

نزلت في أهل الكتاب سألهم النبي (ﷺ) عن شيء فكتموه.. وأخبروه بغيره.. وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم[1]. والثانية عن أبي سعيد الخدري أن رجالاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله (ﷺ) إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا[2].

صاحب المنار رحمه الله توسع عند الآية في الحديث عن الحكام وكيف يحبون التمجيد.

وصاحب الظلال رحمه الله يقول: إن الآية عامة في كل من يحب المدح والإدعاء والتبجّح.

ولعل من العذاب الذي توعد الله به هؤلاء المدعين: سقوط اعتبارهم بين الناس والهزء بهم.

والحذر من المدح لا ينبغي أن يكون قاصراً على (أن يحمدوا بما لم يفعلوا) وإنما الاحتراس من الرغبة في أن تمدح على أعمالك حتى تكون الأعمال خالصة لله: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾[3].

ولقد نهى رسول الله (ﷺ) عن المدح لما له من أثر ضار على الإنسان من غرور وغفلة. والناس ليسوا سواء في هذا الموضوع.. فبْعضهم يضره المدح وبعضهم يشجعه الثناء ويدفعه إلى أن يكون عند حسن الظن.. ورسول الله (ﷺ) كان يثني على بعض أصحابه لدفعهم إلى الخير.. كقوله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل»[4]. وقوله عن الزبير أنه حواريه.. والشهادة لأبي ذر بصدق اللهجة. ولهذا فالأمر دقيق.. ويحتاج إلى نضج وحكمة بحيث يوضع المدح في مكانه والنقد في مكانه. علماً

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٩.

(٤) متفق عليه.

بأن الإنسان يصل إلى درجة من النضج والتوازن بحيث لا يخرجه المدح أو الذم عن طوره.. فلا المدح يوقعه في الغفلة والغرور ولا الذم يحبطه ويحطم معنوياته.

ومع ذلك فإن الآية تنبه إلى أن حب المدح من الناس لا يدل على خير.. وإنما المؤمن خائف من ذنبه شاعر بتقصيره حتى عندما يقدم أعمالاً طيبة فإنه يحس أنه كان يمكن أن يقدم أفضل من ذلك.

﴿فلا تحسبنهم بمغازة من العذاب﴾ فإن مدح الناس لن يدفع عنهم العذاب. بل لهم عذاب أليم.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

فما أسخف هؤلاء الذين يبتغون المدح من العبيد وكان الجدير بهم أن يطلبوا ما عند رب العباد. وفي كل مجتمع يوجد رجال يعجزون عن تحمل تبعة الرأي.. فيسكتون عن الحق ويخفون رأيهم. فلما يُغلب المكافحون ويتعرضون للأذى.. يتكلم هؤلاء ويتبجحون بأنهم كانوا حكماء حين سكتوا عن الحق فلقد كانت الظروف غير مواتية للكلام... فإذا انتصر المكافحون تظاهر هؤلاء بأنهم كانوا معهم ومن أنصارهم. ولكن الله له ملك السموات والأرض.. وهو مطلع على نواياهم وقادر على عقابهم فليحذروا.

وتعتبر الآية تعقيباً على الغزوة وما جاء فيها من أحداث وتوجيهات.

الفصل السادس

أولو الألباب يتفكّرون ويذّكرون



إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا
سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا
مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ
لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم
مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ
وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ
ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ
مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ
﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ
لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ



أولو الألباب يتفكّرون ويذّكرون

الآيات التي بين أيدينا الآن تأتي لتكون ختاماً للسورة فتعيد التأكيد على نقاط هامة سبق أن طُرِحت فيها. وتنقلنا من ميدان معركة خارجية ـ غزوة أحد ـ إلى المعركة التي تدور في أعماق النفس مع عدو أخطر يحاول أن يتسلل إلى النفس ويسيطر عليها بالذنوب والمعاصي.. فإذا احتاجت المعركة الخارجية إلى صبر وثبات وحذر ويقظة فإن حاجتنا إلى ذلك في المعركة الداخلية اليومية ليست أقل. ولهذا يعرض السياق لنا صورة هؤلاء المتفكرين الذاكرين وهم خائفون وجلون يتضرعون إلى الله طالبين منه العون والانتصار على ذنوبهم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

الآية التي سبقت ﴿ولله ملك السموات والأرض..﴾ عقبت على ما قبلها ومهدت لما يأتي بعدها.. وكأن الآيات تقول: دعك من هؤلاء الذين يكتمون الحق ويتبجحون.. دعك من أصحاب المواقف الهزيلة.. وانظر فيما يشغل بال أصحاب العقول والألباب.. إنهم يتفكرون في خلق الكون ويذكرون خالق الكون.

والآية تشير إلى نقاط هامة.. منها:

١ ـ حديث القرآن عن الكون جاء من جانبين:

١ً ـ على أنه دليل على الله وحكمته.

٢ً ـ على أنه مسخر للإنسان وسيسأل الإنسان عن تسخيره.

٢ ـ إذا كان القرآن كتاب الله المسطور فإن الكون كتاب الله المفتوح وآياته منظورة وعلى الإنسان أن يتدبر هذه الآيات كما يتدبر آيات القرآن. والسموات والأرض واختلاف الليل والنهار هي أول ما يلفت النظر وهي مجالات فسيحة للدراسة والتفكير وتأمل قدرة الله وحكمته.

٣ ـ الكون مصدر من مصادر معرفة الحق كما بين الله في آيات أخرى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1]. فآيات الله ثلاث:

١ ـ آيات الكتاب.

٢ ـ آيات الآفاق (العلوم المادية).

٣ ـ آيات الأنفس (العلوم الإنسانية).

وهي المراجع التي يجب الرجوع إليها لمعرفة الحق.. وإن النمو في معرفة آيات الآفاق والأنفس يحقق نمواً في فهم آيات الكتاب.. (كما حدث في فهم ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾[2] وفي فهم ﴿لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾[3]. وفي الآيات التي تحدثت عن مراحل الجنين... الخ).

وينبغي أن نشعر بأن الإعراض عن آيات الآفاق والأنفس لا يقل وزراً عن الإعراض عن آيات الكتاب فالقرآن يثبت أنها كلها آيات الله ﴿آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾، ويندّد بالذين يعرضون عنها ﴿وكأين من آية في

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٤٧.

(٣) سورة النحل: الآية ٨.

السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾[1] وقد يظن القارىء أن هذا الكلام بدهي . . ولكن المسلم لا يشعر في قرارة نفسه بأنه مُلْزَم بالأخذ بما توصلت إليه العلوم المادية والإنسانية من نتائج . .

وأضرب مثلاً على ذلك: موضوع التدخين . . لقد أثبتت العلوم المادية أنه يجب منعه لما فيه من أضرار . . فهل يشعر المسلم حين يدخن بأنه مكذّب بآيات الله معرض عنها . . ؟!

وهنا أشعر بالأسى يغمرني لأنني لا أستطيع أن أزحزح المثال كي يدخل إلى ميدان العلوم الإنسانية . . لأن المسلم قد شطب على هذه العلوم وأسقط من نفسه كل اعتبار لها بحجة أن القرآن والسنة يكفيانه فيما يتعلق بتربية النفس وصناعة المجتمع . . !!

ويغيب عن ذهنه أن القرآن نفسه قد طلب منا دراسة هذه العلوم ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾[2]. والرسول (ﷺ) أمرنا أن ندرس اختلاف النفوس كي نعرف الأسلوب الصحيح في مخاطبتها «أُمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم» . . إن المسلمين حتى الآن معرضون عن آيات الله في الأنفس . . ويظنون أن إعراضهم هذا يمثل منتهى الالتزام بالكتاب والسنة . . وتغيير هذا الموقف يحتاج إلى جهود ودأب . . . والله المستعان . .

سمعت أحد الدارسين لأيات الأنفس يقول: إن المسلمين يشعرون أن من واجبهم إذا أصيب ولد بمرض جسماني خطير أن يجمعوا له أطباء ويعرضوا عليهم حالته ويأخذوا بآرائهم وتوصياتهم . . **فلماذا لا يشعرون حين يضطرب سلوك ولدهم ويقع في الانحراف بأن عليهم** أن يعرضوا حالته على أطباء النفس ويأخذوا بتوصياتهم . . ؟!

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٥.
(٢) سورة الروم: الآية ٤٢.

٤ ـ إن الآيـات التي جاء بهـا محمد (ﷺ) تختلف عن الآيـات التي جاء بهـا الأنبياء من قبل، إنها آيات العلم التي تنكشف باضطراد للذين يتفكرون، فليتأمل طـالبـو الأدلـة والمعجـزات فـ ﴿إن في خلق السمـوات والأرض واختـلاف الليـل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ هذه الآيات هي معجزة الإسلام الباقية الخالدة التي تزداد نمواً مع نمو العلم(١).

٥ ـ أولـو الألباب هم الـذين يستفيدون من هـذه الآيات. . وكـما يقـول صـاحب المنار رحمـه الله: سمي العقل لبـاً لأن اللب هو محـل الحياة من الشيء وخاصته وفائدته. . وحياة الإنسـان وميزتـه التي تفرده عن سـائر المخلوقـات إنما هي العقل.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ والآية تـربط بين مـوضوعـين: الذكـر والتفكير. . **وهنـا يمكن أن نسجل أيضاً بعض النقاط الهامة.**

١ ـ إن الذكر الصحيـح ـ المستقى من الكتاب والسنـة ـ يؤدي إلى إعمال الفكر ويرتبط بالتفكير ارتباطاً وثيقاً. . فليس الذكر كلمات تردد باللسان وإنما هو (حال) يكون عليه الفكر.

٢ ـ وإن التفكير في أمر والتعمق فيه يوصل إلى مرحلة من الـولع والتعلق بهذا الأمر فتذكره قائماً وقاعداً وعـلى كل حـال. . فالتفكـير في صنع الله يجعلك ذاكراً لله في كل أحوالك.

٣ ـ ولهذا يمكن أن نقول: إن العلاقة بين الذكر والفكر جـدلية. . فكـل منهما سبب ونتيجة للآخر. والكاتب المعروف عبـاس محمود العقـاد رحمه الله لـه كتاب تحسن قراءته وهو بعنوان (التفكير فريضة إسلامية) يقول فيه: إن التفكـير

---

(١) يراجع كتاب اقرأ وربك الأكرم للأستاذ جودت سعيد.

يوجب الإسلام والإسلام يوجب التفكير.

٤ ـ هذا الموضوع شبيه بموضوع الإخلاص والصواب. فالفكر لا تكمل فائدته بدون ذكر الله. وذكر الله لا يؤدي ثماره بدون تفكر وتدبر.

٥ ـ التفكير يحتاج إلى تدريب.. فالذي لم يتعوّد على التفكير في خلق السموات والأرض كالذي لم يتدرب على القراءة والكتابة. والعقول كالأجهزة تصدأ وتثقل حركتها من قلة الاستعمال وإعادة الحركة إلى العقول قد يكون صعباً في البداية.. ولكن الفكر يصبح مدرباً بعد ذلك على العمل. والوقوف عند الأشياء وتأمل النتائج يعطي ملكة التفكير فلا يمر الإنسان على الأمور أصم وأعمى...

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١﴾

وهنا نرى كيف أوصلهم التفكير إلى الحق.. وأدركوا أن وراء هذا الخلق حكمة ربانية وأن وراء هذه الدنيا حياة وحساباً وعقاباً.. فتوجهوا إلى الله بالدعاء.

يقول الحسن البصري رحمه الله: تفكّر ساعة خير من قيام ليلة. ويقول عيسى عليه السلام: طوبى لمن كان قيله تذكراً وصمته تفكراً ونظره عبراً.

وسأل ابن عمر (رضي الله عنهما) أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) فقال: أخبرينا بأعجب ما رأيتيه من رسول الله (ﷺ)؟ فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً. أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عز وجل» قلت: والله إني لأحب قربك وإني أحب أن تعبد ربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صبّ الماء ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار

لآيات لأولي الألباب﴾ ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[1].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾

والمؤمن عزيز النفس يشعر بأن كرامته أغلى عليه من كل شيء.. فالإهانة والخزي أصعب عليه من عذاب النار.. والتعذيب النفسي يؤثر عليه أكثر من التعذيب الجسدي..

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ١٩٢﴾

وكل من يحاول ظلم الآخرين لا بد أن ينعكس عليه الظلم فيظلم نفسه.. فيعرضها لسخط الله ويحرمها من الأنصار.. خاصة في الآخرة. ففي الدنيا قد يجد لنفسه أنصاراً ولو كان ظالماً.. أما في الآخرة فأين الأنصار؟!

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾

هذا المنادي قد يكون: دعوة الأنبياء.. صوت الدعاة المجددين في كل عصر.. صوت الفطرة من الأعماق يهتف بالإنسان: اخضع لربك وخالقك. كل شيء في الكون لو فكرت فيه يناديك: آمن بالله.

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣﴾

هؤلاء الذين فكروا بعقولهم وآمنوا بربهم أحسوا أنهم معرضون للخطأ والقصور في العمل. والإنسان معرض للخطأ والنسيان وتخفى عليه أشياء كثيرة وشروط متعددة ينبغي أن تتوفر في العمل حتى يكون ناجحاً.. فالمؤمن يفعل ما يقدر عليه ويدعو الله فيما لا يقدر عليه. ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ وفقنا لأعمالهم حتى نبلغ مقامهم. «والبرُّ هو جماع الخير».

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ١٩٤﴾

---

(١) رواه ابن مردويه وعبد بن حميد.

فقد وعد المؤمنون بالمغفرة والجنة في الآخرة. . وبالاستخلاف في الأرض في الحياة الدنيا. . ومرة ثانية يعبرون عن خوفهم من الخزي في الآخرة فإن الفضيحة والهوان أصعب شيء عليهم. ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة. .»[1] ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[2].

وهكذا ختموا دعاءهم بحسن الثناء على الله وحسن الظن به فجاءتهم الاستجابة مباشرة.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾

﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾[3] والدعاء هو مخ العبادة كما ورد في الحديث الصحيح. . وإن الله يعطي العبد على دعائه إحدى ثلاث: «ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها أو يدخر له من الأجر مثلها. ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»[4].

ولقد كان الدعاء نموذجياً من حيث المعنى والخشوع واللفظ والإيقاع. . تعليماً لمن يحب أن يصل إلى الله ويحصل على رضاه. . وجاءت الاستجابة دقيقة فلم يقل لهم لن أضيع كلامكم. . بل قال سبحانه ﴿لا أضيع عمل عامل منكم﴾ فالجزاء على الأعمال لا على الأقوال. وكل عمل مخلص لله له وزنه عند الله مهما كان صغيراً.

﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ فالمساواة في الثواب بين الذكر والأنثى كاملة. وينتهز الفرصة ليعلل ذلك ﴿بعضكم من بعض﴾. . فهو يقرر

(١) رواه الترمذي والحاكم (صحيح الجامع الصغير رقم ٢٤٣).
(٢) متفق عليه.
(٣) سورة غافر: الآية ٦٠.
(٤) رواه الحاكم.

في الأذهان التماثل والأصل الواحد للذكر والأنثى.. فلماذا التفريق في المكانة والكرامة وفي الأعمال والأجور..؟! ولقد سبق أن عرض علينا قصة نذر امرأة عمران وكيف أن الله تقبل مريم التي نذرت لخدمة دين الله بقبول حسن.. وما زال الموضوع في حاجة إلى التأكيد والترسيخ في نفسية الرجل والمرأة.. وماذا نتوقع أن تفعل المرأة إن لم تشعر بكرامتها ومكانتها وأنه يمكنها أن تقوم بأدوار عظيمة في إصلاح المجتمع لا تقل شأناً ولا أجراً عن أدوار الرجل؟!

ولهذا نجد هذا الموضوع على رأس الموضوعات التي تعود الآيات في ختام السورة لتؤكد عليها وكأنها ملخص لأهم ما ورد فيها:

١ ً - تقرير المساواة بين الرجل والمرأة في الكرامة الإنسانية والثواب:

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ..﴾ أوجز في البداية حين ذكر العمل.. ثم يفصل الآن في الأعمال التي تستحق حسن الجزاء. وعلى رأسها الهجرة. وهي في حقيقتها استعداد لأن تترك كل شيء في سبيل الله إن اقتضى الأمر. والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه.

والصفات المذكورة في الآيات ترسم صورة للمسلم المستعد أن يعيش ويموت لله.. يضحي، ويبذل كل شيء، ويصبر ويتحمل في سبيل الله. وهو الموضوع الثاني الذي يركز عليه الختام.

٢ ً - الفائزون هم الذين عاشوا في سبيل الله وبذلوا كل شيء لله وماتوا في سبيله:

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾. والثواب هو ما يعود على الإنسان من أجر على أعماله.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ تنبيه للمسلم حتى لا تخدعه الأحوال التي يتقلب فيها

الكفار من نعيم دنيوي . . فإن هذه نتائج عاجلة لما قاموا به من أسباب للحصول على الدنيا . . فإن الدنيا لها أسبابها ومن قام بهذه الأسباب حصل عليها سواء كان مؤمناً أم كافراً. لكنه متاع قليل محدود يعود الكفار بعده إلى مأواهم ومحل إقامتهم ﴿جهنم وبئس المهاد﴾.

أمر آخر يجب التنبّه له هنا . . أن لا نسيء الفهم ونظن أن الكفار لهم الدنيا ولنا الآخرة فإن الله قد كلف المسلم بالخلافة على الأرض. ولا بد لمن يطلب ثواب الآخرة أن يجتهد في إصلاح الدنيا وإقامة العدل فيها . . وإن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي قال له الرسول (ﷺ) «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»[1] لم يترك الدنيا لكسرى وقيصر بل انتزعها منهما وجاءته كنوزهما فوزعها على المسلمين وأصلح أمورهم وظل هو يلبس ثوبه المرقع ويأكل الخبز اليابس . . .

وقد سبق أن تحدثت الآيات عن سنة إيتاء الملك (الآية رقم ٢٦). وكررت التحذير من الاغترار بما قد يناله الكفار من نعيم الدنيا (مثل الآية ١٧٨) ﴿ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾. وهنا يعود ليكرر هذا التحذير:

٣ ـ لا تخدعنكم النتائج العاجلة للكفار . . . واحسبوا حساباً لما هو خير وأبقى.

ثم إن هؤلاء الكفار لا بد أن تظهر فيهم نتائج الكفر ومخالفة ما أمر الله به من سنن الحياة السليمة للفرد والمجتمع . . كالاضطرابات النفسية والاجتماعية والأمراض الجنسية[2] . . . الخ.

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ ﴾ لما ذكر متاع الكفار ذكر بالمقابل ما أعد الله للمتقين

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) ومرض الإيدز الآن يهددهم كطاعون جديد. وهو مثال واحد.

الـذين عملوا للآخـرة فأدوا واجبهم في الـدنيا ولم يهملوهـا . . ولم يعلقوا قلوبهم بها . . أولئك أعد الله لهم منزلاً ونعيماً أفضل ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ .

ولقد تحدثت السورة بتوسع عن أخطاء أهل الكتاب مع التنبيه عـلى عدم إطلاق الحكم على الجميع . . مثل قوله في الآية (١١٣): ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيـات الله آناء الليـل وهم يسجدون﴾ . وهنـا في ختام السورة يعود ليؤكد ذلك :

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ .

٤ ـ مِنْ أهل الكتاب مَنْ يتصف بصفات الإيمان ، فلهم أجرهم .

وهو تعليم رباني للأمة المسلمة أن تكون منصفة ودقيقة في حكمها . . وأن تنبـذ التعصب ضـد الأمم الأخـرى ولا تتسرع في الحكم بـالكفـر عـلى أهـل الكتاب .

ويصف هذه الطائفة من أهل الكتاب بصفات أربعة :

١ ـ يؤمنون بالله .
٢ ـ وبما نزل على الأنبياء جميعاً .
٣ ـ خاشعين لله .

٤ ـ لا يشـترون بآيـات الله ثمناً قليـلاً ـ أي لا يفضلون على التمسـك بآيات الله مالاً ولا جاهاً أو منصباً أو غير ذلك من ملذات الدنيا .

هذه الطائفة التي سلمت من عيوب وأخطاء أهل الكتاب يذكرها الله . . . بعـد أن ذكر المؤمنـين ودعاءهم واستجـابته لهم ﴿لا أضيـع عمل عامل منكم﴾ . . فيثنِّي بذكر هؤلاء من أهل الكتاب ويؤكد أن هؤلاء أيضاً لن يضيع الله أعمالهم :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾

ومن الناس من لا يدخـل في ذهنه : كيف يمكن أن يحـاسب الله ملاييـن

البشر كل فرد منهم على حدة وبحيث لا يظلم أحدهم مثقال ذرة. . !!

فإن كنت تعجز أيها الإنسان عن هذا الحساب فلا تظن بأن الله يعجز ولا تقس قدرة الله بقدرتك فإن الله على كل شيء قدير. . وهو سريع الحساب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ يوجز التوجيهات والوصايا للمؤمنين بهذا النداء الأخير في ختام السورة.

٥ً ـ صبر ومصابرة + مرابطة + تقوى الله = فلاح.

الصبر للفرد وللأمة. والمصابرة هي التفوق على العدو بالصبر (أن يغلب صبرك صبره) وهي إشارة هامة إلى ما يعانيه أهل الباطل وما عندهم من قدرة على الاحتمال والتماسك. . ضعوا هذا في حسابكم. . وما ينبغي لمن لا يؤمن بالآخرة أن يتفوق في الصبر والاحتمال على صبركم. .

والمرابطة: هي الحراسة والمراقبة في الأماكن الخطرة التي يخشى دخول العدو منها. وهي على نوعين:

١ ـ مرابطة مادية في الثغور وعلى الحدود.

٢ ـ مرابطة معنوية: عند نقاط الضعف في النفس والمجتمع.

يقول (ﷺ): «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»[1].

ونحن في حاجة إلى المرابطة في ميدان الصراع الفكري. . فمن المؤسف أن نجد الثغور هنا خالية من المرابطين ـ إلا من رحم الله ـ فوسائل الإعلام تبث سمومها ولا أحد يتصدى لرد كيدها. . ومناهج التربية في العالم الاسلامي تخرج أجيالاً من العطالة والخمول الفكري. . ولا أحد يحاول إيقاف هذا التيار.

---

(١) رواه البخاري.

وقد وصف الرسول (ﷺ) نوعاً من المرابطة النفسية في حديثه: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟! إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»[1].

فكما أن الصبر والحذر من العدو مهم في الجهاد. فإن المحافظة على الصلاة في وقتها يحتاج إلى جهاد وصبر ويقظة لوساوس الشيطان.. وهي مرابطة يومية على منافذ النفس ومواضع الضعف فيها يحتاج إليها المسلم طيلة عمره...

ولقد سبق أن أشرْتُ إلى ما يشبه ذلك في سورة البقرة.. عندما وجه الله سبحانه وتعالى المطلقات إلى الانتظار والحذر من دوافع النفس بقوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾[2]. فهذا نوع من المرابطة أمام ضعف النفس.

والتقوى: هي فعل الأوامر وترك النواهي طلباً لرضا الله وحذراً من عقابه. فإذا قمتم بهذه الأسباب الثلاثة: الصبر والمرابطة والتقوى.. حصلتم على الفلاح.. ولا يحدد الفلاح بل يتركه عاماً ليشمل فلاح الدنيا والآخرة.

وهكذا تختم السورة باسْتِنْفار لعزائم المؤمنين.. فالنجاح لا يتم بسهولة والفوز لا يناله إلا أصحاب الهمم العالية.. والحياة تحتاج إلى صبر ومصابرة.. وتقوى ومرابطة.. فهلمّوا أيها المؤمنون إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

اللهم تقبّل مني إن أصبْتُ.. واغفر لي فيما أخطأْتُ.. ووفّق المسلمين

---

(١) رواه مسلم والنسائي.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

إلى تقديم دراسات أفضل لآياتك المسطورة في الكتاب والمنظورة في الآفاق والأنفس.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مكة المكرمة

جمادي الأولى ١٤٠٨ هـ



مراجع الكتاب

١ ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
٢ ـ تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا
٣ ـ في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب
٤ ـ من هدي سورة النساء للكاتبة
٥ ـ من هدي سورة لقمان للكاتبة
٦ ـ صحيح البخاري
٧ ـ مختصر صحيح مسلم للمنذري
٨ ـ رياض الصالحين للإمام النووي
٩ ـ البداية والنهاية لابن كثير
١٠ ـ الإنسان حين يكون كلًّا وحين يكون عدلاً للأستاذ جودت سعيد
١١ ـ فقدان التوازن الاجتماعي للأستاذ جودت سعيد
١٢ ـ حتى يغيروا ما بأنفسهم للأستاذ جودت سعيد
١٣ ـ العمل قدرة وإرادة للأستاذ جودت سعيد
١٤ ـ مذهب ابن آدم الأول للأستاذ جودت سعيد
١٥ ـ اقرأ وربك الأكرم للأستاذ جودت سعيد
١٦ ـ النقد الذاتي للدكتور خالص جلبي

١٧ ـ هذا الدين للأستاذ سيد قطب
١٨ ـ فلسفة التربية الإسلامية للدكتور ماجد عرسان الكيلاني
١٩ ـ التفكير فريضة إسلامية للأستاذ عباس محمود العقاد
٢٠ ـ نحو ثورة سلمية للأستاذ أبي الأعلى المودودي
٢١ ـ سيكولوجية الإنسان المقهور للدكتور مصطفى حجازي
٢٢ ـ إنجيل مرقص
٢٣ ـ إنجيل برنابا ـ ترجمة خليل سعادة

الفهرس

من أعمال المؤلفة

١ ـ سمية بنت خياط (الشهيدة الأولى)
٢ ـ أم سليم بنت ملحان (الزوجة المؤمنة)
٣ ـ أم حكيم بنت الحارث (العروس الشهيدة)
٤ ـ الشمس والريح (مجموعة قصصية للناشئين)
٥ ـ ميلاد جديد (مجموعة قصصية للراشدين)
٦ ـ أضواء من سورة يٓس
٧ ـ من هدي سورة لقمان
٨ ـ من هدي سورة النساء
٩ ـ من هدي سورة آل عمران
١٠ ـ من هدي سورة البقرة